رواية

مزلقان باكوس

آيثر مصطفى

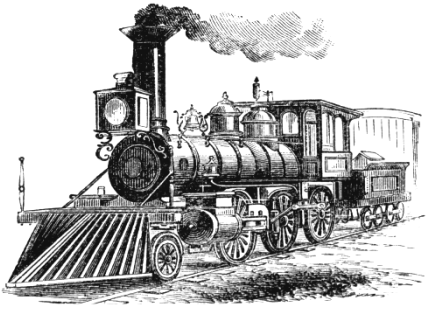

رواية: مزلقان باكوس

الكاتب: آيثر مصطفى

تدقيق لغوي: أسماء الساعي

إخراج فني: هند محمود كمال

رقم الإيداع: 2024/27509

الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-9664-33-0

@aythermostafa

حقوق الملكية الفكرية وحقوق الطبع كافة محفوظة للمؤلف، ويمنع منعًا باتًّا نسخ أو نقل أو طبع أي من النصـــوص الواردة في هذا الكتاب من دون موافقته.

2024

شكر خاص

للفأر الذي يلعب في عِبّي..

الفصل الأول

في السادس من يونيو عام 1948

نبش الزمن بأنيابه مستقر عباده، وهشّم ممزّقًا الحروف في قصة طالت مئات السنين، وفتح فمه على مصراعيه لنهش رواية نابضة ليمزّقها تحت ضروسه، خاب ظن مضمون الحكاية، ظنّت أن الزمن عفا عنها وغفر لها وسطّر أقدارها بالذهب الذي لا يصدأ! كان المضمون وإن طال سيغدو غائبًا، وإن غاب فهو هنا مرابط، بالتكاتف والتحالف والصد، المُعَنون بـ شَعب الرب المختار. وإن كان في الشتات فرقة فكانت رحمةً وكرمًا لأوصالهم الذائبة. طفق يعبث ضميره ويؤنّبه، لكن مهما أحسّ، فهو جندي؛ يأمر الإله فيطيع! ومهما خالف فهو من صنع الخالق. أحرق صفحةً تلو أخرى لتتطاير رمادًا ورثاءً، هشّم صخورًا تكوّنت بفعل التاريخ، وحطّم مرادًا راهن على بقائه. وكانت كصخور المعابد؛ ثقيلةً بالأحاديث والتاريخ والشخصيات والرموز والثقافة واللغة. جادل الزمن الإله لما جعلهم بشتات، لما اشبكت بهم الفرقة والهجرة، ألا آن الأوان ببعض الرحمة؛ قابله الإله بحكمته أنه

قَدَره المطلق، ولا سبيل للجدال والبثّ في أمره عبث لا فائدة منه ولا جدوى، وإن جادل كل عبد لمَا سار الكون! ولمَا مرّ الزمن.. لكن تأكّد أن لكل أمر غايةً وسببًا، ولهذا الكون أسبابه وغاياته. لقد جعلت في ذلك العرق حكمتي، وكيف هي مشيئتي الرصينة المتكاملة؟ اصبر لِمَا وُضِعْت وكُلِّفْت، ونَلْ مِن مَن ينشز ويتكبر. تابع الزمن متسائلًا: وهل لهم برزخ في خلدك المعهود؟ رد الإله بعظيم كبريائه أنني المحب؛ فجُلّ قطرة عرق وصرخة حزن وصدمة فراق وهدر دم وقرصة ألم يُحسب لهم في الأمجاد؛ إنهم عبادي الأتقياء، وحرّاس عقيدتي النبلاء، فإن قسوت فقسوتي بغفران.

تحت قرص صهد الصيف الكابس، وخلوّ الفضاء من سُحُب الرحمة، وفوج طيور النورس المهاجرة، وصعود دخان السفن المتحشرج، ينتصب رجل سبعيني امتقع وتبدّد بياضه لاحمرار، غامت نظارته الطبية لينزلها وينظفها بإحكام، أرجعها مستطلعًا يختبر نظره المتثاقل ببُعد البحر، اعتراه صداع فجأة! يتخلّل جبهته المتجعدة، فتبيّن بعد تذكّره أنه الضغط اللعين.. التقط عبوةً بها حبيبات، وابتلع حبةً لتخفت دقات قلبه المتسارعة. بعد خضوعه وفتوره، تلا صلوات تروية صحة وعافية. كان الطبيب "مانوكيان" يتشوّق بلهفة؛ ليطأ حذاؤه سفينة العودة، كونه يعمل في مصر بعد الهرب من النزاع التركي الأرمني، ويشتاق لأهله وعزوته، وأزاحته الطلقات والنيران للمكوث بدار أخرى، فكانت مصر قدره الجديد، وعامل آخر أخنق راحته موت أخيه بالصراع، كان الأمر صاعقًا، أجفله بوسواس، ليركع تحت وطأة التوتر ورجفة البدن، ففزع وهاجر وفتح عيادةً في أحد أحياء القاهرة. وغمده عملة كطبيب معروف، العمل لسنوات وسنوات إلى أن استمر

لستون ربيعا يقبل علية الأثرياء والباشوات والباكوات، والاميرالات وأصحاب الشأن وعلوا الذات.

من أشهر أطباء القلب في مصر، هكذا كان معروفًا في الصحف والمجلات، وعبقريًّا بغُرف القلب وأوردته، فكانت نسب نجاح عملياته هي الأعلى، وبه الخير بعلاجه، لا ينافسه أحد، له اسم في أوساط جرّاحي العالم، الذين كانوا يعتبرونه استثنائيًّا ذا نباهة، وعرف بتخصيص يوم للكشف المجاني للمحتاجين؛ مُتّخذًا ركنًا في كنيسة، يصرف دواءً لغير القادرين وأصحاب العوز، وهذا نتاج حكمته منذ الصغر واجتهاده منذ تخرجه من إحدى الجامعات الأوربية.

وعلى مقربة منه بأمتار قليلة، سبرت بنظرها في السفن البعيدة مكفهرة، يراودها الأسى، كيف سيكون الوطن؟ هل سنلوذ به أم سيطفو وغى المتحاربين؟ تمكث منذ ساعة ونصف في حشد قذف به القدر للترحال، رمقت مَن حولها في نظرات متأنية مترقبة، وصليب يتدلّى من رقبتها يحفظها من الدنس المعقود في أعين الذكور. كانت مخطبة بالحناء التي تشعث إثر عرقها المتساقط، فإنْتَكَفَت العَرَق من جبينها المتقطر، وسحبت حقائبها الثقيلة، واحتمت بظلال سفينة غشى ظلامها بقعة من الأرض. بعد برهة، أتى زوجها مرافقًا ابنته المراهقة، التي تركت أصدقاءها ومدرستها.. هذه الوردة أُجبرَت على ترك ذكرياتها وقطعة منها، مجبورة بقرار الأبَوين، ثم لثمها زوجها والتصق بها موقدًا الشعلة والسيجارة. تتابعت دقائق الانتظار حتى كلحت وجوههم البيضاء، كانت الحرارة متشبثةً برطوبة أكلت اتّزانهم. رام الزوج نحو بائع المشروبات، واشترى ثلاث زجاجات من الكولا ليرتووا، فانتعش بريقهم الغامد. مرّ شاب يبدو عاملًا في الميناء، قائلًا: "السفينة

ستصل بعد ساعة". يذيع تلك الجملة مارًّا بالحشد، ثم واست ابنتها قائلةً "هانت، سيكون كل شيء على ما يرام". اقترب نحوهم رجل قائلًا للزوج" "قداحة من فضلك" فسلّمه إياها ليشعل سيجارته ويعاودها له بالشكر، ثم رحل هذا الشاب الأرمني الذي تعالت إمالته وريعانه بعلمه أن الوطن كشف تطلعه واشتياقه لأبنائه، وبذر أرضه الأخضر بعد انتهاء الحرب. هفهف هواء البحر خصلاته المنمّقة، واشتبك برمشه ليفرك عينه الخضراء الزاهرة.. فَرَد ظهره المتقوّص من العمل، وبثّ أحاديث بمُخيّلته عن هيئة أخيه الذي يراسله منذ عشرين سنة، جل ما ينقصه قطع البحر ليتكشف له ما وراء ستار الوطن. أخرج ورقةً ودقّق بها وهو ينفث سيجارته الملفوفة.

أخي العزيز، نعم انتهت الحرب أخيرًا، وبات الوضع أكثر اطمئنانًا البلد تحت سيطرة السوفييت، لكنّ هناك نفوذًا خارجيًّا تركيًّا لم يزل. دبابات السوفييت تموج في الشوارع، لكن كل ذلك سيخمد، عليك بالمجيء لأننا ننتظر بلهفة مجيئك؛ أمك كل يوم تسألني عنك، وأقرأ لها رسائلك الطويلة، تقول لي إنها تريد أن ترى صورتك ولو لمرة! لماذا ترسل المال أيها الفقير؟ أنت تعلم أن الوضع جيد وحالتنا ميسورة، تكفَّل بنفسك. آآاه، خطك سيئ جدًّا أيها الكاتب! كيف تعمل صحفيًّا بهذه الحروف المبعثرة؟ ربما عليك تعلم اللغة الأرمينية جيدًا من جديد.. أو ربما نسيت قواعد النحو والصرف، وبتّ تخطئ بتركيب الجمل! هل ابتلعت العربية أرمينيتك؟ أتتذكر الفتاة الصغيرة التي كنا نلعب معها "سيفانا"؟

لقد صارت رهوانًا يا عزيزي! ينقصها جواد ماهر.. يا لحظّك! لطالما كنت أنت أكثر مَن تحبّه بيننا، وتلعبان معًا في باحة الشارع، وتركضان خلف بعضكما متناسيًا جرح قدمك الدامية! واحذرك قائلًا إنها تنزف، فترد بابتسامة أنا بخير..

لا يوجد أحد في بالها؛ لقد تقدم لها رجال كثر، لكنها ترفض! حيث تقدم لها من أسبوع مهندسًا ولم توافق. وآخرون من شدة دلالها كانوا يتوسّلون لها، لكن زوت توسلاتهم برفضها وأغلقت الباب. ربما ذبلت غايتها للرجال، لا أعلم! أو ربما ما زلت بقلبها؟ ابتسم الشاب الصحفي بعد قراءة تلك العبارة، وتابع: بالتأكيد سيُتوّج كل ذلك بالمجيء لخطبتها، لقد دار بيننا حديث؛ وعلمت أنها تعمل ممرضة. ستحصل على المزيد من التفاصيل عندما تصل بالسلامة. على أية حال الجميع في انتظارك، اعتني بنفسك...

مع تحياتي..

بوغوص

ووسط هذا الحشد، تكدّست الجماهير تباعًا، فكوّمت طابورًا عتيًّا. وبلحظة وداع أشاح رجل في بذلة فاخرة لآخَر يقف على مسافة ليدنو نحوه الثاني؛ فامتزجت مشاعر الفراق، وتململت أعصابهم بالحزن. وبلحظة عطف، انتبه أحدهما لمواء قطة؛ فسقاها من زجاجته بمهل. وعلى مقربة، طفقا يثرثران ويتجادلان في الحديث. الترزي "نوبار" خمسون سنة، يقطن في الإسكندرية، ووُلِد بها من أبَوين أرمينيَّين،

ويمجّد عودة الوطن رغم أنه من أهل المدينة العتيقة.. أما الآخر، فهو "يوسف باشا" عجوز سبعيني، أحد رجال الأعمال البارزين، سيسافر معه للبحث عن فرصة للاستثمار. لقد عرف "يوسف باشا" "نوبار" من بضعة أشهر؛ كونه يفضّل عنده بِذَله الفاخرة، مستعملًا أقمشةً ذات جودة. رمق يوسف باشا امرأةً كتمثال أفروديت، دلّلت شهوته الغائبة، وجحظت عَينا الآخر متأمّلان؛ قال أحدهما: "لقد غرت أخلاقك يا هذا".. ليردّ "نوبار" بسخرية: "راقب بصمت!". على حين غرة، اندسّ صوت بوق سفينة أجفلهما؛ فخبت نظراتهما المتملقة. تحسّس "نوبار" خاتمه الذهبي المحفور به اسم محالة "ليڤون"، وبرقت قرنيته؛ راح يسترجع ذكرياته عندما افتتح محالة في أحد شوارع المنشية، عندما كان شابًّا يافعًا، وكست الأقمشة الجدران، تَلفِت الساعين لارتدائها. وكيف كان يمتخر أنقى الأنواع وأجودها للعرض، ووقوف أقاربه ومعارفه يحتفون به مشجّعين هذه الخطوة متهافتين حوله بالتهاني. حُفر ذلك الحدث كنقش في مخيلته ولم تلتوِ ثانية منها للنسيان.

– "في ماذا تسرح؟".

ردّ قائلًا: "لا شيء، سأفتقد هذا البلد حقًّا".

– "وأنا أيضًا، منذ أن خرب العثمانيون بلادنا جئت مستنفرًا، شيدت ڤللًا وقصورًا، وبنيت مصانع لكبار القوم، عملت في شتى المدن، ونَمَت شركات، أتعلم جل ما أنا عليه الآن بفضل رجل نصحني بالعمل في مجالات البناء، مهندس قدير أرشدني لهذا الطريق. كانت حقًّا معي زكيبة من المال في حقيبتين أنام بهما كل يوم

خوفًا في أحد الأوتيلات، كنت جبانًا؛ أخذ بيدي ذلك الرجل حتى استقرّيت إلى ما أنا عليه. ما ظفرته عيني منذ زمن كان خيرًا كالبستان، وما حييته كان وما زال ربيعًا والحمد لله. إنه لأمر مؤسف تَرْكها أليس كذلك؟ أنت ذاهب للاستثمار، أما أنا سأرجع للبطن التي ولدتني، ماذا تظن؟؟

طفل ذو عشرة أعوام تقريبًا، شعره أصفر بقرنية زرقاء، عرض عليهم حلوى المارينج، فتناولوا حبّتين بسرعة البرق؛ فقد خمصهم الجوع. كان معه دزينة منها، فوزّعها إلى أن استقر مع أبيه، حدجه والده قائلًا: "هل انتهيت"، ردّ لاهثًا: "نعم أخيرًا"، جلس على الحقيبة متعبًا فطَقّ شيء؛ إنه زجاج، أو ربما شيء ثمين، فوبّخه والده ووصفه بالفسل! مع نافورة إهانات متنوعة لإخراجه عن طوره، هل الأمر ينقصه! فحص الأب الحقيبة بإمعان، وأخرج كل ما فيها، فجأة تسمّر لرؤيته تمثالًا كان في الحقيبة مفتّتًا؛ ضنى حاله وكلح وجهه، وكان على وشك لجم طفله المسكين، لكن ظهور "تالار" ابنة أخيه بابتسامتها بدّدته، قالت: "كيف حالك يا عم؟ غير معقول أن ترحل دون أن تسلّم عليّ. وأنت أيها الشقي، إلى أين أنت ذاهب؟"، قام الصغير باحتضانها، لتتعشق أيضًا به.

قال الرجل: "كيف حالك يا ابنتي، أين أبيكِ؟".

ردت بتخبط: "إنه في العمل كما تعلم، وإخوتي إما في الجامعة أو في العمل؟".

– "يا له من حيوان! أخوه سيترك البلد بلا عودة، ويتوارى عن لقاء الوداع! وماذا فعلت له يا ابنتي؟ إنه سوء تفاهم ليس إلا!".

– "عمي، هذا ليس وقته، المهم أنني جئت لأطمئن عليك وأرى هذا السفروت!".

انحنت تطبطب وتفرك شعره الناعم: "سأفتقدك يا أشود"، قال عمها "تيغران": "ونحن أيضًا".

برزت السفينة أخيرًا، فماج الجميع تهليلًا، أسرع الناس هَرِعين إلى بوابة السفينة الهائلة. أحقب الرجال الحقائب والأمتعة على أكتافهم، بينما اصطحبت النساء أطفالها وعاون بعضهن بِخِفّة. ودعتهم "تالار"، وابتعدا حتى استقلّا السفينة الكبيرة، لَبِثت واقفةً حتى صعدا.

وبِعُلو صوتها وهي تلوح لهم تلقي السلام والوداع الأخير حتى مخرت السفينة بعيدًا تراقبها.

كان الأمر كنزع أظافرها، وتضاؤل ربيعها حزنًا، كانت متعلقةً بهم، فعمّها هو مَن ربّاها وكبرت بين يديه حتى صارت بالغةً، لقد غرس بها الأرمينية بينما توارى أبواها الإمعان ولبثت بحالها. وكان يأخذها لمعلم في الخامسة من عمرها يعلمها الحروف، وبعد الانتهاء يتنزّها بالحديقة ويشتري لها الجيلاتي في الوقت الذي كان أبواها لا يفعلان شيئًا غير العمل وتركاها للخادمة، والآن غادر من روضها ولزمها معلمًا، لقد استلّ عمها منها الضلال ومنحها الكياسة؛ حتى أصبحت لبقةً وعامرةً بالمعرفة الكافية، ترقرقت دموعها منهمرةً بحرقة، ثم رجعت إلى البيت زاعقةً تتمنى لو كان معها، أملت ببرهة أخرى مع "أشود"، ذلك الولد الظريف الذي كان كأخيها، أيقنت أن سنن الله تئنّ عباده، وهي حكمة هي الأشد قسوة، خددها

الوداع في وهن، وضنت ماكثةً في غرفتها أيامًا يجاهدون معها لإرجاعها، وأعرضت عن الأكل السليم لأيام، مكتفيةً بحساء الخضار، حاولوا بشتى الطرق إرجاعها حتى زوت مساعيهم...

***

رفع مؤذن المسجد أذانه لله، يُكبّر ويتشهد ويحيي، كان صوته كصليل بقلوب الفدائيين الذين كانوا يتحصنون بالكراكون "قسم الشرطة"، تحصنوا بالمجد وتهيّئوا بالند والإيمان، متأهّبين لجنود العدو، ضباط وعساكر مسلحين بالعزم وبروح الوطن الخالد، فكانت أرواحهم كالفولاذ المتين، وعزيمتهم تدفئهم من برد الإسماعيلية الذي كان كالسكين، كانوا يراقبون تحركات العدوان من أعلى البناية، يترصدون وينتظرون الطلقة الأولى لبدء الجهاد.

حشد الإنجليز بالخارج لاقتحام القسم كثيرًا من العتاد، فحشدهم كان يفوق ألف جندي، منتشرين بين ممرات الشوارع يطوّقونه بالنار والحديد وبأحدث الأسلحة، مع تغطية الجو بالطائرات، والهدف هو إمساك المحيط! أيّ عاقل هذا يصدق أن الأحرار ينهزمون؟ فقد عاش المجاهدون أحرارًا حتى ماتوا، وذُلَّ الأشرار منكسرين، كانت القوة كثيفة العتاد، فكانت المعطيات تقول إنه ستدور معركة ضروس. مع ضوء الشمس تنطلق الإشارة بالاقتحام، ومع أول جندي حاول الدخول في هدوء تام من الطرفين قُتل إثر رصاصة بجبهته، انتشله زملاؤه، فعلم الإنجليز أنهم سيلقون مقاومةً شرسةً، والمعركة ستكون غالية وستكلفهم ثمنًا باهظًا. أعطى قائد إنجليزي تعليمات بتحرك دبابات السنتوريون، فدارت تروسها

رويدًا لتقصف الطابق الأول من القسم، وتصيب عساكر كانوا يتحصنون خلف الشبابيك، أُريقت أرواحهم شهداء. أما عن السطح فكانت القوة الأكثر تحصنًا وذكاءً لكشفها القوات كاملة، فكان هناك عتاد مجهز، يقف على سوره عساكر شرطة ببنادق وأسلحة متوسطة، كان الجميع يتبّت على سلاحه وكأنه حبل نجاته، تحفر الرصاصات حفرًا بالجدران الإسمنتية مع طقطقة متواصلة، انعزل الشرطيون عن العالم الخارجي، فتحسسوا ضيق الخنقة وزملاؤهم يسقطون واحدًا تلو آخر، نما عدد القتلى والجرحى؛ فكان لا بد من وضع خطة بديلة أكثر حنكةً، حتى وإن استسلموا يذيقوا الإنجليز الويل! ومع تفاقم المعركة، كان الشرطيون المصريون يسمعون أوامر مترجمة بالعربية بالاستسلام وترك السلاح، لكن الموت عندهم كان أهون من فعل ذلك، هم المواطنون بتمويل الشرطة بالذخيرة، وآخرون انضموا بفدائه، ومن غزارة الطلقات كان البعض منها طائشًا يصيب المدنيين، فكان كانفجار انبعث منه شظايا، لفّت العقارب لساعتين لتصل للسادسة، نفذت المؤن، وكانت أجساد القتلى تتكوّم، وأُصيب الكثير بالإحباط، ولو كان الأمر بأيديهم لكانوا قد حاربوا لآخر جندي، لكن الأمر كان مسدودًا مقفولا محتوما، كان عنوان المصريين بتلك المرحلة هي مماطلة الإنجليز وإظهار الناب الحاد، فعلى مستوى محافظات مصر كان الشد والجذب بين المصريين والمحتلين يحتل الشوارع والمدن، وأبى الأمي قبل المتعلم الاحتلال ونَبَذه ولفظه كلقمة عفنة، فطبيعة هذا الشعب التمرد على المحتل منذ أحمس الذي طاردت عجلاته الهكسوس.

فأحسّ الضباط المسؤولون أن المماطلة ستشعل المزيد من اللهب، وبعد مشاورات ومداولات قرّروا الاستسلام، انتقل الخبر بأرجاء المحروسة، وكانت

عناوين الصحف تفتخر ببسالة رجال الشرطة ورفضهم تسليم القسم، مع كتابة فصول عن أسماء الشهداء وحياتهم الخاصة، وكانت على ألسنة المصريين بهذا الوقت شجاعتهم المفرطة.

– "هه، استسلموا بالنهاية، لم يكن من الداعي هذه الشجاعة الخائبة، كان من الممكن تسليم القسم دون وقوع ضحايا، طبعا الذين سقطوا كانوا عساكر غلابة أبناء فلاحين".

– "أليس هذا أفضل من الاستلام برأيك؟ الإنجليز عِرق نجس مثل الجراد يأكلون خيرنا، كان يجب أن نوجههم على الأقل، وصراحةً أنا أتفق مع هذه الوقفة، لقد سأم الناس بطشهم".

تابعت الثالثة وهي كاتبة صحفية بالجريدة:

– "لماذا يجب علينا التقليل من شأن أي شيء يقوم به الجيش؟ ألا يكفي أنهم وضعوا يديهم علينا! هذه الفترة هي فترة الوقوف بجانب بعضنا، وإن لم يحدث فلا فرق بيننا وبين العدو؛ سنصبح أعداءً لأنفسنا".

– "انظر من يتكلم، الكاتبة "نجلاء" صاحبة الصوت الليبرالي الحر، حبر المقال الأخير لم يجف بعد!".

– "أنا أنتقد حبًّا لوطني أولًا وليست شماتةً أو انتقاص، وإن كنتم ترون أن السياسة وتقطيع الفروة سيجدي نفعًا فأنتم خاطئون؛ انظروا لأوروبا كيف نهضت بعد الحرب، كانت خرابًا دمارًا، تدمرت مدنها وأحياؤها، واغتُصبت النساء وشُرّدت الأطفال، لكن كل هذا ترمّم، أي نعم كان جرحًا عميقًا بهم، لكنهم

استقروا بآخر الأمر، نحن محاصرون بين الإنجليز والإسرائيليين، قولوا لي كيف سنحارب كل هذا إن لم نقف بجانب بعضنا؟".

تبادلوا النظرات يهزون رؤوسهم، ثم انطلق "خيري" قائلًا:

– "أتفق معكِ.. لكنّي...".

– "بلا لكنّي من فضلك، سأتكلم مع رئيس التحرير، علينا أن نرجّ مشاعر الناس أكثر للوقوف بجانب الجيش والشرطة".

علّق الثاني وهو "جورج"، صحفي في الخمسين من عمره، يعمل صحفيًّا ومدقّقًا، وقد شاب بهذا العمل حتى ابيضّ شعره وشحب نطقه:

– "اكتبوا أنتم، لن أغير موقفي مهما حدث، ما زلت أصر أن هناك أمرًا خفيًّا يجري بين الإنجليز والجيش".

قال "خيري" متبسمًا:

– "ألا زلت تعيش على المؤامرة؟".

– "وسأظل!".

ثم اندمج بالحديث متسائلًا:

– "لماذا سلّم اليوزباشي "مصطفى رفعت" بالنهاية؟ رغم الأقاويل التي كتبت ونثرت وحررت بالصحف عن رفضه الاستسلام، وقال بالفم المليان (لن نستسلم يا فندم وسنظل في موقعنا)".

اندمجت معه "نجلاء":

– "ربما كان لا يوجد مفر من الاستسلام".

– "إذًا لماذا نكتب عن بطولاتهم".

صمت الجميع دون إشارة أو علامة أو ملامة، ثم قص صمتهم قائلًا:

– "سأكتب عن العساكر والفدائيين الذين ماتوا، شباب الإسماعيلية المخلص، هؤلاء هم من يستحقون، انظروا إلى ملامحهم يحملون شقاء الدنيا وهمّها، رغم ذلك كان لديهم انتماء يفيض على قادتهم، لن أحرك قلمي بمدح هؤلاء الممثلين الذين كانوا بالخلف".

سانده "خيري" الرأي قائلًا:

– "أنا معك، يجب تسليط الضوء عليهم أكثر من غيرهم، اعتبرهم هم الأبطال الحقيقيون".

***

الساعة الخامسة، بعد قليل من صلاة الفجر مع الندى الحاتم على حاجته، والشبورة الكثة تغزو الهوة، لطخ قوامه المنشود بزيت الزيتون الموصى به من قِبَل عطّار نصحه بأن قطرات منها تعطى صحةً وتنشط الدماء، كان قد برك على هذا الأمر منذ وضوح خشونة مفاصله وإقبال أمراض الوراثة، ارتدى قميصًا مهلهلًا ونزل بعدّته يسير بالشارع، ينازع بأثقاله حتى وصل للشاطئ، ثم استقل مركبًا مثقب محمي بمهارته في الإبحار، البحر فاتر خلت منه الأمواج، وَلَجَ مبتعدًا ثم

امتخر السنارة الموعودة، عقد عدة عناقيد ووضع بها خطافًا مغروسًا به الطُّعم، وترك السنارة وانتظر للحظات يناجي الفتاح الرزاق الكريم، ثم رام بمركبه بضعة أمتار يحنو لرزق الله السميع، سمع نداءه لتعجّ السنارة بسمك البوري، وتقاذف البعض للمركب، وكأنه موسى البحر الأبيض، أحكم عليها بالالتقاط بقسوة وزجّها بصندوق، صارع لبقاء السمك المناكف، فأفضى الأمر إلى بقاء عدد لا بأس به، رغم أنه جرح إصبعه، عاود الكرّة فنهض بأصناف أخرى مكتملة المزايا، هلل مكبّرًا "الله أكبر"، كأنه انتصر بمعركة ونال غنيمة، حدّث نفسه بمروءة قائلًا: "سأظفر بالمزيد، هيا يا محمد"، بينما يحدف مرة أخرى سنّارته المعقودة بعدة خطافات، وجد مركب "سيد"، هذا البلطجي، يصطاد دائمًا عنوةً وإرغامًا وإكراهًا بسطوته ونفوذه المترامي بأرجاء ميناء المكس والدخيلة، ربما يسرق منه السمك كما فعل سابقًا، فما بينهما لا يبشّر بخير، كان لا يمر شهر إلا وأشاحوا بعصيانهم صارخين في بعضهم، معروفون في السوق بجدالهم الدائم، نار موقدة كنار جهنم، بدأ يلملم حاجته قبل اقترابه، وطفق يحدف مبتعدًا يعافر تيار المياه، اعتصرت قبضته مقابض المجاديف يصارع للنجاة، وانهمر عرقه مهزومًا بالحرارة الغاشمة، تململت أمعاؤه خوفًا، فلأول تارة يتصادفا في البحر، لاحظ مراكب تدنو في الخفاء، تيقن "محمد" أن في إسراعه نجاةً من شيء لا يحمد عقباه، ومع كل سحبة كانوا يقتربون، أربعة، لا إنهم خمسة مراكب، استغاث بربّه أن يسبقهم للبر أو يجد (لانش) للأمن يؤمّن المنطقة عسى أن يحتمي، لكن المسافة كانت شاسعةً، غير أن المراكب المقتربة تستعمل الموتور الذي يجعل مراكبهم تنطلق كالسهم، أما هو فلا حول له ولا قوة، انحرف المركب بخطورة، لكنه عدّل اعوجاجه قبل انقلابه، فإنه

خِرّيت يقود المركب كما يقود سيارة رياضية، وإن خذله الماء لا يخذله المركب أبدًا، حَزَقَ الصيادون به، أخذ يلتف يمينًا ويسارًا لإيجاد وسيلة، لكن مع كل ثانية كانوا يدنون، جَلت في نفسه الغطس والهرب، لكنه أعرض، فليس من السهل الهروب بتلك الطريقة.

"ماذا أتى بك يا ابن زنانيري؟ ألا تعلم أن هذه منطقتي وهذا وقت صيدي؟"، ثم نظر لمركب "محمد" بإمعان فاحصًا إياه، "الله الله، حظك اليوم وافر، أقسم بالله إننا هنا منذ الساعة الثانية ولم نذق اللقمة أو جرعة مياه واحدة، وظفرنا بثلاثة كيلو كابوريا، كلما أنظر إليك حقًّا أجد الخير، رغم أنني لا أطيقك! وتقفز الشياطين أمام وجهي حينما أراك"، سكت لبرهة ثم تنهّد بامتعاض قائلًا: "أنت تجبرني على فعل أشياء تغيظك"، أخرج مطواة من جيبه وأومأ بها لأحد رجاله، "نأخذ النصف، ما رأيك؟".

كظم غيظه ثم سَجَا السمك بحذر، وأخرج (شومة) قائلًا: "إن لم ترحل أنت ورجالك ستحدث مجزرة يا "سعد" أتفهم؟ ارحل من هنا وإلا كسرت هذه الشومة على رأسك، هذا رزقي، وأنا أنتفع من بيع هذا السمك، اتركني وشأني، هناك شيء أريدك أن تعلمه، هذه العداوة لن تستمر، ستحدث انفراجة، وكل منّا سيكون مثل السمن على العسل".

قهقه "سعد" بخبث قائلًا:

"انفراجة ماذا؟ هل ستمطر السماء سمكًا يا مغفل! ثم قل لي لماذا أنت هكذا مثل الدجاجة؟ نراك صنديدًا يا رجل مثل فان دام، أتظن بهذه الخشبة سنخاف ونهرب؟ أعطِنا السمك بأدب وإلاا...".

دنا رجل أشيب الرأس محاولًا الوثوب، كان يظن أن الأمر سهل المنال، لكن سبق خطواته "محمد" ملوحًا الشومة بعزم لإخافته، ابتعد الرجل متوجّسًا من ارتطامها برأسه وتراجع، تدافعت دقات قلب "محمد" يحدج بهم متخبطًا، فأيقن أنه قد وقع لا محالة، فإن قاومهم ونجا لن يدعوه إلا وأحدثوا ضررًا به أو بالقارب، عاتب يومه وهو يراقب لمحاتهم وإيماءاتهم وتشاورهم واصطفافهم صفًّا. كان عددهم كبيرًا، ستة أفراد، أخرج بعضهم العصي، والبعض الجنازير، وآخرون اقتدوا بأذرعهم، باغته أحدهم منكبًّا على ظهره واخرّ أحكم عليه ليتكالبوا بغشاوة، ووقع على وجهه فارتطمت أنفه بقعر المركب ونزف، خفف بعضهم المثابرة بعد رؤية النزيف والهزل الذي حل له، وحالت المقاومة والتشاجر والرفص بأرجله بلا جدوى، فقد كبّلوا معصميه بإحكام.

ثم أطلق "سعد" تهديدًا: "إن لم تسمع الكلام مرة ثانية يا شاطر سأرميك في البحر ليأكلك السمك، أفهمت؟ ما هذا يا رجل! كابوريا ما شاء الله! كيف اصطدتها بسنارة؟". أخذوا سمكه المتواضع بخسّتهم يتناقلون السخرية، توقف النزيف وخمد على حاله، وتدارك الأمر المجحف، لكنه اعتدل وتشجع بإرسال رسالة قبل رحيلهم.

بصوت واهن يقشعر له الحجر:

"لقد كسبت جولة يا "سعد"، لكن ورحمة أبي الزنانيري عندما أراك في السوق سأقطعك إربا إربا مثل التونة، وهؤلاء الشجعان سينالون جزاءهم، أنتم تحتمون في الشخص الخطأ، فهذا الكلب كان يعمل عند أبي يضع له الطُّعم، ويشطف له

ملابسه، أتفهم ما أقصده؟ أسمع قشعريرة جسدك من هنا، كان أبي يغدق عليك من خيره ولا يضنّ عليك أبدًا، لكنك خسيس وستظل كذلك".

قاطعه "حامد" وهو ذيل من ذيول "سعد"، رجل أربعيني ممتلئ بالدهن، وهزّ منكبيه قائلًا: "الريّس "سعد" طوال عمره رجل طيب وليس له في الشجار، أنت مَن تبدأ النزاع وتحرّض علينا رجالك يفعلون الألاعيب ويناكفونا في السوق، قل لي لماذا أرسلت "عادل" و"أحمد" لـ "إبراهيم بيه" مسؤول أمن ميناء بحري، وقلت لهم إننا نتاجر في الممنوعات لنتوقف عن العمل شهرين بين التحقيق هنا وهناك حتى احتجّ أهل بيتنا جوعًا؟ حسبي الله ونعم الوكيل، ما فعلناه قَرصة، لأن جميع هؤلاء الرجال قد تأذّوا منك".

وقال آخر كان يراقب من بعيد: "اسمع يا بني، أنت من بدأت وعليك بتحمل رد فعل هؤلاء الرجال، إنهم يترقبون تلك اللحظة من أسابيع، كنت مخفيًّا في السوق وفي ميناء رأس التين مكانك المعتاد، وصدقني ما فعلته أذى، ونحن غلابة! لكننا جل ما نريده أن نصرف على حالنا ونعلّم أطفالنا.

رد "محمد" بتخبّط ممزوج بالشجاعة، وهو منكبّ مثل الأسير متجمّعين حوله: "ما هذه السخافة! هل يوزع عليكم الكلام مثلما يوزع عليكم السمك؟ إن كنت أريد أن أؤذيكم فلن أجعلكم تشمّون البحر ثانيةً، هذه ردة فعل خفيفة، عندما أتى إليّ اثنان منكم في مرة وأنا واقف أبيع في "باكوس" قلب أحدكم طاولة السمك وهرول مثل القطط، قبضت على سكيني وأقسمت أن أغزّه، وحينما هرعت نحوه ففعل الأخير نفس الشيء، إنها أفعال أطفال، عيب عليكم كونكم رجالًا

وصيادين، عليكم بالخجل من شواربكم الغليظة، صحيح يا "علي" ألف مبروك على المولود الجديد، ألا يفترض أن تمشي بجانب الحائط وتعتدل؟ إن كنت مكانك سأتمعن حال أسرتي ولا أتطرق لمثل تلك الأفعال الصبيانية السقيمة، تحتاج أن تعطف على طفلك وترعاه، أليس كذالك؟ أما الآخر فسأعرفه، ويحمد الله أنني لا أعرفه، لكن إلى أين سيذهب؟ الدنيا واسعة وتأتي أمامنا وتضيق مثل الحفرة". قال ذلك وقد انتفخت أوردة وجهه من تموضعه القاسي، "وأنت يا "حامد" لقد أحضرت لك المرطب الذي كتبه الصيدلي لك، مُرّ عليّ كي تأخذه، لكن لا تُلقِ طاولة السمك مثلما فعلت سابقًا".

كان "علي" أبكم يعاني النطق والكثير من السمع، وفي كلامه التلعثم، يسمع القليل كالغمغمة، نطق اسمه كان كالجرس، فعرف أنه المراد، وتعجب متسائلًا: كيف عرف تلك الأشياء؟ كيف علم أنه قد ظفر بمولود حديث، كيف جالت له تلك المعلومات؟ هل سبَر سِرَّه؟ زعق الأمر سجيته وسقم بآلة المتشاحن المتشابك المتحارب، ولبس التعجب "سعد" وقطب ثم قال بعد أن أطال الضحك: "أعداؤك كثر، يا رجل يا طيب أتظنني سأحرض عليك أحد رجالي بمثل ذلك الفعل الأهوج، صدقني أنا لا أهتم ماذا بينك وبين "علي" وما الذي حدث جعله يفعل ذلك، قل لي كيف ستفكّ قيدك وتأخذ البحر وترجع للبر، ثم تأوي لبيتك؟"، تناقلوا الضحكات النافرة مشفقين على حال "محمد" الذي يئن، وقد مثّلوا أدوار الشر المعروفة بكافة حبورها.

أظهر "سعد" قطعةً من الحشيش قائلًا: "شكرا لك على هذه الهدية، قطعة بمئتَي جنيه، لقد اغتنيت وتدّعي الفقر!"، لطم جبهته ثم قال: "نسيت، أنت ديلر

في السوق ولك اسمك، أرأيت من مِنّا يبيع الممنوعات؟". حزموا أمتعتهم وتركوه متحاشين جدلًا آخر، بزغت خيبته مشتعلة، وصاح يقذف الويلات والآهات المتعشقة بالتوسل، فطلب رحمة الله بالنجي، وتقهقر عزف عنفوانه، تجلى له بريق خطاف، فبهتت ناره الموقدة، ودنا منها راجيًا معافرًا حتى نالها، التقطها بأصابعه المرتخية، أحدث الماء احتدامًا حركيًّا، وبدأت عزيمته تخرق قيده المحكم، وبعنقود أصابع كفه اليسرى بدأ بثقب البلاستيك، ثم تهشيمه بحركات غير متسقة، مع دفع كفيه الملتصقين عكسيًّا بعزم، كرر الأمر، لكن لم تحدث النتيجة المرجوة، وتسللت الخيبة واقعه المتهرئ، غزت به استحالة النجاة، لكن بزغت له فكرة تفكيك القيد بمطواة في جيب بنطاله الخلفي اعتاد اللجوء لها، كانت تلك الفكرة جيدةً، استجار الله ثم سحبها بخفة رويدًا، ثم فك قيده أخيرًا في محاولات وقف بها الزمن، "الحمد لله، ألف حمد وشكر لك يا رب، ألف حمد وشكر لك يا رب"، انتحب يسجد في رعشة، كفكف دمعه مستجمعًا عنفوانه وكبرياءه، وقبض المجاديف يسمي الله المعين، دفع مركبه مصارعًا الأمواج العاتية، ينظر حوله باحثًا عن مركب، تطلع لهاتفه البسيط ليجد إشارة لمهاتفة أحد يمد له عونًا، لكن بلا جدوى! ثم حدفه مستشيطًا لاعنًا باصقًا إياه، كان الهواء ثقيلًا يناكفه بعنفوان، وما جرى ألهب دماءه الطيبة، وعطب يومه الزاخر. طفق يحدف حتى تباين شاطئ الميناء، ركن المركب باستحياء واضعًا كفه على أنفه النازف.

***

ما يجول في باله فقط الانتقام وإبعاد الأمر عن أعين الشرطة التي حتمًا ستتدخل، ويؤول إلى قسم الشرطة وإجراء أمر في غنًى عنه، جل ما يكبّله الآن استقراء الأمر ووضع مصيدة مثلما يفعل مع السمك، استقل (المشروع) يتشاجر بعقله حشد خططًا لاسترجاع كرامته، احتد فورانه ليلكم الكرسي المقابل له، فأحس جالسه بالضربة وزام قائلًا:

– "ما بك يا ابن عمي؟".

ليرد محمد: "لا شيء، إنها الأدوات التي معي، احتكت بالكرسي عذرًا".

تدخلت شابة بجانبهم:

– "للعلم لقد فعل ذلك مرارًا بطريقة متخفية معي وأنا سكت، احترامًا للناس الجالسة، هذا تحرش واضح!".

صاح "محمد" متأفّفًا: "تحرش ماذا؟ لا إله إلا الله! إنها أغراضي المكومة أمامكم، أرتبها كي أنزل بخفة لا أكثر، بالله عليك يا آنسة كفى كلامًا لأنني لم ألمسك أصلًا!".

– "وهل سأنتظرك كي تلمسني؟!".

– "لقد وقعت مع مجموعة من المجانين؟!".

ماج الجالسون في (المشروع) بعبارات: "اهدؤوا يا جماعة، صلّوا على النبي"، وآخَر نائبًا عن رئيس المجلس القومي للمرأة، صرح بصيغة متحدث رسمي... أن لديها حق يبدو أنه متحرش بارع ويخفي ذلك، ثم تابع:

– "لا تتركي حقك إن لمسك، أنا معك".

قالها بحدة، آملًا أن تتصارع مهابل مَن بـ(المشروع) على شجاعته.

وفتاة يتدلى شعرها من الطرحة كحيوان اللاما دخلت على الخط قائلة:

– "الصوت الصوت، أنا أتكلم في الهاتف".

قاطع تلك الجلبة السائق بالصراخ قائلًا بصوت همجي كالذي محشور في فمه بوق عربة (تريلا) يخرجها عند اللزوم: "لا أريد سماع صوت، أنا أعاني من الصداع، أريد إكمال الطريق بهدوء! الذي يعجبه يكمل معي، والذي لا يعجبه ينزل حالًا، الدنيا زحام وهذا مقرف، وأنت يا أستاذ التزم بمقعدك وتريّث، نحن على الله مثل بعضنا".

– "والله العظيم هذا بلا قصد".

ابتسم السائق قائلًا: "أعلم، يظهر على أنفك، يبدو أن يومك كان صعبًا".

سكت محمد لبرهة ثم قال: "نعم جدًّا، أولاد الحرام كثر".. رد السائق بعطف: "الله يعينك ويقويك، افتح الشباك يا أستاذ لا يوجد نَفَس"، فلبّى طلبه بترحاب وراقب السيارات والمارين واليفط.

صمت الجميع ليذوي صياحهم القابع، سرح بخياله فصنم الزمن به، تترامى وتتقاذف وتتشاجر شياطينه الجهنمية، ولج بيته يتأوى، وكأن البيت مظلم قاحط لما جرى، استقر بمطبخه وعبث بثلاجته القديمة الجرداء، بفحص وتمحيص واستبيان واستنباط، وماذا هنا وماذا هناك، فنالت المصيبة به عبثًا ليندب حياته، ثم فكك

برودة رغيف خبز كان لا غيره واحدًا أحد، ثم أدفس سكينًا بقطعة حلاوة باردة قد أيقظها من كنفها المتأمر على معيشته، اخترقت اللقمة ريقه المتشقق بمعاناته، شعر بألم في كوعه الأيسر فشمره ليتبين جرح مهول، ترجل لغرفة نومه لإحضار قطنة وكحول ومضاد الجروح، ثم جلس على كرسي ينشف كوعه، وشد لفافة من القطن الأبيض حولها لتخمد ثورته، تحسس جيبه لينتزع هاتفه الثاني الذي نجا من غضبه.

"آلو.. مَن؟".

قال "محمد" بوهن: "أنا من شاهدته يُكتف في وسط البحر وتركته هاربًا، ماذا؟ هل نسيتني؟ ابن الزنانيري معك، أنا لو كنت مكانك لصمتُّ ودفست حذاءً في فمي! بالطبع تتعجب كيف حصلت على رقمك؟ الأمر كان في غاية البساطة يا ابن الحلال، عندما فعلت فعلتك الحمقاء وهرولت إلى السوق شاهدك أحد أحبائي، وتتبعت أثرك حتى ظفرت بك!".

تأفّف الرجل ثم قال: "أنا فعلت هذا خدمة لـ"علي"؛ فإننا أولاد عائلة واحدة، وكانت مجرد خدمة، في ذلك اليوم عارضت "علي" ونصحته بالعدول عن فعل ذلك، لكنه أخبرني أنه ليس بالإجرام و...".

قاطعه "محمد" قائلًا: ""حامد حسنين أحمد محمد درويش".. أليس كذلك؟ أنت درويش بالفعل، بطاقتك الشخصية معي، عنوانك، بيتك أيضًا، أعرف أنك ذو أربعين عامًا، لديك ما شاء الله ما شاء الله بدون حسد ستة أولاد!".

تخبط الرجل بعد أن بلع ريقه المتجمد في صدمة، محاولًا إظهار قدر من الشجاعة الهوجاء: "وماذا تريد يا هذا؟ أتظن بعد أن حصلت على بطاقتي سوف تهددني! لا، أنت غبي ولا تعرف قدري، والبطاقة التي معك بلّلها واشرب مياهها".

– "امممم، هكذا لم نتفق.. أتعرف أنني كنت في السجن وخرجت منذ سنة تقريبًا؟ والتهمة ماذا؟ لقد اخترقت جسد طفل عمره عشرة أعوام بسيارة أجرة، تبدو الحادثة عاديةً، لكنها كانت وشايةً من رجل ذي نفوذ، أعطاني مقابلها مبلغًا محترمًا، لقد قمت بتأجير سيارة وملأتها بالفاكهة على أنني سأتوجه للسوق، لكن لم تكن تلك غايتي، انتظرت الطفل يخرج من مدرسته ودُسته بعزم قوتي ليبتعد أمتارًا كأنه خرج من مدفع! وهربت.. كان ذلك في شارع "بورسعيد"، كنت خائفًا قليلًا، لكن قُبض عليّ بعدها، ثم...".

وقبل أن يكمل "محمد" أدرك "حامد" أنه ينوي على كارثة، وأن لا مفر من الجدال، وأنه قد يتأذّى كما فعل سابقًا مع رجال كثر بالسوق، ثم تقهقر قائلًا: "بالله عليك أقسم لك أنني على استعداد أن أعوضك عن أي شيء، لكن ابتعد عن عائلتي. وحياة والدك يا ريّس "محمد"، الذي تأمر به أنا مطيع، أعرف شأنك في السوق".

استقام "محمد" من مجلسه وصرخ قائلًا:

– "وأنت تعرف شأني! كيف تجرأت على فعلتك؟ لقد أخرجت ثوبي القذر مره أخرى، وعليك بتحمل العواقب، كنت حقًّا أنوي أن أتوب وأصير رجلًا آخر، لكني لن أرحم أحدًا بعد الآن، سترون وجهي القديم، سأريكم يا أولاد الكلب".

استشعر "حامد" القلق ثم قال:

"يا ريّس قل لي أي شيء وسأكون خادمك، وأنا من يدك هذه إلى يدك هذه، كما تعلم كلنا أصحاب بيوت ونربي أولادًا وبنات، أنا معك، اعتبرني أحد رجالك".

– "من سبب فعلتك؟".

– "أنت تعلم، نحن رجال "سعد"، ربما كانت حركة رخيصة لاستفزازك ليس إلا".

ثم توسد "محمد" مضجعه ثم قال: "اسمع، ستعمل معي ولكن بضعف ما يعطيك "سعد"، جل حرف، جل كلمة، جل جملة، جل رحلة، يقوم بها "سعد" ستنقلها إلي. ما عليك فعله هو؟ ستمارس عملك المعتاد معه مثل باقي الصيادين، ستخبرني أين يتّجه "سعد" بعد تركككم؟ وسوف تتبعه، إن لاحظت أمرًا غريبًا أخبرني، احترس أنا أراقبك! هناك أناس داخل الميناء ينقلون إليّ دبّة النملة.. وإن صارت الأمور مثلما أظن سيكون لك شأن آخر في كل ميناء، من العجمى إلى رشيد، ومن يعلم قد يكون لك قارب مثلما فعلت مع "سعد"، وكبر وأصبح ريّسًا.. ألا تودّ سماع الصيادين يقولون لك ذلك.. ما رأيك؟".

غمغم قائلًا بعد أن أدرك مدى الخبصة: "حسنًا، لكن أنا لن أفعل ذلك بدون مقابل، تعلم الحال، لديّ محل أبيع فيه منظفات وشيبسي، هذا لا يساعد، وهذا ليس طمعًا، لكن...".

– "يا لك من كلب فلوس! لهذا يلعب بك الناس مثلما يلعبون كرة القدم، هذا أمر سابق لأوانه يا "حامد"، المهم أنك موافق، حقيقة كنت سأتوجع على حالك

مثلما حدث لمن رفض، إبراهيم وسيد وكريم.. لك أن تتصور أنهم لم يعرفوا إلى يومنا هذا.. إن ما حدث لهم، لم يشكّوا في ولو للحظة، أن غرق مراكبهم نتيجة تخطيط وليس بفعل نوّة".. بَخّ "محمد" سُمّه، وترقّب جزع فريسته، تغلغل السم رويدًا بعروق "حامد"، وعانى من إثارة، فانتفض شريان قلبه المنفجر حديثًا؛ فأمسك بصدره يئنّ..

ثم تابع:

"لم أنتهِ بعد.. "علي" حبيبك أو قريبك، في الواقع إنكم طفيليات بلا قيمة، لكن هذا الشاب له عندي حسابه الخاص، سيأتي يوم عليه ويولول مثل النساء، سأجعله ينطق هذا الأبكم، بعد غد سأهاتفك، إياك وغلق الهاتف، ستجدني ممددًا في محلك. لا تظن أنني ألعب معك، أنا أريد مصلحتك، ولن أثرثر أكثر من ذلك".. أغلق "محمد" الهاتف وكأنه ثَقَب وعي "حامد" وقد أُصيب بالذهول، بدأ "حامد" في التفكير مليًّا؛ هل يطيعه؟ أم يخبر "سعد" و"علي"؟ فتذكر أنه مديون لـ"سعد"، فمن الحكمة قبول عرض "محمد" والتخلص منه في آن واحد، هناك شيء آخر، "سعد" ليس سهلًا؛ فهو رجل صياد يلاحظ أنفاس السمك تحت الماء، سيلاحظ بالتأكيد أي تصرف.. دقّ أحد أبنائه الصغار الباب ليدخل، سأله ابنه: "ما بك يا أبي؟" فردّ بغير اكتراث:

– "لا لا شيء، اذهب وقل لأمك تعمل لي كوب ماء بسكر...".

الفصل الثاني

انكسر الهلال، وبهت خضار العلم، وانطفأ نور نجومه، وانتكس العلم الملكي المعتكف بأرض الكنانة منذ مئات السنوات، شيد المصريون أسطر أخرى من الاستقال، واعتلى أهرامه ضوء أبيض يبرق ويتوهج، واستفاق الأسلاف على فخر ومجد آخر قد صُنع، وانتزع التاج من رأس الملك، وتهدم القصر الساكن به، وتهشّمت أحجاره على أم رأسه، وتعرّى رجاله، وتمزق رداؤهم اللامع بالنياشين والأوسمة.

أطلقت الإذاعة نبأً عاجلًا بخلع الزيف المتسخ برداء الانتداب البريطاني، الزيف الذي أصهر بالوطن بغتةً وقهرًا وجورًا، خالقًا مملكة الخضوع والمهانة، تردد النبأ وحلق كالطير من مدينة لحليفتها، وزقزق بالرضا والحمد، طافت ريح الكرامة لتعزز وطنية المهزومين والخاضعين والراضخين والمنكسرين، زخرت الشوارع بالآلات الحربية الثقيلة معمرة عهدًا منيرًا بالنهضة، زحف الآلاف للشوارع للدعم والمساندة، فامتلأت الميادين بهتافات النصر للجيش، ورفرف العلم بعد أن كان

خامدًا، وأنار نوره جل شبر من الأرض، امتخر الوطن ضباطًا أحرارًا، نهروا بالمحتل وكشفوا رداءه الأسود المتجهم، هتف الشعب بالحرية، وشَمّ الجميع أخيرًا ربيع عراقة أرض النيل، صرير الدبابات قشعر أنفاس المواطنين المصطفّين في الطرقات، وجلجلت دبدبة بيادات العساكر خشوع الذقون الشاهدة على أصالة جيش مصر العتي، وارتقى إيمان المؤمنين لأروقة السماء يلون بالخلاص ويشعث الغبش المتعشق بهواء مصر الصافي. ثار عشرون مليون كفوّهة المدافع ضد بطش أبناء الإنجليز، لمع سمار أحفاد الوادي وطمي نيله وفؤاده، وشبثوا أيديهم الجادة للانصباب أمام تكتل وتحالف الملك المستبد الباطش، زغاريط النساء وأغاني كوكب الشرق ومسارح القاهرة، والمعابد الفرعونية وسمسمية البورسعيديين وصبر البدو وتكبيرات المساجد وجرس الكنيسة وترانيمها، وهمة الفلاحين وربابة الصعايدة، كبّروا بأذان الخلاص وعزفوا النشيد، زام الضباط الأحرار في حرس الزيف، وحاصروا كبرياءه حتى نخّ وجثا لأمر الحق، فنفوه لأرض الطليان بلا رجعة، والتخطيط لمرحلة انتقالية يشرق بها السطوع، وأحل عهدًا بقيادة أحد المخلصين، وجلس على الكرسي الذي وهنت أرجله من كثرة روّاده، اتخذ قراره لمحاصرة العدو واسترداد الحق وتمصير الأرض، بعد أن كانت متفككة بأظافر الأجانب وجثت الملكية وأقيمت الجمهورية وأعلنت منطلقًا لنهضة التاريخ المكنون بكثرة التداخلات والاحتلال. وإعلاء مصلحة الشعب فوق رؤوس المسؤولين، ورفع راية الوطن أعلى.. مَن سوّلت له نفسه أنه حاكم؛ بالعصا والجمر، وبارك لها أبناء الشعب.

دحض بعض المأجورين بعنفوان، فبطلت حجتهم تحت بسالة الأحرار، كان ولا يزال هناك ضباع يتربصون ويتخابثون بالوطن وبالشعب، لكنهم مثل (العِرَس) يهرعون في مخابئهم عندما يستشعرون بدبة قدم. وفي أحد بيوت الإسكندرية الآمنة بيت عائلة أرمينية، هذا البيت التي يسمع به المذياع بإمعان ويقف الأب "هاروت" والأم "مريم" والأختين "مارينا" و"مارال" مع بطلة قصتنا "تالار" يتابعون النشرة.

قالت الأم "مريم" والتي كانت على عجالة من أمرها لتحضير الغداء "لقد فعلها الأبطال أخيرًا، سنمشي في الشارع دون رؤية أولاد الحرام تارة أخرى.. إنهم مثل الشياطين لا يمر أيام ونسمع عن أحدهم افتعل مصيبة! هذا أفضل، فليرجعوا لأوطانهم ويأخذوا الملك معهم".

ردّ الأب الذي بدا متشائمًا: "وماذا سنفعل بعد الملك؟ كيف ستسير الأمور؟ وهل يستطيع الجيش قيادة البلد؟ إنه جيش مهترئ بلا تنظيم أو تسليح جيد، كيف سيتحكم في المدن والأقاليم؟ لا لا، أنا لست مطمئنًّا.. ربما الأمور لم تَسِر وفقًا للخطة، وسيرجع الملك إلى قصره".

تدخّلت "تالار" التي كانت تقف بجانبه تمسك بأحد الروايات الإنجليزية: "ولو نفترض يا أبي أن الملك قد رجع، هل سيعود معه الأمر كما كان؟ بالتأكيد لا، الذي حدث قد كسر أشياء كثيرة، ليس فقط من الضباط، ولكن من الشعب! الشعب هو القوة الحقيقية لنفي الملك. ولنكن صرحاء، ونحن في النهاية لم نجنِ شيئًا إن ظل أو رحل، جميعنا محكومون، وإن تغير الحاكم كل ثانية، لا تضع حتى

احتمالًا واحدًا في المئة أن تكون واحدًا من ضمن الحكام الذين سيغيرون كل ثانية، لأن قمم الأهرامات لا يعلوها غير ساكنيها...".

وعلقت "مارينا" والتي كانت تسمع بإمعان:

"المظاهرات تعم الجامعة، وأصدرت الإدارة بيانًا لدعم الثورة، وقّع على هذا البيان عريضة من الطلاب والأساتذة. مع العلم أن البعض يقول إنها انقلاب على الملك، والرأي منقسم بين عدة أطراف. كان لي زميل في الجامعة معترضًا عن تحركات الجيش، اختفى هذا الولد من أسبوع ولا نعلم عنه أي شيء!".

أردف الأب "هاروت" صاحب الكرش الضخم والهيبة المديدة والشعر الأسود اللامع: "هذا ما أخاف منه، انقلع نظام ديكتاتوري وجاء نظام أكثر ديكتاتوريةً! هذا الوطن ملعون بالأغبياء.. انكسرنا أمام عصابات الصهاينة في فلسطين، والآن قد ننكسر ببنادق العساكر".

تابعت "تالار":

– "أبي، تقلق فقط حينما تمسّ الثورة عملك، لكن إلى الآن يبدو أننا سننفتح على العالم أكثر، وسيكون ذلك داعمًا، وسيحرك المياه الراكدة قليلًا، وربما تكون نواة لهدنة مع التدخلات الخارجية".

قالت "مارال" وهي الطرف الأضعف في أي حديث: "حسنًا، أنا لا أفهم شيئًا من هذا الكلام، لكن يبدو أن الموضوع كبير ويستحق المناقشة والمشاورة، لكن سمعت صديقاتي في الجامعة يقولون إن قائد تلك الحركة هو رجل يدعى "محمد نجيب" أليس كذلك؟".

قهقه الجميع في آن واحد، ثم قالت الأم: "انظروا إلى "مارال "، هل بكم عاقلة تعرف اسم ضابط واحد من مَن قاموا بالثورة؟".

قال الأب ساخرًا:

– "الله! ما بك يا مريم؟ لقد ذكر المذياع جميع أسماء أفراد الثورة! وهل هي أتت بالمخفي فعلًا؟ "محمد نجيب" هو الرجل المختار".

قالت "تالار": "نعم يا مارال، قائد الحركة هو محمد نجيب ومعه جمال عبد الناصر ومجموعة من الضباط أحسنتِ، إذًا يجب عليكِ أن تلتحقي بالجيش من الآن فصاعدًا".

قالت الأم "مريم" بنبرة آمرة: "ما شأننا بالجيش والسياسة نحن! ثم منذ متى وأنتم تتحدثون في السياسة؟ الثامنة صباحًا هيّا فليذهب كل منكم إلى عمله أو مصالحه، وأنتما مارينا ومارال إلى المطبخ، هيّا".

قال الأب: "نعم، أنا سأذهب الآن؛ لقد تأخرت عن العمل".

قالا بنَفَس واحد: "لكن يا أمي نحن سنذهب مع تالار الآن إلى المحل".

– "إذًا أريد واحدةً منكما".

تطلعا إلى بعضهما وكل منهما تريد الذهاب مع أختها..

قالت الأم: "مارال، البارحة كنتِ مع أختك، أليس كذلك؟ لقياس فستان لحضور زفاف صديقتك.. لا تنطقي، هيّا تعالي".

– "لكن يا أمي"..

– "هيا، كفّي عن التلكع".

غمست مريم يديها في كيس الطحين مخرجة حفنة، وتحشرجت بين أصابعها الناعمة بعضها، ثم أضافت أكوابًا من الماء والحليب الدسم مع ملعقة من السمن البلدي لتمزجها بيديها برفق على طاولة من الخشب. أخذت تهمش الخلطة بين الفرد والشد والضرب واللطم. رغم حرارة المطبخ الذي هو أشبه بفرن من جهنم، تقف مريم منتصبة مفرودة القوام كبطلة في الأفلام الخارقة. لكن على رغم من وجع ساقيها، إلا أن يديها متضخمة كلاعبي كمال الأجسام من كثرة الأعمال المهلكة، مريم المرأة الكاثوليكية تركت بهو أبيها وثراءه وفضلت تكوين أسرة. وعَيش حياة جديدة تتخلص فيها من لقب (المزمزيل)، لتحصل على لقب هانم. استغلت مارال فرصة انشغال أمها، وتحركت بخفة للخروج من المطبخ، لتلحظ الأم قائلةً: "وإلي أين ستذهبين ياصاحبة العقل الفذ؟ خذي قطّعي تلك الخضراوات، هيا". أمسكت مارال السكين تقطع البصل والثوم وتبشر بعض الجزر والقثاء. تقطع ثم تضع في إناء خشبي، وبعد الانتهاء أراحت صدغها بالاتكاء. ودقت الساعة الثانية، العقرب الصغير عند الثانية والأطول عند الثانية عشرة، وتساءلت بالها عن ميعاد وصول جارها الذي يسكن في الطابق العلوي.. لماذا تأخر اليوم؟ هل يعقل أنه لم ينزل من البيت؟ مارال الفتاة الجامعية صاحبة الوحمة البارزة أسفل العين، والقامة القصيرة، تملكها الحب، فاصطدمت أمها بها كالقطار تقول: "نشأت مسافر اليوم".

– "نشأت من؟".

– "نشأت من؟ هل تظنيني بلهاء مثلك؟ أنت كل يوم في نفس التوقيت تفتحين الباب لتستطلعي أمره! آه منك يا بنت هاروت! الشاب حلو، نعم، لم أتفوّه، لكن لا تكوني خفيفةً هكذا، دعي القدر يأخذ مجراه".

– "أمي، ما الذي تتحدثين عنه؟ نشأت جارنا هو مثل أخي".

– "إن جئنا للحق، أنت واقعة على وجهك،، ماذا أريد أنا منكم غير أن أتخلص من جلوسكم بجانبي، فأنتن مثل العمل الرديء. جل بنات خالتك قد تزوجن، وأنتن واقعات في (أرابيزي)".

– "حسنًا، وإن حدث وتزوجنا، من سيغسل معك الملابس ويكويها وينفض السجاجيد؟".

قالت الأم وهي رافعة رأسها للسقف:

"ربنا لا يحوجني لأحد، بمشيئة الرب.. أنت وأخواتك، لماذا يا رب لم أُرزق بولد".

شهقت قائلةً: "طيب طيب، حينما يأتين سأقول لهن كل شيء".

جحظت عين الأم وأشارت بملعقة في وجه ابنتها: "وماذا سيفعلن يا "زبلة"، هه؟ أنا لم أُربِّ ابنتي لتخوفني بأخواتها وكأنني سأدلف في هدمتي خوفًا وجزعًا. والله عجائب "عشنا وشفنا"".

– "ما عاش ولا كان الذي يقول كلمة يا بركة البيت، السيدة مريم خاطب حنا، أميرة عائلة غالي وملكة جمال الإسكندرية كلها".

– "أنت سوسة.. سوسة البيت حقًّا، كل ذلك لأنني ذكرت كلمة الجواز، وماذا تنوين؟ هل ستلتحقين بالدير للرهبنة أم ماذا؟".

ردّت مارال وهي مشردة الذهن قليلًا: "أريد أن أصير سيدة أعمال، وأن يكون لي شركات عملاقة، وأسافر كل الدول، باريس! أتمنى الذهاب هناك، ورؤية برج إيفل، صحيح أنا رأيت صور أبي هناك، وحكى لي تفاصيل رحلته المشوقة، قال لي إن الناس هناك "شيك أوي"، يهتمون بذوقهم، والشوارع بها أشجار وحدائق في كل شبر في المدينة".

– "اصمتي، وهل أنا أمسك بذيلك؟ لماذا لم تذهبي مع أبيك، بدلًا من القفز والتنطيط هنا".

أجابت وهي تجز: "لم يوافق، قال إنها زيارة عمل، وأنا متأكدة أنها ليست كذلك، لقد أخذ صورًا كثيرة وكأنه يبتزّنا، هذا ليس عدلًا".

ابتسمت الأم قائلةً: "الأيام قادمة، فكّري في مستقبلك والدراسة لتلفّي العالم كما تريدين بدون الحاجة لأحد".

– "لكنني أريد لفّ العالم معك ومع أبي ومع مارينا وتالار، وعم أحمد البواب أيضًا نأخذه معنا، آه، وصديقتي هبة ستكون سعيدةً إن ذهبنا هناك".

– "ونشأت خذيه أيضًا!".

احمرّت وجنتا مارال قائلةً: "ولِمَ لا؟ ألا يستحق مثل باقي البشر التمتّع قليلًا بالسفر؟".

سحبت الأم ملعقةً ورفعتها نحوها بمزاح قائلةً:

– "انقلعي من أمامي وإلا ضربتك، قسمتك نصفين!". لتهرول مارال مبتسمةً بخفة خارج المطبخ. "لا أعلم ماذا حدث لبنات ذلك الزمن، يتحدثن عن الشباب وكأنه عادي، ماذا جرى للأيام! في أيامي كنت أخجل من النظر إلى شاب حتى عندما يمر بالصدفة في الشارع، إلى أين نحن ذاهبون؟".

أبرزت مارال رأسها تسند على حافة مدخل الباب قائلة: "مهلًا مهلًا مهلًا، ما كل ذلك الاستهجان! هذه مزحة لا تأخذيها جد هكذا يا أمي، ثم أنت قلت منذ قليل إنك لا تودّين وجودي في البيت، حسنًا سآخذ نشأت ونسافر فرنسا وهو يعمل في المطار، فالأمر قريب".

***

عند حلول الظهر وهطول ثقل النهار، تشتبك أهازيج الضجيج، وتعفر أوراق الشجر، مع هفهفة هواء متقطعة، وانزواء السكوت خلف همم الساعين، واكتمال غايات الرزق. وأمام طاولته التي تستشري بها رائحة السمك، يوم عمل مرهق، يستظل بشمسية مثقوبة، ويباشر عرض الأصناف المختلفة من السمك كما عاهد، ورطوبة الهواء تناحر الأنفاس فكتمت أنفه، هامة شامخة، وشباب لافت، فمشتري السوق من النسوة يفضلون سمكه مقابل جر ذكورته، وعرف مرواغتهن، يراوغ كـ "المتادور"، يسيل كلامه كالسكر فيبتهج قلبها اشتعالًا، نحيلة كانت أم سمينة، سمراء أم بيضاء، فحافزه يتسع لهن، ولازمه الحظ وصرف عليه نساء كثر، لكنه كان يرى بحظه هذا نقمة؛ وحدته التي غدرت به ولاصقت أيامه، فقد وعي على الدنيا

لأب فقط، ومات دون البوح له عن سره، وكسر الوحدة يُحل بالزواج، وبيوم اتصل قلبه بواحدة فتتبعها وعلم ماهيتها، ابنة معلم جزار، مصروفها يعادل أسبوعًا من راتبه! جميلة وخود المظهر، وتقطن بعمارة فخمة، سُلّمها يصل للدور الخامس عشر، وتعيش بالرابع، تحب شابًّا أبكم، وُلد بهذه العيب لكنه نحر عيبه بالتكيف، وبالطبع كيف لهذا الجمال الانصهار لمعاق، وإن حدثتني سأقول لك إن الحب لا يعطي إجابة، بل إنه مخلوق خفي، فكيف لك فهمه! فقوانين المرأة غير خاضعة للفهم، كما تعلم من معشرهن.

وهل من الصعب جذبها؟ هل ستقدره وتثمّن سعيه؟ هذه المجنونة أحبت معاقًا وفضّلته عن البقية، فكيف ستعطي له وجهًا؟ هل يجب إحداث عاهة بحاله كي تحبه؟

هذا إذا ما جنى! بعد تتبعها والوشوشة هنا وهناك وبمهل كأنه يخطو على قشر بيض، طفق متأملًا كراهب، كيف يوقعها بذاته؟ وكيف يتسلسل كما تسلسل الشيطان للجنة؟ ومهما كان مشاغبًا سيكون ملاكًا على درب العاشقين، واغسل يديك يا ابن الزنانيري من سوءاتك، واطوِ صفحتك المدممة وامحِها من سجلّك فيسهل الله القوم لك وتؤنسك عزة بنت الجربوع.

***

وقفا بجانب محل وجهته زجاجية يتزينها (مانيكانات) مؤنثة الهيكل. بعد أن حاسبا سائق التاكسي الذي قابل سخاء بقشيشهم بالشكر، ثم انتزعت منديلها الوردي، ذا رائحة عطر فظّة، ومسحت أنفها المحتقن، هذا المحل الإيطالي الذي

يعمل منذ ثلاثين عامًا، مخول إليه تفصيل وقص وخياطة الفساتين، أخذت هي وأختها مارينا تمعن بأطراف فستان أغرمت بدهاليز قماشه الزاخر بالتفاصيل، شاطرتها أختها نفس الحس الفياض، ليرتسم الفستان بخيالهما الموشوم بقصص الأميرات، لكزت تالار أختها قائلة: "هذا لي" لكنها كانت وما زالت سارحةً هائمةً وكأن الفستان قد خدرها، انتبه صاحب المكان، والذي كان يقرأ كتابًا لـ"جيوفاني بوكاتشيو"، رجل ستيني العمر بأنف طويل وشارب مقوّس، قصير البنية، وقال بلكنة حسنة:

– "صباح الخير على جميلات مصر، لا أصدق أني واقف أمامكما وكأنني لست هنا، معقول تسرحان بوجودي؟ أعرف أن الفستان رائع، لقد انتهيت منه منذ... حوالي... تقريبًا..." ثم خلع (المونوكل) يستقطب التذكر، ثم قال: "آاه نعم، أسبوعين، وأخذ من وقتي أنا وكريستينا ابنتي ثلاثة عشر يومًا وساعتين ودقيقة! القماش مصري والحنكة إيطالية من (نابولي)".

قالت تالار: "ما كل هذه الدقة خواجة؟ سلمت يدك، الفستان فعلًا لا يوصف! لماذا لم تتصل بي عندما عرضته؟ ألم تعدني بأن لي الأولوية إذا صنعت فستانًا جديدًا؟".

قاطعتها مارينا: "دعك منها، لقد جئت لك الأسبوع الماضي وقلت إنني أريد فستانًا لأحضر فرحًا لإحدى صديقاتي، كم أنا ممتنة لصنعك لي هذا الفستان، شكرًا لك، شكرًا شكرًا".

قطبت تالار، ثم قالت بغرور فج:

– "هل قال لك إن الفستان باسمك؟ وهل عندما دخلنا إلى هنا وجدتِ لوحة على الفستان متضمنة رقمًا خاصًّا بكِ؟".

سارع "ماركو" لتهيج حمئتهن:

– "هل تعلمان كم سعره؟".

قالت كل منهما بآن واحد: "بكم؟".

– "بـ...".

وقبل أن يكمل بعد حرف ال "ب"، خرجت زوجته الفرنسية من غرفة وهي تقول بسخط: "تبيع فستاني وتثمّنه أيضًا! ماذا أفعل بك؟ لا أريد افتعال المشاكل أمام الزبائن، وأنتما لستما زبائن، أنتما أصحاب مكان، اجلسا، قهوة أم قازوزة؟".

قالت تالار بنبرة لطف وخفة في أثناء جلوسها: "قهوة من فضلك"، لتُلصق أختها نفس الطلب.

رمقت زوجها بنظرة قاسية، فعلم الإشارة وانحنى لهما مستأذنًا لإحضار القهوة.

قالت تالار باكتمال راحة: "لقد أعجبني الفستان جدًّا يا إيفلين، حقًّا الفرنسي فرنسي لا يُعلا عليه، الخامة، التصنيع، الشكل **C'est classe**".

لتردّ بالشكر: "**Merci**". ورانت ببالها لهفتها بالفستان، فأيقظت طمعها وعزمت على رفع السعر، ومن المناسب أيضًا رمي بعض عبارات المدح الطويل عن

مدى صعوبة صنعه، وأن القماش من أوروبا والخيط المتخلل به من كوكب عطارد، ولكن على مَن؟ هاتان الفتاتان يمتلكان حسًّا لا مثيل له، وعدادًا يقيس معدل ارتفاع الطمع والبغض، وكونهما يافعات ولديهما حواس أخرى غير المتعارف عليها لم يكتشفها العلم من قبل، وهم لا يتفارقان عن البائعة في هذا الحس.

دخل ماركو حاملًا القهوة وهو يقول: "أفضل قهوة من صنع يدي، غير معقول، لقد نسيت شيئًا".

ردت مارينا بلهفة: "ماذا؟".

– "السكر، لا مشكلة فأنتما موجودات آنساتي".

انفجر الاثنتان ضحكًا، ما عدا زوجته، وحتى ابنتهما التي تتابع الحديث من بعيد كتمت واكتفت بالسكوت وإعطاء ظهرها والانشغال بشيء آخر، بثت الغيرة بأنوثتها ثم راحت تشير إليه: "تعال" ليتبع خطواتها كعسكري، ووبخته على فعلته النكراء، وأعطته محاضرة عن التهذيب والأخلاق؛ ليَعِدها أنه سيكون مثاليًّا مهندمًا مهندسًا لسجية الزبائن.

خرج الاثنان باتساع شفاه كمخرطة، لإبرام صفقة قد تلهب حظهما العسر، كونهما منذ أسبوع لم يبيعا إبرة خيط حتى، فقالت الفرنسية: "عذرًا آنسات على التأخير".

وقفت تالار وألقت نظرةً على الفستان قائلة: "دعك من العبث الذي حدث، نحن دائمًا هكذا؛ ناقر ونقير، لكننا هنا لشراء فستان لي، هي لديها عشرات منه.. بكم؟".

– "35 جنيهًا، وهذا والله من أجلك، إننا نشتري الأقمشة من الخارج، الدولار ارتفع".

قالت مارينا:

– "يا خبر! أنا لا أصدق! ومنذ متى ونحن يفرق معنا سعر؟".

– "اهدأ يا كونتس مارينا من فضلك، هل أنت من ستدفعين؟".

– "بلى".

– "حسنًا دعيني...".

قالت تالار:

– "كما تريدين، ها هو المبلغ.. مع أنه غالٍ هذه المرة".

ظهرت قرون ابنتها قائلة: "هي فتاة عشرينية يعتليها الشيطان"، وبنبرة حازمة وبمكر الثعالب: "لكننا قد تعبنا في صنع الفستان، أكرمينا، وهذا المبلغ بقشيش في الأصل، قد أعطيه لسائق أو لخادم، وأنتما زبائن قُدامى لا تفرق معكما تلك القروش!".

أردفت مارينا مظهرةً (كارت) المكر الذي بحوزتها: "بقشيش بخمسة وثلاثين جنيهًا! لماذا؟ ثم إننا نكلم والدتك، وإذا كنت تفهمين بالأصول، أَمِن المعقول بما إننا زبائن قُدامى في المحل تعطينا ظهرك؟ هذا يصح؟!".

أطفأت الفرنسية بصيص هذا الجدال، حفاظًا على الصفقة قائلة:

– "إنها تمزح، هي شاركتنا صناعته أيضًا، حسنًا اتفقنا".. ثم أحضرت دفترًا ودوّنت بعبارات وأرقام.

وعلى حين غرة، دخل شاب أبيض وسيم متوسط الطول، يفترش شعره الفازلين، في بذلة بشوات، وساعة يده تبرق كنجم، وحذاء فخم الطراز، يعطي لقدمه استحسانًا، كان آتيًا لأخذ إيجار المحل، إنه ابن صاحب العمارة، وهذا ميعاد جني المحصول من الإيجار. انقلب عندما رأى تالار ابنة هاروت باشا، ووقف للحظات وكأنه رأى جنّيّةً، نبهت نظراته الحاضرين، وبالطبع أولهم تالار التي غطست بملامحه وإيماءاته، وأخذت تتساءل "لماذا ينظر إليّ هكذا؟ لا، أرجوك، ليس لديّ استعداد للإعجاب الآن، اثبتي يا تالار، ما لك يا بنت؟".

– "أستاذ عادل، لقد أحضرت لك الإيجار، ها هو".. قالتها الفرنسة إيفلين وهي تمد له ظرفًا منتفخًا.

صمت بلا رد يشفي، ففسق وقاره حولهم، لكن سرعان ما أيقن وأكمل:

– "شكرًا لك".. انحنى نحوها قائلًا: "أريدك في أمر مهم".

طاوعت كلمته وخرجت من المحل لتعرف غايته.

– "تعلمين أنني أقدرك يا مدام إيفلين، ولهذا أنا سوف أجعل شهر المكان هذا علينا بلا دفع، تفضلي".

– "هل حضرتك تمزح؟ شهر إيجار مجانًا! لكن ماذا عن أبيك؟ هل هذه فكرته؟ لأنه قد كلمني البارحة، ولهذا قد حضّرت له الإيجار في الظرف".

– "غيّر رأيه". ثم انحنى مودعًا وابتعد.

تعجبت المرأة من تصرفه، فهي لم تشهد فعلته من قبل، ولا حتى على سبيل المزحة!

***

في سوق مزدحم بالسيدات السمينات المرتديات عباءات سوداوات، منهن ممسكات بأطفالهن، ومنهن من فضل العزوبية المزعجة المُرة، في مجتمع يَسِن أنيابه فقط على المرأة، ومنهن من فات عليه قطار الزواج، وهن كذلك لهن موقع وافر من الجلد والسهام المسمومة، ومن الشح تواجد رجل أو شاب، اللهم مَن يتواجد مُرغمًا على ذلك.. وفي الطريق عربات تجاهد وتعافر وتناحر وتناور للتحرك بضع مليمترات، أبواقها تعزف سيمفونية من الإزعاج والشتات والصداع الذي يرشق بجمجمة المارة المنهكين من المعافرة والمجادلة والمحاولة لإيجاد مبتغاهم.. وبائع عصائر يشخشخ صفائح معدنية لافتًا ظمأ العباد، وقطة رصاصية ذات أعين حادة تقف تحت بائع السمك الذي يتكئ على طاولة ممسكًا سيجارًا رخيصة الثمن، تستلقي القطة منتظرةً بواقي الأمل، وإن كان كريمًا عطوفًا خيِّرًا في دنيا القسوة، يقذف لها سمكة! ونشاز يدلف من جوال ليبدد حالهم الذي يعتصره الصبر، نوع من الأغاني يسمي "مهرجان" وهو حفنة من أشباه المطربين يصرخون بكلمات السباب والوعيد والويل والانتقام لكل من كان أو لا يكون أو يريد أن يكون! شباب أرواحهم مدفوسة في حنجرتهم لا يطيقون أحدًا يعارض ويناقش، قاطعين تواضعهم ومنتشين بغرورهم المصطنع، تشغل هذه المهرجان كالقرآن في الشارع

المصري منذ أحداث الخامس والعشرين من يناير، ومن مُحبّيها محمد الصياد، البارع والمتاجر الخِرّيت بأصناف السمك و(الكِيف) معًا، يرش الماء على سمكه كي يبقيه طازج الرائحة ولامعًا كالزئبق، يصيح مثل الديك بلا توقف أو قهقرة، أيًّا كانت القلقلة بحنجرته فيجب الدأب "طازة يا سمك مبطرخ يا بلطي"، يكرر تلك الجملة مع الرش بالمياه كل بضع دقائق، وكريات الثلج التي تمتزج بطاولاته لإنعاش السمك، ويمسح جل دقائق معصمه بخيشة، ويمسك بالسمك المشاكس بالضغط على بطنه لإخراج بيضه لجذب النساء اللواتي تدعبس عن أجود الأنواع.

وقفت أمامه شابة سمراء الملامح، متوسطة القامة، ممتلئة القوام، شعرها الأسود يكسو أكتافها ويسيل إلى كوعها ترتدي (تي شيرت) عليه عبارة لاتينية، تملك وجهًا هو الأشرق كالنجمة، الزبونة الأولى، تُرى هل ستفاصل؟ هل سينشف الريق في المناهدة؟ حيث بلغ السيل الزبى هذا اليوم، وعلى غير العادة، اشترت منه دون فصال، وتم الأمر كالسكين في قطعة (الجاتوه)، كانت بشوشة وحضورها بهي، وطلتها مباركة، وفتحت لرزقه زبائن آخرين، وتهاتف المشترون حوله، ثم انقطع صوت المهرجان ليتحول لنغمة الهاتف:

– "آلو.. من معي؟".

لم يُجِب، ربما لم يسمعه بسبب الضجيج:

– "من؟! آلو...".

قال بتردّد: "أنا حامد، جئت لك بأخبار مشتعلة!".

– "الله ينور، تعال نتقابل عند المقهى اليوم، الساعة السادسة، عند مقهى البورصة في باكوس.. ميعادنا هناك".

الساعة السادسة إلا عشرة الشمس تغيب، والأذان ينطلق في مسجد مجاور، الله أكبر الله أكبر.. وجد محمد كرسيًّا، أو بالأحرى هدّد أحد الجالسين فارتاب ورحل وأخذ مكانه، المقهى مكتظّ بالعاطلين وكبار السن، يدخنون الشيشة غير مكترثين بصحتهم الذابلة، ومن كثرة الزحام قد تجد اثنين يجلسان على كرسي واحد! أو يجلسان فوق بعضهما! ويمكث محمد يشرب الشاي بعد يوم أضعف ساقيه النحيلتين، وفي ذلك الجو الخالي من التنفس، حضر حامد ليلقي السلام:

– "وعليكم السلام ورحمه الله وبركاته"... وضع محمد كوب الشاي، فارتطم بالصينية، فبدا عليه العبوس المتحفظ.

– "اليوم كانت لدينا طلعة في الميناء".

– "أي ميناء؟".

– "رأس التين".

– "عظيم، وماذا حدث؟ أكمل...".

– "هل معك سيجارة؟".

– "العلبة أمامك، خذ وخلصنا؟".

سحب واحدةً وقدحها بصعوبة ثم قال:

– "بعد أن دخلنا كعادتنا نصطاد كأي يوم عادي، دخلنا العمق المعتاد، وجهزنا الشبك، أوقف سعد القارب، وبعدها قال: انتظروا قليلا".

– "تنتظرون من؟".

– "أنا آتٍ لك في الكلام: بدأ الأمر غريبًا بالنسبة لنا، فبعد التوقف سألته: لماذا نقف يا سعد؟ نريد الإنجاز، فردّ عليَّ قائلًا إن هناك مركبًا سيأتي ليأخذه، وبالفعل هذا ما حدث بعد عدة دقائق، اقترب منّا مركب آخر".

– "مركب عادي؟ صيد أم ماذا؟".

– "نعم مركب صيد، فيه أربعة رجال عمالقة، اثنان كبار، واحد منهم ذو كرش ضخم، والآخر نحيل، والآخران كانا ما بين العشرين والثلاثين في حيوية جذابة".

فرك محمد ذقنه متسائلًا: "ريّس مركب صيد يترك مركبه في نصف البحر ويذهب لمركب آخر؟ هذا عجيب! وأين قال لكم إنه ذاهب؟".

– "لم يقل شيئًا، أعطاني المهمة وابتعد".

– "وهل من المعتاد عليه ترك المركب؟".

– "لا، هذه أول تارة يفعل ذلك".

هذا السلوك شرد أفكار محمد قليلًا، فمن الغريب على ريّس المركب ترك المركب في مهمة صيد..

اقترب محمد من حامد وسأله: "مخدرات؟".

تنهد حامد بعد إطفاء السيجارة: "لا أظن ذلك، سعد ليس حِمل التعامل مع ناس "شمال" وأيضًا عقله لم يعد كما سبق، وذاكرته بدأت بالانسحاب وينسى!".

بحلق محمد في حامد وقال:

– "هل تعلم إن كنت تضحك عليّ، ماذا سأفعل بك؟ لا لا، ليس أنت، بل أبنائك".

انحنى حامد بانكسار ليرد قائلًا:

– "لماذا؟ أنا تحت أمرك بلا تهديد، ثم إنني صرت رجلك الآن، عندما حدث أمر يستدعي، كلمتك فورًا".

– "جيد، هل أطلب لك كوبًا آخر من الشاي؟".

ابتسم حامد لتظهر أسنانه الصفراء: "لكني لم أشرب شيئًا يا ريّس".

لكم محمد الطاولة، فاهتزت الصينية قائلًا: "لا، أنت شربت وأكلت وكل شيء، لا أريدك أن تفكر... مفهوم؟".

رد حامد مهزومًا:

– "مفهوم.. هل هناك شيء آخر؟".

– "نعم انتظر".

وفي تلك اللحظة، جاء من بعيد "علي" يلتفت حوله مثل اللصوص، يتطلّع لأدقّ تفصيله حوله، يرتجف قليلًا رغم حرارة الجو، زعق برؤية حامد جالسًا،

وحامد نفس الأمر، وكأنه رأى شبحًا، فسلّما على بعضهما بعلامات استفهام واستغراب وتعجب، وكانت أعينهما تريد إخبار بعضها: لماذا أنت هنا؟ وما الذي بينك وبين محمد؟ بعد أن سلّم "حامد" على "علي"، استأذن أنه سيأتي في وقت آخر.

قام محمد من على كرسيه قائلًا: "حسنًا يا حامد، شكرًا يا أخي على ذلك الواجب".

فتعجب "علي" من قدر الاحترام الذي بينهم، كون حامد "بحري" وهو المساعد الثاني لسعد، ورجلًا ذا هيبة وسط شوارب كثّة، أجحف الأمر "علي" الذي اكتفى برمقات متململة.

قال: "هل تريد مني شيئًا آخر؟".

– "سلامتك".

وضع محمد قدمًا على قدم، وأخرج هاتفًا حديثًا آخر غير المعتاد الذي معه، وأظهر صورة فتاة في العشرينيات من عمرها في عباءة سوداء تبرق من (الترتر)، مفتوحة من الرقبة، ثديها يموج جسدها الممشوق، شعرها ملون أصفر بالحناء، وتضع الأحمر على شفتيها لتبدُوَا كالكرز!

أشار "علي" بإصبعه قائلًا: "الفتاة!".

ليردّ محمد بزمجرة: "هل ستمثل دور الغبي أيضًا؟ نعم هي.. أبكم وسمعك ثقيل، لكن تعاني من الزهايمر؟ لا أفِق".

ثم علق محمد على الصورة:

– "فرس ما شاء الله؟ قل لي يا "علي" ماذا كنت تفعل معها؟".

ازدرد "علي" ريقه قائلًا بلغة الإشارة: "نحن نحب بعضنا، ونخطط للزواج".

علت ضحكة محمد بأرجاء المقهى ثم طرح استفسارًا:

– "وزوجتك وأبناؤك، أنت يا رجل (سبوع) ابنك على مشارف التحضير، وإن افترضنا، هل المعلم جربوع يعلم بذلك؟".

نظر "علي" للأرض ولم يتفوّه بكلمة، ولسان حاله عاجزًا.

رفع محمد حاجبه بلؤم ثم قال: "انسَ ذلك الأمر يا علي، بكل صراحة، البنت تعجبني، أريدها، وإن ساهمت بتقرّبنا سأعطيك مكافأة، هي ليست مكافأة، هو خبر!".

انقلب وجه "علي" الخاسر لتخيل "عزة" الفتاة التي أحبته قد تكون مع رجل آخر، لكن هذا الرجل جبار خسيس الطبع والنشأة.

– "إذًا سأفضح أمرك، الخيار لك؟ أتعلم كم ذبح أبوها عجلًا وخروفًا في عيد الأضحى الأخير؟ ذبح ثمانية عجول، فكّر معي يا "علي" هل ستقدر على مهرها؟ وكيف تستقبل زوجتك الخبر، المرأة عندما تشك بزوجها يصيبها الهياج، وقد تقطعك إربا وتضعك بأكياس بلاستيكية وترميك بالقمامة! ألا تقرأ الجرائد؟ ولو وافقت، هل تستطيع إكمال حياتك معها؟ وأطفال آخرون ومسؤولية! فكّر فكّر.. أنت بالأساس تمشي ببيع السمك!".

أشار "علي" بثقة تشي بمدى فطنته، قائلًا بتحركات يده صعبة التفسير: "هذا شرع الله، وقد حلل لي الزواج بأربع، ونحن نحب بعضنا".

كظم محمد غيظه: "حسنًا يا أخرس، لنرى أنا أم أنت!"...

قال "علي":

– "ما بيننا مصلحة، تدفع وأنا أنفذ، ولا أخاف منك؛ عزة لي أنا".

نظر له محمد متحدّيًا:

– "سترى.. هناك شيء آخر، إلى أين ذهب سعد بعد تركككم والرحيل مع مركب آخر؟ وهل تعرف هؤلاء الأشخاص؟".

هز رأسه بالنفي قائلًا: "إنه لم يكن معه في ذلك اليوم" ثم سأله "علي" بتعجب: "ماذا جرى؟".

– "لا شيء، اذهب أنت الآن".

سحب محمد علبة سجائره الكليوباترا، وتمشى يدندن أغنية لعبد الباسط حمودة:

"خد مني قلبي هدهولك وببلاش

اديني قلبك أشتريه وفلوسي كاش

خد مني قلبي هدهولك وببلاش...".

بدا عليه أن حنجرته تنفع للغناء، فلاحقته أعين المارة المتشائمين المتزمتين المتبلدين، وبينما يغرد خطف ثمرة تفاح من بائع، خطفها بخفة وكأنه يرتدي طاقية

الإخفاء، فقطمها ثلاث مرات لينطق البذر أنا هنا، ارمني! فتطايرت بقايا التفاحة. قام ثم دلف لدكانة وشحن هاتفه واقترب من منزله، ليجد كلبًا مريضًا، حمله وأوصله لصديقه الذي وعده بالعناية، دفس كفه الأيمن ظافرًا بميدالية من المفاتيح بها كرة بلياردو "رقم 8" ومن الظلام الحالك صعب معرفة المفتاح، فأنار بهاتفه الذي ضربت إنارته شبكة عينه، فنشرت وميضًا وزغللتها، ففرك عينه فاستقرت رؤيته، دخل وشغل إذاعة القرآن الكريم، وجلس يتأمل السقف المتشقق بطلائه، ثم أخرج (قرش حشيش) وحطمه، ووضع فتاته في طبق، وأخرج تبغ سيجارة ليخلطهم، وقرطسها بالتوليفة، وبالهناء معمرًا مزاجه! سمع "هيبا "يهطل، إنها عصفورة تقف في بلكونته من الحين والآخر، وكأنها رسول يبعث بشيء ما.

لقد جئتِ؟ ثم فرش لها قطع من العيش الطازج لتنقر أكله، ثم تابع الغناء...

***

قصر واسع يتسع لاحتواء وإيواء وإجلاء حشد، سقفه مرسوم بأيقونات لبعض آلهة الإغريق واليونان، به باحة مخضرة وورد متفرق، أنواعه نادرة، وشجر بثمار التوت والبرتقال والليمون، رائحته تنعش روح كل من هلكت روحه، كان مجهزًا بالحراسة، حاملين بنادق ألمانية الصنع، يعج ذاك القصر بأصحاب المناصب والمزايا وبزلات على جلد قوم تحصنوا بثروتهم الفاحشة، متجمعين يتكلمون ويتحاورون ويتفاخرون بفيضان ثروة تفخمت بتعب وأخرى بالخداع، يمشي بحذر رجال خدم سود البشرة في أبهى حلّة، يخدمون بطاعة وإحسان، وهذا اليوم يوم لا مثيل له، ومن أرجاء المحروسة كافة جاؤوا لحضور حفل عيد ميلاد ابنة قيادي سابق ورجل من

رجال الملك المخلوع، ممسكين بكؤوس خمر مزخرفة بعناية وبكد، وخادمة بفستان أبيض قصير يصل إلى الركبة تتجول وتتمايل وتتحايل منحنية لأخذ أمر من صاحب القصر "راغب "، وبالطبع حدث مثل هذا لا ينفع إلا بوجود أصحاب شركات الملاحة والسفن، هاروت باشا الذي سبق غيره وحضر باكرًا مسرّحًا شاربه الذي يشبه مخرطة الملوخية، ملمعًا حذاءه مع وضع ربطة عنق مقلمة.

بين الغمغمة تراجعت أصواتهم لتسير خادمة بممر القصر تجرّ عربة فوقها تورتة عيد الميلاد بستة طوابق، كل طابق ذي طعم مختلف، وتكسوها كريمة الفراولة وفتات المكسرات، وذهلت أنظار وشهية الحضور، ثم غرزت شموعًا في آخر طابق من التورتة وأوقدتها، ثم حاوطهم الحضور وهم يصفقون "سنة حلوة يا جميل سنة حلوة يا..." ثم وقف راغب باشا في جانب وابنته في الجانب الآخر، ونفخا النار لتفنى كفناء الشهب بالسماء، واحتضن راغب ابنته بقوة ولثم جبتها قائلًا: "كل سنة وأنتِ طيبة يا أجمل ما أمتلك".. راح الكل يهنئها ويبهجها بالإطراء والمغازلة والمباركة، ولقطف موعد مع بنت الأكابر، تلك الفتاة الوحيدة في قصر شاهق المساحة وحيده كنطفة برحم!

وفي زاوية بالقصر، هاروت رجل مهتم جدًّا بالوقت، حتى إنها المرة الثالثة التي ينظر بها في ساعته الفضية، فلاحظ ذلك الباش كاتب "حكمت"، هذا الرجل الذي يعمل في جريدة ذي اسم وسمعة، وخط عشرات المقالات مدحًا وذمًّا وتعبيرًا عن ما ينخر بلُبّ عقله الأفلاطوني!

– "ما بك يا رجل تنظر للساعة؟ هل كُسرت أم ماذا؟".

قال بتوجّس: "لا لا شيء، أنا فقط لديّ أعمال كما تعرف".

– "ما زالت تلك العادة فيك؟ شبح الوقت، هات".

نظر له هاروت متعجبًا: "هات ماذا؟".

قال متحايلًا:

– "الساعة، أريد أن أراها".

علق بتكبّر:

– "أنت تعرفني لا أعطي أشيائي لأحد!".

– "كما تريد أيها السمين، لو كنت أعطيتني إياها لما كنت سرقتها على أي حال!".

سرعان ما أتي إليهم حلمي يدخن سيجارة، هو رجل ثوري يكره الألقاب، ذو شارب وعنفقة بنية، نحيل مثل إبرة الخياطة، وصافحهما ثم فتح حديثًا قائلًا:

– "الإنجليز أولاد الكلب لا يريدون ترك البلد، تخيل يا حكمت البارحة كنت في (كوم الدكة) ووجدت عسكريًّا مجنونًا يحاول أخذ حمار من صاحبه! أخذ يشده بالقوة وصاحبه يشده؛ رعب الأمر المارة".

قاطعه هاروت متملكًا ضحكته:

– "والحمار ربما تبول على حاله".

– "الذي يصعب عليك فعلًا هذا الكائن المسكين".

جحظت عين حكمت الذي بادر بانتباه قائلًا: "وماذا حدث بعد ذلك؟ أكمل".

– "لا شيء، تجمهر الناس عليه وأخذوه إلى الكراكون، ابن الأبالسة كان يريد أخذ الحمار معه إنجلترا لحبيبته، عن طريق تهريبه".

ضحكا حتى غرقت أعينهما من الدمع، فقال هاروت: "ولماذا لم يتركوه يأخذ الحمار؟ الرجل يبدو عليه أنه يحاول نيل الرضا!".

– "هذه القصة مشوقة يا حلمي، ما رأيك في كتابتها في الجريدة؟ ستكون حكاية طريفة وسبقًا صحفيًّا لا مثيل له!".

– "ستكتب اسمي؟".

– "وفي الصفحة الأولى أيضًا.. ما رأيك؟".

– "امم، أعتقد يمكنك كتابتها بدون النظر لاسم".

قطب هاروت باشا قائلًا: "لماذا؟ وهل حلمي المناضل ضد الملك وطغيانه يخاف من ذكر اسمه في جريدة؟".

– "ليس الأمر كذلك، كنت أتعامل ضد الملك، أما الآن أتعامل مع الرصاص.. هل تفهم ما أعنيه؟ امم لا تفهم، أنت لست من البلاط الملكي ولا حتى قريب من العائلة المالكة، من أين حصلت على لقبك؟".

ازدرد ريقه وكأن كلامه مسّ أمرًا ما قائلًا: "من الديوان الملكي".

– "هه، ديوان ملكي؟".

كان حكمت يريد الدخول بهذا الجدل، لكنه ترقب حتى اللحظة المناسبة قائلًا: "ماذا تريد أن توصل لنا يا حلمي؟ أخبرنا".

– "ستكشف لكم الأيام ماذا أقصد، وخصوصًا أنت يا هاروت ومصالحك".

تابع حكمت: "وما علاقة ذلك بالذي حدث في الشارع؟ إنه موقف طريف عادي جدًّا".

ابتسم حلمي قائلًا: "عسكري إنجليزي في نصف الشارع يأخذ حريته في المشي هنا وهناك رغم المعاهدة! ماذا تصنف ذلك؟".

– "أسميه موقفًا طريفًا".

قال هاروت:

– "دعك من هذا الوسواس، يسمي نفسه مناضلًا ويخاف وضع اسمه في جريدة بعد الثورة! لم أسمع عنه حتى أنه كحّ في وجه ضابط جيش، ماذا بك؟ هل وطنيتك تعمل فقط عند حكم الملك أم ماذا؟".

قال حلمي منطلقًا: "لا، لكن العدو كان الإنجليز، والآن رحل، وعلينا الآن توفير قوانا لتعمير الوطن".

فقابله هاروت بردّ فطين:

– "أوليس النضال يبقى دائمًا، النضال ضد الظلم أينما حل وفي أي فترة من الزمن.. بدأت لا أفهمك!".

سحب حكمت يد هاروت وهو يقول ساخرًا: "هيا بنا من هنا، ستجدنا في (البدروم)".. فابتسم حلمي قائلًا: "ماذا ستفعلان هناك؟".

ليرد قائلًا: "نلعب الغميضة! ليس من شأنك"، وبالفعل ابتعدا عنه، لكن ليس في البدروم كما قال، وقفا أمام نافورة تبصق تماثيلها المياه من فمها في فيزيائية ملفتة.

– "ماذا سنفعل الآن؟ المحفل سيغلق، ليس لدي تفسير لهذا غير أن حمايتنا كانت مع الإنجليز، ومعها دعم المحافل"، قالها هاروت وهو يرمي بالنافورة حجرًا صغيرًا قد التقته من تحت قدمه.

– "سياسة الحكومة القادمة، قد تكون انفتاحيه، ولا تنسَ أن الضباط الأحرار منهم إخوة، وقد يتخذون قرارًا ممهدًا".

– "تمهيد لماذا؟".

تمشّى حكمت وظهر عليه الضيق، فتتبعه هاروت بتلهف ثم قال: "تمهيد للاستيلاء على ممتلكات الناس بحجة الوطنية والقومية والعروبة، هذه المصطلحات التي تصفعنا على خدّنا كل يوم، وينساق معها الشعب المخدوع!".

– "وهذا يعني؟".

– "في عينك الإجابة، يعني أن الاستيلاء سيطال أصحاب الشركات، ومنهم أنت! بل إن الحكومة قد تأخذ أراضي البسطاء الذين لديهم قيراط أو نصف، وقد يأخذون مقرات المحافل".

حك هاروت فكه وسأل:

– "وماذا عنا؟ ماذا ستفعل؟ ما رأي المحفل الرئيسي في ذلك؟".

شد حكمت طرف ياقة هاروت ليلتصق به كاتما انفعاله: "وما شأن المحفل في ذلك؟ أتظن أن لدينا يدًا في السلطة؟ كل شيء تحت عينك، الأمر يأتي من الخارج؛ اقفل هذا وافتح هذا وموّل ذلك وهذا عارضه، إننا حركة! قد نكون منقسمين أحيانا، لكن!أعلمت بمنير؟ هذا الأخ الماهر، لقد تنبأ بكل ذلك وأخبرنا عن كل شيء يجري حولنا.. من عشرة سنوات جلسنا نمازحه ظنًّا منا أن هذا الارتقاء كان حلمًا وليس حقًّا وصلًا للرسولية، حتى إنه أخبر بعض الأعضاء بموعد وفاتهم!"، ثم رفع إصبعه قائلًا "هناك واحد فقط لم يُبدِ ردة فعل! صاحب القصر الذي نحن به!".

– "أيعقل؟! لماذا لم ينبهنا وهو يعلم أن أغلب الأعضاء من المستثمرين وأصحاب الأملاك؟ لماذا لا يخبرنا بأمر الثورة أو حتى بحذر؟".

– "لا أعلم! ولم أعد أفهم شيئًا"..

تطلع هاروت لساعته وتأفف من ضيق الوقت؛ لأن هناك شحنة بضاعة ستجيء إلى الميناء، ويجب الذهاب بنفسه للإشراف عليها، وتساءل هل سيلحقها أم لا! هل الوقت كافٍ؟ ربما سيتولى "عزيز" أمرها، عزيز الشاب الذي عيّنه حديثًا، قد تعلم المحاسبة في إنجلترا وظفر منها بأعتق الشهادات، كان على هاروت أن يولي أحدًا يفهم بالإدارة الملاحية والتعامل مع سخط ظروف البحار.

قاطع حكمت هيامه وسرحه قائلًا: "ما بك؟".

– "لا شيء، أنا فقط مرتبط بمواعيد، هل هناك هاتف هنا؟".

– "بالطبع، بالداخل".

سارع هاروت وأجرى مكالمة للميناء ليوصله لعزيز الذي طمأنه أن كل شيء على ما يرام ويسير وفق الخطة؟ وأن حمولة الخشب المستوردة قد وصلت ويتولى أمرها على كافة المستويات والأصعدة والنزول والتخزين.

فتنهد هاروت وكأن ثقلًا كان على صدره وخف بلمح البصر قائلًا: "الحمد لله، يبدو أنك ستكون رجلًا يعتمد عليه".

ورجع يقف مع حكمت، لكن هذه المرة بكأسين من النبيذ المعتق، لكن ما لم يكن متوقعًا حضوره هو راغب باشا! هذا الرجل المعالج للتو من جلطة دماغية نجا منها بعجب، فأفقدته القدرة على تحريك جزء جسده الأيسر، فتعثر الدم شل نصف وجهه الذي يتدلى وكأنه ذائب!

قال بإحسان:

– "إن البوفيه جاهز، وعليكم الحضور لمائدة الطعام".

– "هناك كلام كثير يجب التحدث به يا راغب، كلام كثير جدًّا" كان ذلك هاروت الذي قالها وهو يخطو بجانبه.

– "سأرد على كل تساؤلاتكما، لكن بعد أن نحشي وننفخ بطوننا، أتعلم أن مركز القوى البطنية مهم؟".

قال حكمت:

– "الباطنية وليس البطنية، هل حولت تعاليمنا إلى مائدة الطعام؟".

فقهقه راغب ولفت أنظار الحضور مع سيل من السعال الجاف، فسريعًا أحضر أحد خدامه حبة دواء، ليبتلعها ويسترد نقاطًا من عافيته.

افترس الأغنياء أجنحة الدجاج واللحم مع الأرز المنتقى حبة حبة، ومن تحت الماء نهشوا الكالمار والكافيار مع المكرونة التي حسبت ودققت وفحصت مكوناتها من الجلوتين، حيث إن راغب وابنته "نانسي" يعانون من الحساسية المفرطة، فربما فحصوها مخبريًّا قبل الطهي، ورتعوا بالنعيم حتى الشبع، ثم لملم الخدم بقاياهم.

– "ها؟ ما الأمر؟" قالها راغب باشا وهو يرتشف الماء الذي يحب أن يكون بالليمون.

اهتبل هاروت الفرصة قائلًا:

– "لماذا لم تخبرني بأمر تحركات ضباط الثورة، لقد قال حكمت إنك على علم بكل مجريات الأمور العليا كونك أيضًا رجلًا من رجال الملك، صحيح؟".

– "وإن علمت، ماذا كنت ستفعل يا هاروت؟ هل كنت ستقف أمام العساكر والدبابات وتمنعهم؟ ماذا كنت ستفعل؟".

– "كنت فعلت شيئًا، آخذ حذري!".

– "وهل توقفت شركتك يا هذا؟ الضرائب زادت قليلًا، الأسعار بعض المليمات! لكن لا شيء بالمقارنة بحجم ما تملك وتنفق".

تجلت حنكة حكمت الراغدة قائلًا:

– "اسمع، لقد علمت أنك تعرف كل ذلك من قبلها بمدة وجيزة، كان عليك إخبارنا أو على الأقل تأكيد أو نفي بعض حركات التمرد التي يقوم بها الضباط، هل فعلًا أمر يستحق الاهتمام؟ أم انها فقاعة هواء!".

– "أترون ذاك الرجل الذي يقف مع أربعة آخرين؟".

قالا بتتابع:

– "الذي يقف بجانب المرأة بالقبعة المزركشة؟".

– "هو".

– "ما به؟".

هبت ريح قوية فقال: "هيا لندخل، ولكي لا يسمعنا أحد أيضًا، وبالفعل، ولجوا يتحامون بجدران القصر الإسمنتية.

– "هذا رأفت شرف الدين الناضوري، يمتلك محلات الذهب المستخلص من مناجم تركيا، ومن أعتى العائلات هنا بالإسكندرية، لا تصدقوا ماذا فعل عندما علم بأمر رحيل الملك رغم أنه كان من أشد المعجبين بالملك، لقد قام بالإبلاغ عن أحد رجال الأميرالاي الذي كان يحاول عبور الحدود من أسوان".

حلت غريزة الكتاب على حكمت قائلًا:

– "وبعدها؟ لماذا أبلغ عنه؟".

– "هذا الرجل أحد أصدقائه المقربين، وفعل ذلك كي يكسب شبرًا ويجلس بالمقاعد التي ناصرت الثورة".

قال هاروت:

– "وأنت تطلب منا أن نفعل مثلما فعل ذلك الشاب؟ هل أنفق جزءًا من ثروتي رضا وعطفًا ومغازلة؟".

رد راغب بعد عدة ثوانٍ في إعلان أن هاروت هو من يهوى الجدال المستنزف قائلًا: "لا حل أمامك يا أيها الأرميني".

تابع بعد أن ملّ من الثرثرة قائلًا: "الذي حدث قد تم، وصدقني كوني من رجال الملك سأعاني وقد يرمونني في السجن، لقد كبرت، أتممت السبعين، وأريد أن أقضي الباقي مع ابنتي فلذة كبدي، هذه الفتاة التي لم تبلغ بعد، وماتت أمها في الولادة، أود الموت بعدما أراها متخرجة من الجامعة، وعروسا مع رجل مناسب، هذا كل ما أريد، ثم قفوا قفوا لأجلسكم جزعًا من ضعف منطقكم، هل فقد أحد منكم وظيفته أو نقص قرشًا، تعيشون وتضاربون في البورصة، وأنت يا حكمت هل منعك الانقلاب من مضاجعة النساء اللاتي يعملن معك؟ ما بكم؟".

قال حكمت خجولًا وبنبرة مازحة: "بلى، لقد صدر بيان عسكري بالتحفظ على قضيب كل مواطن لحين إشعار آخر، وسيقطعون خصية كل مواطن في مستشفى التأهيل الشامل".

رغم تجلي رونق واحتشام والتزام إيماءات هاروت، إلا أنه ضحك من خفة ظل حكمت، وكأنه عنوان لمقال جريدة.

تابع راغب في شيء من الوقار: "حقيقة أنا لست من عشاق هذا الأسلوب من المزاح" ثم أشار لخدمه بإنزال المقبلات، مقبلات ما بعد الأكل، هكذا سمّاها.. عدل فيونكته ثم قال: "آه نسيت، لا تنسوا أن تلقوا نظرة على الورود الخاصة بي، هناك أنواع نادرة جدًّا لم تروها في أي مكان في العالم، حتى وإن سافرتم بلاد الأمازون.. استمتعوا".

حل رجل شاهق كالبرج، ووشوش بأذنه ليتبدل حاله غضبًا، فقد تلقى خبرًا أنهم أمسكوا برجل بمكتبه، كيف دخل؟ وماذا يفعل هناك؟ هذا ما شتت راغب.

طلع السلم بمهل رغم إعاقته، وخلفه رجلان من الحرس، فوجد حلمي منتفخ الجفن لتعرضه للضرب من أحد الخدم.

– "ماذا تفعل هنا يا ابن العاهرة؟ وكيف تجاوزت الحرس؟".

تأوه حلمي قائلًا: "لقد قاموا بالواجب يا باشا، كنت أبحث عن الحمام، بالصدفة فتحت الباب ولم أعرف أنها غرفتك".

شاور عليه بعكازه بعبث وغيظ قائلًا:

– "هل تخال أنني أصدق روايتك أنت؟ ماذا حدث؟".

رد خادمه الذي أمسك به وأبرحه ضربًا:

– "لقد كان يفتش بالمكتب سيدي، كان يعبث بكل شيء، المكتب والدواليب أخرج محتواها والبعض منها ملقى على الأرض".

ولج راغب غرفته ليجدها مبهدلة ملقى بها أوراق مهام حكومية ومستندات خاصة، ليزمجر قائلًا: "يابن الكلب ماذا فعلت؟ وماذا كنت تريد أن تأخذ؟ انطق!". فصفعه حتى دوى صوت الارتطام.

فقال حلمي ولسانه ثقيل:

– "من منا ليس له تار في هذا البلد، نحن نجمع معلومات عنكم وعن ماذا كنتم تقومون...".

قال راغب مستهزئًا:

– "وقت ما يرسلون لي رجلًا ليسرقني يرسلونك! حقًّا خطة محكمة، لم أنتبه حتى إنك كنت من الثوار، لقد أرسلت الدعوة لأبيك، زميلي في العمل، إلا أنك حضرت بدلًا منه، ولم أتوقع أن تكون بذاك السواد!".

– "لم يرسلني أحد، إننا مستقلون، يجب عرضك على المحكمة الدولية للقصاص منك ومن أمثالك". ثم بصق بجانبه بحرقة.

– "هل أتصل بالشرطة يا سيدي؟".

– "إياك.. اليوم هو يوم عيد ميلاد ابنتي، ولم أقم ذاك الحفل ليتحول لمسرح جريمة، دعوه وشأنه".

وكان صادقًا، غادر حلمي القصر وكأن شيئًا لم يكن، راح راغب يتصل بأبيه ووبخه معبرًا عن مدى استيائه، فشاطرة أبوه استياءه وتأسف عشرات المرات خجولًا بين كل سطر يتفوهه، ووعده بأن سيتخذ موقفًا حاسمًا، وأقسم إن ما حدث

سيعاقب عليه، وتحجر قلبه وتفحمت رحمته ونزع رداء الأبوة بائعًا ابنه، بأنه كان يجب أن يتم تسليمه للشرطة، وقال بقسوة إن الأمر يستوجب قرصة أذن كي يعيد تنشئته من جديد.

وهذا بالطبع كلام فارغ، فحلمي شاب ناصح ذكي، وحضوره كان أذكى، فقد سرق دعوة أبيه وحضر مكانه، ووضع اسمه قبل اسم والده ليدخل القصر على أنه هو.

وفي حجة السيطرة، إن كان أبوه له كلمة، لما فعل فعلته، وأيضًا كيف لابنه الانضمام للتمرد؟ رغم أن هذا يضره بالمقام الأول..

أما عن راغب، بينما كان مستلقيًا على سريره الضخم المنحوت، بالتزام فتح دولابًا بجانبه ليقرأ رسالة حذرته من البقاء بمصر، وتحثه على حرق المستندات التي معه، كانت تلك الرسائل من مجهول، أرسلت له من بريد بتركيا، تلك المناشدات صارعت عناد راغب عندما تلقاها، وهزمت عجرفته، وجعلته يستشعر الريبة.

الفصل الثالث

كنيسة هائلة البنية، صلبانها تختفي بالسحاب، وتمثال العذراء بمدخلها ينير قلوب الزوار، وتداعب بركتها طيور السماء، ويحترق الشيطان عند مداخلها ومخارجها، وتزدهر بين العمارات الحديثة بزخارفها ونقوشها..

كانت أقدامهم معهودة على الذهاب للكنيسة، هذه الأجواء التي لم يحرمهن منها هاروت منذ أن كانوا أطفالا ورغم كونه غير قوي التدين؛ يدخل الكنيسة مرة كل عام أو حتى أشهر! دأب على الاحتفاظ بدينه وحث بناته على مقابلة القساوسة والراهبات ونيل مشورتهم ونصائحهم.

كانت غرفة الاعتراف متهيئة لحضور تالار انه القس شنودة، رجل خمسيني العمر، قصير لكنه داهٍ بتعاليم الدين وحيثياته.

حدثته عن عمها، وكيف أن أباها ظلمه لاتهامه بالسرقة، وأن خاتم الألماظ الخاص بأمها كان في غرفتها ولم يبرح مكانه، حيث تحتفظ به الأم، لأنه مميز وعلامة

فارقة في علاقتها بهاروت الذي أهداها إياه في عيد زواجهما، ففي خضم التفاصيل واختفاء الخاتم أمر تتعجبه تالار وكل من في البيت، فالعم تيغران لم يكن في ذلك اليوم في مصر، وكان في رحلة استكشافية لأحد الآثار، فعمله هو الاكتشاف والتنقيب عن أي أثر كعالم آثار مصري يجعله يختفي لأشهر، والذي فجر دهشة أبيها أنه ترك عمله ليلتها ليحتفل معه بعيد الميلاد في ذلك اليوم، وهذه بالطبع ليست عادته، فأخوه ملتزم جدًّا بعمله حتى إنه قد يهمل حاله ونظافته كي يكمل ورديته.. وإن كانوا يشكون في مارال فقد كانت عند الشاطئ تلتقط بعض الصور، فحبها التصوير أصابها بالجنون، وتؤجر مصورًا خاصًّا يلتقط لها صورًا بأزهى حلتها، ولو كانت مارينا فقد كانت شاردة الذهن من أدوية المضادات الحيوية التي قد كتبها لها الطبيب، ومتكئة على السرير تعاني سيلان أنفها، فكيف كانت ستفعلها؟ تسرق خاتم أمها أم تنتبه لمرضها، وكانت أمها في ذاك الحين تحتفظ به في صندوق خشبي به أساور من الذهب، وما جري يزرع الشك بنفوس سكان البيت الواسع الشاهق، بيتهم الذي يقبع في إحدى عمارات منطقة زيزينيا، لم يشهد حدثًا يوقظ خوفهم ببعضهم.

فسألها القس:

– "حينما رجع عمك هل رجع إلى بيته أم بيتكم للاحتفال بعيد ميلاد أبيكِ؟".

– "جلس معنا عدة دقائق ورحل، حتى إنه قضم قطعة من الجاتوه وشرب كأسًا من النبيذ ورحل".

– "عجيب!!".

– "جميعنا أيضًا تعجبنا من ذلك، أشود كاد يبكي وأخذ يدبدب بالأرض ليبقى لوقت آخر، كيف له أن يترك عمله ويحضر ابنه في وقت قياسي ويغادر أيضًا دون الجلوس معنا، لكن لا يوجد دليل ملموس على أن السارق هو عمي! فلاحتفال كان لأسرتنا فقط، ولم يدعُ أبي أحدًا من أصدقائه، واحتفلنا في جو من الهدوء والبهجة، لكن بعد أن فتحت أمي الصندوق وفحصته لم تجد الخاتم!".

– "ماذا عن الذهب؟".

– "كان كل شيء في مكانه، الذهب والصندوق، ليس صغيرًا بل إن وزنه يتعدى العشرة كيلوجرامات، من كثرة الأحجار الكريمة والمعادن التي به، وأمي تعلم كل صغيرة وكبيرة، ودبة النملة تسمعها، فما بالك باختفاء شيء من مقتنياتها!".

– "ولماذا اتهم أبوكِ أخاه بكل سهولة. ألا تظنين أن الأمر يستوجب التفكير مليًّا؟".

– "أبي لديه أزمة ثقة في كل شيء، وهذا ليس مستبعدًا عنه، فهو يشك بكل من حوله، وفي عمله أيضًا، ورجل حاد الطبع غليظ القلب، ربما شعر ببعض الندم كونه أخاه من لحمه ودمه؟".

– "وماذا عنك؟ ألم يشكوا فيكِ وفي أخواتك؟".

صمتت تالار ثم قالت بنبرة من الاستياء: "لم نسلم من اتهاماتها أنا وأخواتي، وفتشوا البيت، حتى إن أبي كان على وشك تبليغ الشرطة!".

– "ولماذا لم يفعل ذلك؟".

– "أرادوا أن ينتهي الأمر بدون تشويش، وها قد كان، لكن التشويش استمر لعراك أبي وعمي وتبادل الاتهامات، هذا شرخ علاقتهما المنسجمة، وكسر أخويتهما وصارا لا يتكلمان، ولا يرسل أحد منهما رسالة أو سلامًا، ثم سافر بعدها عمي وانتهى بالفراق الأبدي، أنا آمل أن يرجعا مثل السابق، (يحرق أبو هذا الخاتم)، هل سينقطع الأكسجين من حياتنا بدون خواتم؟ هل ستبور الأراضي ويذبل كل الزرع ولا نأكل بسبب الخواتم؟".

– "لا تقفي في صفهم مهما حدث وانتهجي العدل الذي نصح به المسيح.. (مَنِ اتَّبَعَ الْعَدْلَ وَالرَّحْمَةَ يَلْقَى الْحَيَاةَ وَالْحَقَّ وَالْمَجْدَ). لأن الرب يحب العدل ولا يتخلى عنكم، وعمك رجل صالح لم تثبت السرقة عليه فهو آمن وإذا أشار العالم نحوه زورًا فهذا بغض الأمر وبغض الفعل".

– "سأفعل".

كانت تقف أمها تنتظرها في باحة الكنيسة الفضفاضة، وعند خروجها أقبلت قائلة بنبرة من اللؤم: "وهذه المرة الثانية التي تطلبين فيها خلوة مع القسيس، ألا ترين أن حياتك ليست مليئة بذاك الصخب؟!".

– "أمي، لقد كبرت، لست تالار الصغيرة التي ترضعينها، أحتاج دائمًا إلى شخص لا أعرفه للتحدث إليه، وهذا ليس قسًّا عاديًّا، إنه الأب شنودة هو من رباني، أنسيتِ؟ لقد كبرت في أروقة هذه الكنيسة مثلما كبرت في البيت، هذا الرجل

الذي تتوجسين منه هو من ذهب معي في المدرسة الثانوية للتقديم، لم تأتِ أنتِ ولا حتى أبي!".

– "تالار، أنا أمك، كنتِ تتكلمين معه فيما يخص عمك، أليس كذلك؟".

– "نعم، ما الجريمة التي ارتكبتها الآن؟".

جزت أمها بسخط قائلة: "ألا تعلمين أن هذه الحادثة تعد سرًّا من أسرار العائلة؟ كيف تجرؤين؟".

– "لا يوجد سر يدوم يا أمي، عمي الآن في أرمينيا والأمر انتهى، ما يحزنني رحيله وفيه أثر سيئ نحونا".

تخزنت مشاعر الأسى بالأم التي كانت لا تريد من أي شخص خارج العائلة معرفة الحادثة، ففي تقاليد العائلة عدم إباحة السر والتحلي بالتعقل في أكحل الأمور.

كانت مارال ومارينا واقفتَين يتباحثان مع نور وهذا شاب من كورال الكنيسة، حيث إن الفتاتين أصحاب صوت عَذْب كأنغام القيثارة.

– "هيا بنا".

ردت مارال قائلة: "ماذا بك؟".

– "أنا قلت هيا... وإلا سأذهب بمفردي!".

وعندما خرجت وجدت الشاب الذي كان في الأتيليه (محل الفساتين)، إنه عادل ابن صاحب العمارة الثري، ما الذي أتى به إلى هنا؟ هل أتى ليصلي هنا أيضًا

بعد شعوره بأن الصلاة بالمسجد ليس لها قبول روحاني وانقطعت نفحات القداسة بها؟ أم لماذا حقًّا هو هنا؟ دارت رأس تالار مثل عجل السيارة، وتمالكت بعد أن لاحظته يقبل عليها...

– "مساء الخير".

تسمرت مكانها وتمتمت ماذا أفعل، لا أستطيع النظر في عينه المغرية، ثم تشجعت وقالت: "أنت الذي كان ف...".

– "بشحمه ولحمه هو، الحقيقة إنني هنا لزيارة الكنيسة، أحب حضور القداس وسماع الترانيم، يضيف ذلك لروحي قوامًا".

– "رائع، وهل تأتي باستمرار؟".

– "الأمر يعتمد على سجيتي، عندما أشعر بالهم آتي لهنا".

تمتمت قائلة: "امم.. إنني أشم رائحة الكذب، فلديّ حاسة تجعلني أشمها من على بعد مدينتين يفصلهم المحيط! دعيه يكمل".

– "احم، عفوًا ما اسمك؟".

– "تالار.. وأنت".

– "عادل".

هبطت الأم كهابط ببرشوت وقالت:

– "لم تعرّفينا!".

قالت بارتباك وهي تومئ بإصبعها المطلي بطلاء الأظافر: "هذا أستاذ...".

– "عادل يا هانم.. أهذه أختك؟".

– "لا، أمي!".

– "أيعقل؟ حسبتها في سنك، لا تؤاخذيني، فحضرتك تبدين صغيرة جدًّا".

– "هذا من ذوقك، أخواتك ينتظران السائق في الخارج، هل ستأتين معنا؟".

– "سألحقك".

– "لا تتأخري".

مد يده ليصافحها قائلًا:

– "سعيد جدًّا بأنني رأيتك، كانت فرصة جميلة جدًّا، وتقابلنا أين! في هذا المكان.. فهذا بالطبع من حظي، لقد دعت لي أمي صباحًا قبل أن أنزل، قالت (ربنا يوقف لك ولاد الحلال)، وها أنا أقف أمامك".

ضحكت ثم قالت بخجل يصطدم بغرورها: "سأستأذن لألحقهم".

– "ألن أراكِ مرة أخرى؟".

– "حث أمك على الدعاء بأن تقابل أولاد الحلال مرة أخرى وستجدني".. ثم أدارت له ظهرها وابتعدت.

أحست تالار أن هذا الشاب يريد التقرب منها، فليس من المعتاد تواجد رجل مسلم في الكنيسة! غير أن القصة التي رواها تُحكى لتلاميذ في المدرسة وليس لشابة يافعة!

رأت بعينيها لهفة ولمعان وبوادر إعجاب، أقلقتها وأخفضت ضغطها غير المتزن، ومن جانبه لزمه التفكير، حيث أنه خطط جيدًا لهذه المقابلة، فعند التحدث عن امرأة أرمينية، بالطبع ستزور الكنيسة! وليست أي كنيسة، فإن الجالية هنا بعضهم متمسك بأرمينيته إلى حد بناء كنائس ومدارس ونوادي خاصة، فتواجدها في هذه الكنيسة أمر محتمل بنسبة تتجاوز التسعين بالمائة، دون السؤال عن خلفيتها أو حتى مغازلة الفرنسية وزوجها لإعطائه مكانها، كان لا يعرف ماذا يفعل، فأول تارة رآها في محل الفساتين وقع بعينيه البنيتين على طلتها الساحرة، رآها ملكة كالملكة فوزية، أو ربما كليوباترا التي امتازت بقوقازية خلابة، راح يدعبس بأفكاره كيف سيخطط للمقابلة الثانية، يا ترى ما المكان الذي من المتوقع أن تكون فيه؟ وهل من جانبها ستقبله أم ستنفر؟

***

في صباح باكر يعلوا زعيق وشهيق وزفير البحارة في مكانهم المفضل سوق السمك، عبق زفر السمك بهواء المكان ليكمم الأنفاس، وطاولات السمك مصفوفة كطابور يباع منهن والبعض يبقى على حاله، ترتشف خياشيم الأسماك الماء لتبقى يقظة وطازجة، ويعرض منها بسعر الطاولة في السوق ليحملها الشاري ويرتزق بفارق السعر، وأخرى تذهب للمطاعم والفنادق، كائنات من البحر بها منافع، احتفى بها الإنسان واستغلها فاغتر بها واختلت طبيعة الأرض، فانقرض بعضها وبقي من بقي يزاحم المحيطات والبحار للبقاء، ويحضر "معلمين" السمك لنيل حظ من الخير الخارج من البحر، منهم من يختزن المال بجيبه جاهز بضرب

الرزم على الطاولة وحمل ما يتعلق بتواجده في "حلقة السمك"، وآخر تاجر بسيط يكتفي بشراء ما يكفل قوت يومه، وعند السؤال عن أكبر سمكة قد تراها تجاوب بقول "الحوت" وهناك حيتان في ذلك السوق يمتلكون مراكب ويصطادون بالأطنان، لهم عشرات الرجال، من ضن هذه الحيتان المنتشرة بالسوق، "سعد"، الرجل غليظ الطبع وحاد الهيبة كخط الصعيد أو كبطل خارق له سمعة في عالم هوليود يتمشى بحذاء بوت ذي رقبة طويلة، وبيده سبحة يسبح تسبيحًا كثيرًا.

نادى أحد رجاله فأقبل عليه رجل أفطس الأنف، تتدلى الدهون من جانبيه، وبين أصابعه سيجارة، ومبتل ببقع من المياه على ملابسه:

– "العدد اليوم عشرون طاولة، ثلاثة من الكابوريا المبطرخ، وأربعة من الإستاكوزا، ثلاثة عشر من السردين".

تابع قائلًا: "ما شاء الله"، فقبّل يده وجهًا وظهرًا حامدًا الله.. "أريدها أن تباع اليوم، لا أريد وضع شيء بالثلاجة".

فهز رأسه مستجيبًا ثم قال: "هناك زبائن يريدونك".

قال بعد أن صمت:

– "أحبابنا؟".

– "نعم الأحباب".

– "اجعلهم يتبعوني في الغرفة.. الغرفة هاه!".

– "أمرك يا معلم".

هؤلاء الزبائن الذين تكلم عنهم هم الذين قابلهم في وسط البحر على ما يبدو، قد أتوا له بخبر مفرح هو الذي غير طوره هكذا.

في غرفة مغلقة بسلاسل من الجنازير المتينة، ومحكمة بقفل غليظ، فتح بابها سعد ووضع أربعة كراسي قبل أن يأتوا.

– "يا مرحبًا يا مرحبًا بالأحباب، كان عليكم أن تعطوني رنة فقط وسأجهز الأنفوشي جلها لاستقبالكم، حلقة السمك تلألأت والسمك يرقص والمرسي أبو العباس".

قال واحد منهم، وهو رأفت، شاب يعمل بتجارة السمك منذ العاشرة، وحياته بالبحر كالقارب، يعمل ليلًا ونهارًا ظهرًا وعصرًا، داهٍ بخفايا المياه المالحة، ذو لحية كثيفة، عينيه ملونة كعين الغجر".

– "شكرًا يا سعد، أنت تعلم أن لا الوقت ولا المكان مناسبان للحديث".

– "احم، لا، من الذي قال ذلك؟ المكان مكانكم". ثم بدأ بالنداء "يا إبراهيم، يا إبراهيم".

فحضر ذاك الرجل الذي أخبره بصيد اليوم:

– "الشاي، وأكثِر من السكر.. انتظر أعتقد أننا لا نرغب، فضيوفنا هم السكر كله".

ظن سعد أن هذه المزحة سترطب حرارة الغرفة وتزيل رائحة السمك، لكنها عكرت صفوهم وتبددت ملامحهم، وعبسوا يكشرون، يتطلعون ببعضهم..

فأشار سعد لإبراهيم برأسه ليختفي الآن من أمامه..

– "ما الأمر؟".

وبدون مقدمة الكلام، أدخل رجل منهم يده بجيبه وأخرج رزمًا ضخمة من المال وقال: "هذا حقك يا سعد، القطعة التي سلمتها كانت غالية، والخواجة القبرصي قد أعطى لها سعرًا محترمًا".

جحظت عين سعد ثم قال:

– "ما شاء الله، اللهم صلّ على سيدنا النبي، ما هذا كله؟ كل هذا من قطعة واحدة! لا لا من الآن اعتبروا أنني من موردیکم".

تدخل رجل رفض الجلوس، وهو أحمد الحاتي، يعمل بالتهريب ويتخفى ببذلته العسكرية كضابط بحري متقاعد، فصل من عمله لكثرة قضايا فساده قال وهو يلكز على الحائط: "وهل تقدر على الرفض يا هذا؟".

انتصب سعد منتقدًا ثائرًا:

– "لماذا تتكلم هكذا يا حرامي؟ هل نسيت نفسك؟ تأدب.. ألا تعلم مع من تتكلم؟".

وقف بينهم رأفت قائلًا بهدوء: "هذا ليس مكانًا للخناق، اصمتا أنتم الاثنان!".

كان عليه فعلًا الانتفاض، لأجل كرامته أولًا وثانيًا ليس من طبعه السكوت والمصلحة بينهم مشتركة، ولا أحد يقدر على الاستغناء عن الآخر، فأركانهم يجب أن تكون مكتملة.

قال سعد:

– "هذا من أجلك، ولكن إن تكررت سوف يكون هناك كلام آخر".

أردف عاطف:

– "معك حق يا سعد، لماذا تكلمت هكذا يا أحمد؟ إلا سعد، فهو أخ كبير ويجب أن تنتبه لكلامك".

أحس سعد برجولته وقوته بعد ذاك المدح، وعدل ياقة القميص الذي يرتديه في ثقة وكأنه يرتدي بذله زفاف والحضور يصفقون له.

– "أكرمك الله يا عاطف" قالها ثم أخرج مسحوقا ابيض واستنشقه وهمد كذبيحة ثم تابع.. "أنا حقًّا أتعب حتى أوصل لكم هذه الحاجة، فعبورها من الميناء أمر صعب، هذه المنطقة عسكرية، أنتم صيادين وتفهمون أكثر مني!".

تابع عاطف الذي يبشر وجهه بالبهجة حين النظر إليه: "ولهذا أنت معنا واخترناك بالأخص لتلك المهمة، رجل شهم همام لديه نفوذ في الميناء وله رجاله".

قال سعد مازحًا:

– "يا خوفي من الغرور".

قال أحمد الحاتي مستهزئًا وهو يسلك أسنانه الصفراء بعود ثقاب: "هذا يحسب نفسه أحمد السقا لأنه مرر لنا قطعة.. ما بالكم إن مرر المزيد!".. ثم تأفف "سأخرج من هنا، سأختنق من الرائحة".

خرج من الغرفة وهو يغمغم.

قال سعد:

– "لا أطيق هذا الرجل!".

وضع رأفت كفه على فخذ سعد قائلًا:

– "دعك منه.. المهم هناك مهمة أخرى نريدك بها".

ازدرد سعد ريقه:

– "جولة أخرى ماذا؟ لا، نتريث قليلًا".

علق عاطف:

– "أنت قلق أم ماذا؟".

– "لا، فعندما تقابلنا في البحر وتركت الرجال كان الأمر غريبًا جدًّا وبدأ الشك يراودهم.. وعلت الأصوات أين ذاهب؟ هل ستتأخر؟ أمر يزيد الريبة، فإننا والميناء به عيون وقد يكون منهم الأمنجي".

– "ولهذا غيرنا خط السير، سوف تأتي لنا بمفردك. أما عن البضاعة ستكون قطعة عمرها ثلاثة آلاف سنة، طفل صغير، لكن عمره وسعره غالٍ".

– "فليبارك الله فيه. لا تقلقوا، سنعمل له "سبوع" يُحكى عنه من (أبو قير) إلى (المنشية)".

دنا منه رأفت ثم قال بحذر:

– "ولهذا سيكون هناك طفل في المهمة".

– "طفل؟".

– "نعم طفل. هذا الطفل ستقابله في مزلقان باكوس عند شريط التورماي، سيسلم لك حقيبة سوداء، ستأخذها منه وتمشي على قدميك إلى البحر، وسيأخذ أحمد الحاتي منك الحقيبة".

قطب سعد قائلًا: "ولماذا لا يأخذ أحد آخر هذه الحقيبة منه؟ أنا أرى أنني بلا فائدة، أنتم الثلاثة لماذا لا يغطي أحد منكم ويذهب لمقابلة الطفل؟".

جلس عاطف بجواره قائلًا: "لا نستطيع؛ كل واحد منا له مهمة محددة".

– "أين ستكونون؟".

– "ليس من شأنك.. نحن نريد رجلًا يأخذ القطعة من الولد ويرحل فقط لا غير، ثم إن رأفت لم يكمل...".

أردف رأفت:

– "بعد أن تأخذ الحقيبة وتعطها لنا، سيتوجب عليك مقابلة رجل آخر في (أبو تلات)، وتعطي له الكيس الآخر".

– "الحقيبة بها قطعتان؟".

– "نعم، واحدة أصلية والأخرى مزورة".

– "ومن الذي سأقابله؟".

– "عاطف".

– "إذًا سآخذ حقيبة بها كيسان من الولد؟".

– "حقيبة بها كيس، ستسلم الحقيبة وتُخرج الكيس لتذهب به إلى (أبو تلات)، وإياك أن تظهر الأكياس أمام الأعين!".

– "وبعد ذلك؟".

– "عند قدومك لـ(أبو تلات) سيأتي لك قارب ويأخذك من هناك وترجع".

– "لماذا لا أرجع بالسيارة؟".

– "من المتوقع أن يكون هناك كمين للشرطة، وهذه منطقة ملغمة بالأمن".

تعجب سعد قائلًا:

– "وهل سأذهب بطائرة؟ سوف أذهب بسيارة".

قال رأفت وهو يحك رأسه متمعنًا:

– "سوف تمشي إلى هناك".

– "ماذا؟ هل تمزح؟ سوف أمشي من (البحر) إلى (أبو تلات) مشيًا على الأقدام! اسمع، أنا رجل كبير، لديّ انزلاق في الغضروف لا أقوى على هذه المشقة!".

قاطعه عاطف: "لا، ستأخذ سيارة أجرى تابعة لنا، ستصل قبل أي كمين، من المتوقع أن تقابل وتأخذها مشيًا إلى (أبو تلات)، ربما المسافة المقدرة ثلاثة إلى أربعة كيلومترات".

– "لديّ مقترح أفضل.. لماذا لا آخذ الحاجة من الطفل وأسلم الكيس الأول وأرحل، وترسلوا رجلًا آخر يقوم بتلك المهمة؟ أتعلمون كم المسافة والجهد الذي سأبذله؟".

– "إنها مسافة ليست ثقيلة عليك، ولن تشعر بها، ضع بقدمك حذاء مريح أو شيئًا بمفاصلك وقبعة تَقيقك من الشمس".

قال سعد مستاءً بقلة حيلة وأدرك أنه قد تورط:

– "كنت في البداية تجاملني وترمي مدحًا".

قهقه عاطف ثم قال: "إنه جمال البدايات كما يقولون.. ما رأيك؟".

– "أمري لله.. إذا كان به "الجني" سأكون جني".

– "أنت حقًا رائع يا سعد.. ونحن سنتابع معك في كل خطوة وحركة وسنراقبك".

– "لكن هناك أمر ما".

– "ما الأمر؟".

– "إن أمسكت الحكومة بي ماذا أفعل؟".

قال رأفت في صدمة: "ابصق من فمك يا رجل.. سيكون كل شيء على ما يرام، لقد فعلتها قبل ذلك كثيرًا، والقطعة هذه المرة ليست من طرفك، إنها منا نحن، فقط أنت ستشارك".

– "هناك أمر أود إعلامكم به، الثمن سيطفو مثل البحر".

رد رأفت: "بلا شروط".

وفي هذه الأثناء اقتحم إبراهيم وهو ينزف دمًا من رأسه ويلهث بصوت مبحوح: "انجدونا!! هناك زبائن أخذوا طاولات السمك وفرّوا هاربين دون الدفع".

– "يا أولاد الكلب.. أين هم؟".

– "أخذو سيارة الطاولات وبقي منهم يتعارك بالخارج، معهم سكاكين ومطاوٍ وفتحوا رأس فلفل ابن لوزة البائعة".

جثا سعد على الأرض وفتح دولابًا كان مختفيًا، وأخرج (طبنجة)، وجرى مسرعًا هو ورأفت وعاطف خلفه، فوجد هرجًا ومرجًا وأصواتًا تعلو وكراسي تحدف وتقذف كالصواريخ، فضرب بمسدسه طلقة بالهواء، لكن بلا فائدة! فالرجال كانوا كالبهائم يوسعون بعضهم ضربًا، حتى إنه لم يحدد مَن صاحب هذا الصخب! فأشار له إبراهيم إلى ثلاثة رجال معهم سكاكين يشوحون بوجوه البائعين، وهم أيضًا يحاولون الإمساك بهم، لكن بلا جدوى، لكن ظهر أحمد الحاتي

كالعفاريت، من أين وكيف؟ المهم أنه أمسك برجل منهم بعد أن عرقله بغفلة، ثم قبض على يد رجل آخر بحركة تنم على دراوته بفنون القتال، والثالث استسلم مهزومًا وهو يئن من العصيان التي دغدغت عظامه.

قرفصوهم على الأرض مع وابل من التوبيخ، كان كل من في حلقة السمك تقريبًا متجمهرين حولهم.

– "من الذي أرسلك يا ابن القحبة؟ هل أنتم مع أحد آخر أم أنها حركات صبيانية غير مدروسة؟! انطقوا".

اعتقد سعد أنه سيظفر بإجابة فورية، لكن يبدو أنهم يريدون الشعور ببعض الألم، فصاح بإبراهيم قائلًا: "هات إبرة الغزل" وهي أداة تستخدم في معالجة الشباك، ثم شك عنقود إصبع أحدهم، وبدأ بالضغط، وتعالت الآهات والصراخ أكثر، فنطق الشاب قائلًا:

– "هناك رجل أعطى لنا أموالًا لنفعل ذلك، رجل مرسل من رجل اسمه محمد!".

قال سعد تلقائيًّا: "محمد الزنانيري؟".

– "لا أعلم ما اسمه! لكن هذا ما نعرفه".

– "وما مواصفات هذا الرجل؟ وهل هو صياد أم ماذا يعمل؟".

رد آخر كان وجهه منتفخًا كالبالون ويتقطر دمًا من حاجبه: "لا نعلم عنه شيئًا غير أنه كان من العرب، ملابسه أوحت بذلك ولكنته".

صاح به رأفت:

– "هل تعرف هذا الرجل؟ وأين تقابلتم؟".

– "تقابلنا في عزبة القمر، وأعطى لنا الأموال ورحل".

قال سعد مستشاطًا كالكبريت: "ستندمون شر ندم، هذه الحركات ليست على سعد ريس البحر كله، وسكاكين ومطاوٍ، هذا لعب! كنت سأرديكم قتلى وأضع رصاصة بمخ كل واحد منكم، لكن القدر أنقذكم".

تابع أحمد الحاتي:

– "هل تسلمهم للشرطة؟ لا لا ربما علينا التخلص منهم".

بدأ اثنان يبكيان، يحلفان ويقسمان طالبين العفو والسماح، والثالث بدا ثابتًا متزنًا، سأله سعد: "وأنت قل لي، من سرق طاولات السمك وفر بالعربة؟".

– "إنه منعم، كان معنا لكننا لم نلحق عندما كشف أمرنا، اضطررنا للمقاومة اما هو نفد بجلده".

ابتسم سعد قائلًا: "منعم سيأكل أشهى أنواع السمك اليوم، وطازج ما زال بروحه".

رمق إبراهيم ورجاله بنظرات حادة قائلًا: "أربعة! أربعة خنازير يفعلون بكم هكذا؟ اذهبوا واجلسوا في بيوتكم بدلًا من زوجاتكم، أو اجعلوهم يضاجعونكم، يا لكم من نساء ينقصكم صدر ومؤخرة".

همس سعد لنفسه قائلًا: "هؤلاء رجالك يا رجل، ماذا حدث!"رجال؟ أين هم الرجال؟

ثم تطلع للمضروبين. اما انتم!! لنرقص سويا.

– خذوهم إلى الثلاجة!".

وعلت صوت توسلاتهم واستغاثتهم فسيرن أياما كاحله فالأمر ليس سرقة، إنها مطرقة ضربت سمعة سعد في السوق، وسينتشر الخبر بالميناء.. وضع سبحته بجيبه وفكر من هو؟ ولم يستبعد محمد الزنانيري، فقد علم عليه وفعل به أمرًا خسيسًا فليس مستبعدًا الانتقام. أخد يدبر كيف سيوقع به، يوقعه بكمين أم يصبر حينما يتأكد أنه هو أم لا؟ إن المعلم سعد قاسٍ كالحمم، لكنه يبرد ليكون يابسًا، ثم أمسك قارورة وسكب الماء على جرح إبراهيم لينظفه، ثم عدّ بضع أوراق من فئة المئة جنيه ووضعهم بجيبه قائلًا: "هذه للأولاد". كان ينتظره الثلاثة، أحمد وعاطف ورأفت، فأعطى له رأفت التعليمات بشكل نهائي، ودهاليز الطرق، واستقرأ سعد من ناحية احتمال عدم النجاة.

فقد سبق أنه كان على وشك الوقوع بجعبة الحكومة في أمر مشابه، ليست آثار، كانت أعمال مزورة، وبعدها تاب وناشد ربه، ومكث يعتكف بمسجد القائد إبراهيم رمضانين على التوالي، والشطان دائمًا يهزم البشر، فأول من هزم من مخلوقات الله كان آدم، فهزم سعد ولجأ لكسب المال والطمع بالحرام، وشتان ما بين إيمانه وشيطانه.

الفصل الرابع

صندوق خشبي يخرج أنغامًا وألحانًا به أسلاك معقدة، تعلوه طبقة من النحاس، به أسطوانة تلف بلا توقف، ترنيمة مشغلة بأسطوانة فونوغراف تحتوي بصفائها وعذوبة إيقاعها بيت العائلة فاحشة الثراء، فقد تعودت مريم أم البيت تشغيلها كل صباح، وتدندن معها ألحانها "يسوع يا ابن مريم أنت شفيعي، ساعدني بنورك وافتح قلبك ليا، بيك اهتديت الصلاح وبالإخلاص أنا ديمًا معاك ترويني، ترويني بقوتك وبفضل رحمتك هكون بملكوتك وجنبك، خليك جنبي واغفرلي ذنبي وأصلح لي حالي وهمي".

فكانت الأم تحب تلك الترنيمة إلى حد يجعلها تعمل لأوقات طويلة، هذه الترنيمة اجتهاد من بيت العائلة الأرمينية، وهي جمعية لها نشاط ثقافي، وقد ألفها مجموعة من الشباب المسيحي المحب.

انتقالًا لما يفعله أفراد الأسرة، فكان الاثنان بغرفتهما، والأم وتالار بالمطبخ يحضران "المانتي"، وهو عجين مدفوس به لحم وارز مفروم ممتزج بـخلطة من

التوابل والبهارات، مع الحرص على طهي الأرز بعناية، فهذه المهمة توكل دائمًا إلى تالار، تحاصر الأرز حتى الاستواء كأنه سجين عليه أحكام جنائية مشددة.

يوجد بالمطبخ فرن لعمل المخبوزات تستعمله الأم حينما تقرر، وبالمطبخ ايضا كافة أنواع الأدوات اللازمة لإخراج وجبات كونت لحم وعظم بناتها، بيديها ملعقة من الخشب تقلب الأرز من الحين والآخر، لكن هذه المرة غفلت عنه تالار ليحترق، وتستقبل الإهانات من أمها، وانتشرت رائحة شياط الأرز المحترق.

– "ألم أقل لك راقبي الأرز جيدًا؟ يا لكِ من مهملة! ماذا جرى؟".

– "لا شيء، أنا فقط كنت أنتبه للكتاب فسرحت".

– "الأمر ليس كذلك، أنت لست على ما يرام منذ أن كنا بالكنيسة، هل الشاب الذي قابلته هو السبب؟".

– "أمي، ما الذي تقولينه! أنت تلاحظين أشياء لا أساس لها".

كانت معهما زينب، وهي فتاة ريفية تخدم بالمنزل لكبره واتساعه، فتاة في السابعة عشر، ذات ملامح صعيدية تستيقظ كل نهار لتنظيف البيت ثم تتلقى التعليمات من سيدتها "مريم" لاستكمال عملها بأي اتجاه قالت.

– "هل أكمل مكانها سيدتي؟".

– "أمسكي وأنت اخرجي".

– "يا أمي، لقد سهوت! جلّ من لا يسهو".

– "بالخارج وليس هنا، هل تود البقاء بعد أن حرقتِ لي قدر الأرز كله، يا رب ثبتني على ما ابتليت".

بعد أن رأت تالار خبرًا بصحيفة الوفد يفيد بأن محمد نجيب رهن الاعتقال تساءلت، ما سر عدم رضى مجلس الثورة عنه رغم تفانيه وإخلاصه بعمله وحبه الجم لوطنه، وخوضه حروبًا بالسودان لإبطال حركات التمرد السودانية، ومشاركته في حرب فلسطين وموقفه ضد الإنجليز؟

وقالت موجهة كلامها لأبيها الذي كان يجلس مقابلًا لها ويسمع قراءتها للخبر:

– لا أشعر بمحمد نجيب مسؤولًا! منذ تعيينه تشعر أنه مثل البالون.

قابلها أبوها برأي ذكي:

– منذ تولي نجيب مقاصد الحكم وهو بخلاف مع مجلس قيادة الثورة، ماذا تتوقعين؟ وهل بقي محمد نجيب لتحكم عليه، إنها مؤامرة، فليتركوا الرجل.

قالت تالار مازحةً:

– ربما كان شكله لا يروق لجمال، القرارات العليا كانت تؤخذ منه ورفاقه، الرجل الذي يطلق آلاف الخطابات والأحاديث الثورية عن العرب والقومية.. أكل بعقل الناس حلاوة مثل ما يقولون، وقال أنا أولى بمنصب الحاكم، آاه نسيت، لا تنسَ هو من ألقى خطابًا علنيًّا أمر له الملك بالتنحي، بمعنى أنه يجب أن يكون له دور مهم وقيادي في المرحلة الحالية.

وقالت أمها ممسكة بأطباق الطعام:

– ماذا حدث؟ أوقفوا ذاك الصخب ودعونا نأكل.

– ليس لديّ نفس لأي شيء، وضع البلد ينذر بكارثة!

– تفاءل وتمالك.

– إلى متى سأتمالك ؟وهل البلد ستتمالك؟ وهل جميعنا ستتمالك؟ والجاليات المختلفة التي تعيش هنا، القومية والعروبة كلها أسهم بجسد نسيج الوطن المختلط بين أعراق وأجناس وأمم مختلفة، فمصر تأوي الكثير يا مريم.

ثم قاطعت مارال الكلام:

– لن نبرح هذا البلد أبدًا وإن كان هناك مليون عبد الناصر!

– هذا ليس وقت الشعارات، الطوفان حينما يأتي يشطب الكل، أما عن الأرض فالأرض أرض الله ووسعها يسعنا ويسع غيرنا.

تساءلت مارينا بصوت متحمس: "لماذا كل هذا الكلام عن فقرة إخبارية بالجريدة، ألا تلاحظون أن الوقت للأكل وليس لغيره لنأكل بدلًا من الخوف من تحركات الساسة والعسكريين. كلو".

استقرت أجسادهم حول المنضدة الخشبية، وهبش هاروت صدر فرخ وأكله، وكأنه لم يأكل منذ قرن، لتتعجب زوجته وبناته ينظرن لبعضهن بابتسامة عفوية.

قال وهو يلوك: "الذي سمعتموه في الراديو البارحة أيضًا ليس مجرد خبر عادي، الأحداث ترتبط بسياسة البلد المالية والإدارية أيضًا وهذا إن دققنا به سيؤثر على شركتي وأعمالي الخاصة، وزعيم تلك السياسية هو جمال هذا الذي يتغنى

بالاشتراكية السوفيتية، إنه يرى أن البلد عبارة عن قطعة ارض يجب أن يحظى الجميع بجزء منها بالتساوي".

– "ولمَ لا يا أبي؟ هذا هو العدل" قالتها مارال أصغرهم سنًّا وملاحظة أيضًا.

– "لا يا بنيتي، العالم به الأعلى والأدني، هكذا خلقنا الله، سأذكر لك مثالًا" ترك الأكل من يده ونظر لابنته التي بدت مهتمة، "هناك شركة بها عمال وموظفون وإداريون، هل أستطيع أن أعطي كل واحد منهم نفس الأجر؟ بالتأكيد لا، لماذا؟ لأن مجهودهم مختلف وأهميتهم مختلفة، ويؤسفني إنه ينتظر من البعض تحويل المال الخاص إلى عام، بمعنى أن كل الشركات التي يملكها رجال أعمال هي ملك للدولة!".

أبدت تالار رأيها:

– وهذا يعني أن شركتك تحت هذا النظام يا أبي؟

– كل من يملك مليمًا أو عقارًا او أي شيء، هذه هي الاشتراكية الذي يتردد صداها ويمتدحها جمال عبد الناصر، وأخشى يا بناتي أن تطبق وأن تطالني، لكني لديّ خطة!

– ماذا ستفعل؟

– قد أنقل الشركة إلى إيطاليا، هناك قد أجد الملجأ والمكان الآمن إن شعرت بالخطر.

قالت مارينا: "حسنًا، أنت قلت إنك قد تتضرر من هذا النظام، ماذا عن الجاليات وأصحاب الجنسيات المختلفة؟ لماذا يرحلون، وما شأنهم أصلًا؟".

– لست على تأكيد برحيلهم، لكني أرى أن هذا البلاء الذي يدعى جمال قد يتحذلق بعسكريته وقوميته المبعثرة ويغرق البلد بحروب لا شأن للبلد بها، وهذا له تأثير على الجاليات، لأنهم بين جنسيتين، ايفضل هذا الذهاب للحرب أم الرجوع لبلده؟

– تقصد سياسة الحكومة قد تدفع الناس للهجرة، وبالطبع من يمتلك جنسية أخرى أو حتى ديانة ليست شائعة!

قال هاروت وقد ترك الأكل مرتديًا ثوب المحاضر:

– مثل اليهود.. الذين يسعون لإقامة دولة لهم، فأنا لديّ أصدقاء منهم غادر إلى أوروبا ومنها إلى إسرائيل!

سحبت مارال جزءًا من الحديث قائلةً:

– لكن البعض بقي.

رد هاروت:

– عليك كامل النور يا حلوتي الصغيرة، وهؤلاء قد يكونون مصدر تهديد لفكر جمال.

قالت زوجته وهي تمزق الدجاج لتوزعها على أطباقهن: "إنها محروسة، محروسة من الأعداء والغدارين والمتربصين، فهذا البلد مر عليه عشرات المحتلين وما زالت هويتها باقية وتدرس بكتب التاريخ والجغرافيا".

أردف هاروت بخطابه الذي طال.. لدي صديق عنده شركة تستورد الأخشاب وتصنع الأساس: "هذا الرجل جاء له إخطار من الحكومة بأن الحكومة تريد أن تشاركه بالتصنيع والربح سيكون بنسبة له ثلاثون بالمئة! غضب الرجل وثار وذهب لمكتب الضابط، وهو أحد القيادات البارزة، ووبخه لكنه فوجئ في اليوم التالي أن الكهرباء قد قطعت عن المصنع، فرجع وتوسل إليهم وقبل شروطهم الظالمة!

قالت تالار مبحلقة بوجه أبيها المتحمس:

– لكن هذا ليس عدلًا يا أبي، كيف لهم فعل ذلك؟ كل ما أعرفه أن المتضررين أكثر هم الفلاحون.

– كيف؟

– نظام الإقطاع واستصلاح الأراضي يقضي بتدخل الدولة بشكل موسع، لأن الأرض احتياج إنساني وضرورة قصوى بالنسبة للمحاصيل، ويعد أمنن قوميًّا، فإن قلنا إن الاشتراكية أو ما يعرف بها تضر المصانع مرتين، فإنها ستضر أصحاب الأراضي ثلاث أو أربع مرات، لأنهم ينتجون فاكهتنا وخضرواتنا وقمحنا الذي نأكل.

– سياسة الأولوية، هذا مثير جدًّا، وبالطبع سيتجه الإقطاع من الحكومة إلى الفلاح دون النظر لحاله.

– أجل.

– فليبارك الرب بك يا تالار، دراسة الفلسفة بَنَت لك رأيًا قويًّا، لكن المسألة ليس بها عدل، ماذا يعني أن أصادر منك أرضك؟

قالت مارينا بتأفف:

– هل نأكل؟ هاه؟

قال أبوها ضاحكًا: "ولماذا لا تأكلين؟ هل نمسك يدك؟".

بدؤوا يحشرون ما تشتهي بطونهم، ويمضغون بتمعن وتفانٍ حتى يهبط الأكل لأمعائهم المتصارعة.

وبعد الغداء، نزلن للشارع، كان خاليًا كعادته يفتقر مصدرًا للحياة، ربما عربات فقط تمر كل مدة، كن يركبن دراجاتهن، فطالما كنّ يفعلن هذا منذ طفولتهن، ويتسابقن في خلو الشارع الفضفاض، يلفنّ حول بعضهن بخفة وحركات عنفوان، وفي أثناء قيادة مارينا، اصطدمت بأختها تالار التي وقعت على كوعها وجرحت، لكنهن عدن للركوب ومواصلة هذا الماراثون، وكأن شيء لم يحدث. مرت سيارة وأطلق صاحبها البوق مرتين، ثم مرت نفس السيارة وفعل ذلك بنفس الطريقة، سيارة تمر وتطلق البوق، ما الغريب بالأمر! فهذا طبيعي، ربما ينبههن، وبخلو الشارع لم يلتفت له أحد، فكان كل منهن يلعب بدراجته، وقفت تلك السيارة فجأة ونزل منها شاب وسيم ودنا نحوهن بابتسامة عريضة.

"إنه عادل" قلتها تالار منفجرةً من التعجب، وتعجبا من تواجده!

– أليست تلك العربة!! هذه الذي مرت عدة مرات؟ لم ألاحظ غير البوق الذي أحدث ثقبًا بطبلة أذننا!

اقتربت مارال وقصفت بنبرة متعالية:

– سيارة جميلة يا هذا.. ثانية، ألست أنت الذي رأيناه بالكنيسة؟ يا للعجب!

– مارال من فضلك لماذا لا تكملي اللعب؟

قال عادل كالمذنب: أرى التعجب على وجهك! لكن أنا هنا صدفة.

– يا محاسن الصدف يا سيدي.

– أقسم لك إنني هنا بالصدفة، وأنها أول تارة أمشي بهذا الشارع!

– كفى حلفانًا.

دار حوار بين مارال ومارينا على مقربة منهم يوشوشون بعضهن.

قالت إحداهن: أليس هذا الشاب الذي كان بالكنيسة؟

– نعم هو.

– يبدو أنه معجب بها.

– إنه مغرم يا مارال، وليس معجب فقط! الحب وأفعاله!

يقفان في وسط الشارع وأمام بيت الأسرة، هذا الأمر استشعرت منه تالار بالإحراج الشديد، وفكرت هل تنهره على الفعلة أم تسمع منه، فربما عنده أمر، فدقات قلبها تتسارع عند رؤية هذا الشاب ذي العينين الخلابتين، والقامة المتناسقة.

– لا أريد أن أكون سخيفًا أكثر من ذلك بصراحة.

– أهم شيء الصراحة.

سكت وكأن لقمة وقفت بحلقة ثم تفوه باجتهاد صعب قائلًا:

– أنا معجب بكِ، في المحل كنتِ كالملاك، أو ربما أجمل! لأنني لم أرَ ملاكًا من قبل، نظراتك وسجيتك وأنت تختارين الفستان، شعرت بها وكأنك قطعتي المفقودة ونتفة من عقلي!

تسمرت تالار ووقعت الدراجة التي كانت ممسكة بها، ويلتقطها عادل وعينه لم تنزل من عليها.

قالت بعد استجماع: "انظر، الأمور لا تسير بتلك الطريقة، هل تعلم ما معنى حب يا ابن الناس؟ هناك أشياء كثيرة تبطل ذاك الشعور الذي بداخلك.

– ما هو؟

– الدين مثلًا! أنت مسلم، أليس كذلك؟

– بالفعل، والرسول تزوج ماريا القبطية رضي الله عنها وأرضاها.

أخذت نفسًا ثم قالت:

– هذا أيام الرسول، ثم إن الحب شيء والزواج شيء آخر.

– "بالتأكيد كان الرسول يحب ماريا قبل زواجها"، ثم أردف منتعشًا والتمس بها أمرًا: "ليكن زواجًا إذًا، أنا مستعد".

كان كلامه كالموج يهز رملها المتشابك، يتصل بوجدانها بطريقة ملحوظة، وصوت يوسوس لها يقول حطمي القفل الذي على قلبك!

ضحكت تالار ثم صوبت إصبعها بوجهه قائلةً:

– إني لا أعلم عن أسرتي، وحياة مريم العذراء أيضًا لا أعلم! فقد يرفضوا، لا أريد أن أكون مملة،

– أعدك سأكون ملهمك ولن نشعر بالملل.

– يا ابن الحلال.

– أفندم.

– تبدو لزجًا؟ أتعلم!

– لن نعرف بعضنا بعد، كي تحكمي!!

شعرت أن دوران الأرض قد توقف فمن الصعب إذابة تلك الكتلة الجليدية من على قلبها وتأففت ثم قالت:

– ارحل وتعال نتقابل في مكان آخر "مزلقان باكوس" ما رأيك الساعة الخامسة يوم السبت؟ لكن هذه المقابلة ليست موعدًا غراميًّا، فقط لأنك قد صعبت عليّ، وأنا أريد أن أنهي محاولاتك البهلوانية.

انتقد بلهفة:

– سأكون هناك من الفجر.

– ليس فجرًا، سنتقابل عند شروق الشمس. ربما التاسعة.

– نعم نسيت، لماذا مزلقان باكوس؟ أنا أعرف مطعمًا ممتازًا بجليم.

– المرأة هي من تحدد مكان أول مقابلة.

سرح عادل بها وقال بباله المسرور بعد أن نال فرصته "ربما مكان عزيز ذو شأن لها".

وعند مغادرته، أقبل إليها أخواتها يدور بهم وابل من غريزة الأنوثة المتطفلة:

– لا تقولي، لا، إنك قد وقعتِ! لا لا ليس معقولًا، تالار المرأة المثقفة ترتطم على وجهها هكذا!

– ما الذي تقولينه يا مارال، أنا نهرته ووبخته وقلت له ألا يأتي ويتتبعني ثانية.

قالت مارينا تتلوّن كالحرباء:

– مفهوم مفهوم، هذا واضح على وجهه الذي انقلب مزدهرًا وهو يرحل، كفي عن الكذب، ولأنني أختك أعرفك أكثر من ما أعرف حالي.

– الشاب وسيم، يا لحظك! لمَ لا تعطيني إياه؟

قالت تالار منرفزة بعد أن كُشف أمرها وتحطم ثقلها المعتاد: "أعيرك إياه؟ هل ترينه فردة شبشب؟ ها؟ سأحدفه ولا ينفعني بشيء".

– من وراء قلبك يا أبيض يا حلو، سأقول لأمك.

أمسكت تالار مارال من خصلتها المعقودة قائلةً:

– هل تعايريني أيتها الزيتونة الصغيرة؟ هل نسيت نشأت؟

قالت مارينا وكأنها صحت من غفوة:

– "نشأت من؟ أريد أن أعرف والعذراء، قولي لي لا تمزحي، نشأت جارنا الذي يسكن في عمارتنا؟" ثم شهقت منذهلة وقالت "يا بنت الإيه، هذا يكبرك بعمر!".

– أليس من حقي أراكم تفعلون ما تشاؤون.

– حقك بالطبع يا (بتاعت) نشأت.

لو وضعنا طابورا لمن يظفر بمكالمته ستتعارك الفتيات لأجله، فعادل ليس فقط ثريًّا، بل إنه من عائلة من جزر تركي، وعائلة رصينة بالنفوذ والتي صمدت كالجبل بوجه الحروب التي نشبت بأوروبا، وظلت أعمالهم ولم تنقص أموالهم صفرًا، ولها اسم ذو شنة ورنة، ويحترمها الكبير والصغير، وعلاقاتهم على مستوى عالٍ لكثرة حبالهم، وهذا يغري شهوات ورغبات أجمل نساء العالم، وأعتاهن منصبًا وعلوًّا، لكن تالار لم تعجب به كونه محملًا بالثراء، لقد جاب قلبها وترك باب عقلها المنشغل، واستنشقت رائحة صفائه وكم هو رجل نبيل ذو درب سديد، وأنه قد يكن ملائما للاعتماد عليه، ويشبه عمها التي تتخذه قدوة، والذي أحدث فارقا بحياتها، ومعلوم المرأة لها حواس أخرى، لا نعلم عنها شيئًا يمكنها استشعار أشياء لا يحسها العوام، كأنها كائنًا غير أرضي، حواس تشعر بماهية الرجل وكينونته وأصله وفصله، وبماذا كان وكيف سيكون! إنها ليست ساحرة ولا كائنًا خياليًّا، إنها ميزة من الله بقلبها الذي منحه لها، إنها قدرة على التنبؤ والتخيل والاستبصار. إنها المرأة!

الفصل الخامس

ما زالت الإسكندرية تخلق تاريخًا ملهمًا ويولد بها حضارة منتشيه، أما بحرها فهو علاج لشرود العقل، ويشفي -بمجرد التمشية- روح من يتألم ومن يعاني، وتشرف عليها الأجيال المتعاقبة، وتشهد العمائر والبنايات المختلطة بين الإيطالية واليونانية والإنجليزية، عراقة التاريخ وتنعش خيال المارة وتدغدغ نفوسهم المكلومة، وكأنها مدينة أوروبية على أرض الشرق الأوسط، والتماثيل المثبتة على جدران بعض الفلل والقصور والعمارات هي درب من دروب الخيال وعالم الأساطير، وحيث المحلات المملوكة لأجانب والعمالة الأوروبية التي تمتهن مهنًا مختلفة لاجئة من أوروبا، الدنيا هنا مختلفة؛ فطراز المعمار مخضر بالأشجار والنبات المختلف، والجو هادئ عكس صخب العاصمة، فالبحر يضيف بزرقته آخر قطعة من أحجية الجمال، وشوارعها المخططة منذ عصر البطالمة تخط بورق البردي أصالتها، وتحكي للبشرية أنها من توّجت ب "عروس البحر"، من أول قرار الإسكندر، عندما ردم البحر وشق الطرق لإقامة المدينة، وهلل الكوكب بنتاجه

وجهده وصفق له وأشاد الأباطرة والملوك، والمدن العريقة تباركت بالعروس الجديدة، وتفاخرت سفن البحر بأنها ستمكث بمينائها، وتحدث البحارة عن هذه المدينة وانشغلوا بها وقالوا إنها ستحدث فارقًا بالبحر وستكون منارة ونورًا، وكتب الباحثون، والفلاسفة، "إنها صفحة تضاف للعلم والمعرفة".

أي عبق هذا يجوب أذهان سكانها! وأي رحيق ونسيم ينتشر بسمائها كإكسير يمد الشباب شبابًا.

كان هاروت الأرميني شاهد على أكثر من ثلاثين عامًا من تطور المدينة العريقة منذ أن جاء مع والده في مطلع القرن العشرين هو وأخوه وأمه، وبنى رزقه مثلما بنى خير البلد عظامه وكساها لحمًا، وقضى بها ريعان شبابه حتى أحب مريم بنت الأكابر وتزوجا وأنجبا بناتهم الحسناوات، وكبرت معه ملامحه وابيضّ بعضا من شعره الأسود، ونالت مفاصله من سوء العمر جانب، وبات جسده هزيلًا ليس كما كان، لكنه هاروت المكافح ذو العرق الأرميني الصلب المتحدي رغم ما يصارعه، يعمل بكد وينزل جيئة وذهابًا للعمل بالصباح الباكر، أيًّا كانت الظروف أو الطقس لابد من العمل، حتى وإن كان مريضًا طريح الفراش، يلصق الهاتف ويباشر عمله بالاتصالات والرسائل، ويحب أيضًا أخذ مشورة زوجته مريم وأخذ رأيها، يقول دائمًا عليها إنها بركة لأنها وجه السعد عليه؛ ذكية وماهرة بإيجاد الحلول. أما عن فلذة كبده فهم أيضًا يشاركونه الآراء، بل إنه يتعامل معهن على أنهن صديقاته وليس بناته.

وفي إحدى ليالي الإسكندرية الباردة، كان يجلس بأحد البارات كما تعود بعد يوم عمل شاق شرب جسده بها رطوبة البحر، يرفع كأسًا من الويسكي الممزوج بنصف ليمونة كما يحب، متجاهلًا تعليمات الطبيب بعدم الإكثار من الخمور.

ولج البار راغب باشا وطلب هاروت من النادل نفس ما يشربه، فرفض راغب وطلب مشروبًا خاصًّا آخر.

– هل سمعت آخر الأخبار؟

رد وقد اثقل الخمر لسانه:

– أسمِعني.

– لقد احترق محل ديفيد في حريق القاهرة.

– وما الجديد؟ أعرف ذلك، هو من اتصل بي وأخبرني بما حدث له، ثم إن هذه الحادثة مر عليها الكثير.

اقترب نحوه راغب وقال بصوت خافت: "ليس محل ديفيد فقط من احترق بالواقعة، أغلب محال اليهود قد احترقت أو تدمرت نتيجة الانفجار!

حك هاروت عينه محاولًا تخفيف تأثير الكحول قليلًا ثم قال: "ماذا تقصد بذلك؟ وكيف أن أغلب محلات اليهود تدمرت دونًا عن غيرها؟ ثم إنها ليست فقط محلات بل سينمات وشركات كبرى، ومن دبر ذلك مجموعة متدربة!

– هذا معلوم، والجل يفهمه، لكن غير المنصف أن نأخذ الحادثة بشكل صحفي!

قال هاروت بملل لزم انتباهه:

– راغب باشا، لقد رحل الملك بمركبة واذيع بيان تسليم البلاد، وسلمها، وهذه الحادثة كانت قبل ذلك، وقالوا إن الجيش فعل ذلك لإضعاف الملك أمام الشعب، ما الفائدة من هذه الفلسفة الآن؟ يهود مسيحيين مسلمين "كبر مخك".

– نحن نثرثر أولًا وآخرًا، إذا كنت لا تريد كلامي فسأرحل.

– لا، العفو يا"فارس الشمس" تفضل.

– تقابلت أنا وديفيد البارحة في شارع فؤاد بمقهى رافينيا، تحدثنا عن الأمر، لكن لم يبدُ أن هذا الرجل متأثرًا بما جرى، بل إنه كان يقول إنه كرم من الله وإشارة إلى الخلاص.

– خلاص!!

– يعتقد أن ما حدث له إشارة إلى الرجوع لوطنهم الأم إسرائيل! حتى إنه بارك لمن حرق محلاتهم، بل إنه وقع بلسانه قائلًا إن من دخل حارة اليهود وحرق شركات ميشيل للصرافة كان يهوديًّا!

رفع كأسه وارتشف ثم قال:

– اليهود جن جنونهم! إنهم يعتبرون الأذى خيرًا حتى وإن ماتوا، ما لهم يهود أوربا وروسيا لا يدخلون المعبد إلا للتغوط! أما هنا مثل البهائم، هل تتذكر شمعون بن العازار صاحب المطبعة؟ هرب ليحارب مع عصابات اليهود ضد الجيش واستنكر أبوه فعلته وتبرأ منه.

– أنا قلق.

– جميعنا قلقون وصرنا لا نفهم شيئًا يا أخي الكريم، النظام يتغير، المحافل تغلق، البلد تحترق، والعذراء الشريفة لقد صارت جمجمتي مثل المنطاد من كثرة التفكير.. هل تظن أن الأخوية لها يد بذاك الحريق؟

– ولماذا تفعل ذلك؟

– يعني تحقيق نبوءة شعب إسرائيل، كما يقول حيرام معلمنا.

انتزع راغب باشا معطفه ثم قال بعد أن تنهد: هذه التعاليم ليست مرتبطة بشخص أو مجموعة يا هاروت، إنها موجودة منذ القدم، قبل الإنسان، قبل الكون، قبل الله!

– لقد أسمو ذاك اليوم بالسبت الأسود.. هل تعرف ما معنى هذا؟

– نعم أعرف يا هاروت، لكن بالتأكيد لم نخرب ونحرق ممتلكات تابعة للأعضاء، استنادًا على أن النار تطهر النفس، يتم استخدام هذا وفق حدث فلكي بحسابات معقدة، أنت ذو درجة لا بأس بها.. افهم!

يعلم هاروت سر راغب باشا، وأنه على معرفة بأكثر من هذا، وأن الاستنتاج الذي وضعه المتعلق بحريق القاهرة هو طرف خيط ببكرة خيط، وأن استدراجه ليس سهلًا، فهذا الرجل خريت يعلم الفائت والمتواجد والقادم والغامض والواضح.

حاول هاروت معه بسؤاله عن الحكومة، فجاوبه أن ما سيتغير مستقبلًا هم فقط الوزراء ورجال الحكومة، لكن لب البلد أو القاعدة تتكون من رجال الأمن العسكري ستظل البلد خالدة مثل الإله.

كان "وحيد النادل" يصب لهم الويسكي عندما ينفد، فسمع كلامهما وقال بأدب معتاد:

– سعيدة يا حضرات، هل لي بإعطاء وجهة نظري؟

رد هاروت متلعثمًا:

– بالطبع يا بني، أنت شاب يافع وخدمت بالجيش العسكري.

ثم زوى من عينه الخجل وقال:

– كان هنالك ضابطان جالسان مكانكما بالضبط قبل مجيئكما، تحدثا في أن الإنجليز لهم عودة، وهذه العودة ستكون أقوى وأشد. وأن القادم ليس مثل الذي راح، وأن مخالب الإنجليز ما زالت متعلقة بلحم البلد!

تساءل راغب باشا بحيرة:

– ولماذا يعودون؟

تابع هاروت:

– لا تنسَ أنهم لم ينسحبوا كليًّا، فسفن ومراكب الإنجليز تحتل البحر الأبيض والأحمر، نحن محاطون بهم، ومسألة رجوعهم احتمالية مطروحة، وأنت يا وحيد قل لي إن عادوا مرة أخرى.

– لماذا ما الهدف؟

انحنى نحوهما وقال وهو يتلفت حوله: "جمال".

– لماذا أنت مرتبك هكذا؟

قال متوجسًا تملأ نظراته الارتياب: صراحة صار الوضع لا يطاق، لقد أخذوا الكثير، وأي مخلوق يتكلم يقبض عليه!

قال راغب يطمئنه:

– دعها لله، لا يوجد الكثير في البار، هاه؟ لقد قلت جمال، هل تقصد أن الإنجليز سيرجعون من أجله؟

– لا، سيرجعون لأن جمال يعارض مصالحهم في الشرق الأوسط، وحتمًا سيصطدمون مثل السيارات بووووم، وسينهض صراع دامٍ.

– امم، وهل سينتصرون هذه المرة؟

– لا، دخول الحمام ليس كخروجه،، كنتم تتكلمون عن الحريق أليس كذلك؟

جحظت عينا راغب وهاروت ثم قال أحدهما:

– أتراقبنا؟

ازدرد وحيد ثم قال:

– والمرسي أبو العباس أبدًا.

أخذ راغب بتلابيبه قائلًا:

– إياك ووضع أذنك معنا مرة أخرى، هيا ارجع لقفصك.

مرت من الشارع دبابات ومدرعات رأوها من الزجاج، كان العدد هائلًا، وكأنهم ذاهبين لاشتباك أو لتغيير تمركزهم، عجلات الدبابات تزلزل الأرض فاهتز كأسيها، وقذفت بهما التسمر وملازمة الموكب بنظرات متأنية، ويراقب ويتابع ويفحص المارة والسكان من شرفتهم وبلكونتهم تحت دعاء قلوب النسوة بالسلم، وترقب من الرجل وهيام من الأطفال غير المدركين، خرج وحيد ليسأل أحد العساكر الذي قال له إنهم سيلزمون منطقة أخرى كما أمرهم ضابطهم، وهذه الكتيبة كانت تتمركز بشارع فيكتوريا، إلا أنه جاءت أوامر عليا بالتحرك غربًا صوب كرموز، ومن هناك ستتوزع الكتيبة تحضيرًا لأمر وصفه بالسرّي.

– تعال، ماذا قال لك العسكري؟

– تطردني من الحديث وتريد معرفة ما يحدث بالخارج؟ أنتم الباشوات! قال لي إنه تحرك بالكتيبة من منطقة لأخرى.

قال راغب: وما السبب؟

– لا يعلم، أمر سري!

قال هاروت مستخفًّا:

– ربما أحد قيادات مجلس الثورة سيمر، ولهذا يجب تأمينه برًّا وجوًّا وبحرًا.. وقد تضر رطوبة الإسكندرية شعره وتبهت بشرته.. يا للحسرة!

تابع راغب: معك حق، فهم حريصون على توصيل أنفسهم كأبطال للشعب، لكن هل تعتقد أن هذا التحرك جاء مدروسًا أم تغيرًا بالخطة؟

– لم أعد أستطيع فهم ما يجري، ثم ما الفائدة من وضع تأمين بفكتوريا؟ تلك المنطقة الزراعية، ألم تلحظ شيئًا؟ لقد صرنا خبراء عسكريين!

قهقه راغب حتى انتفخ شدقاه قائلًا: ماذا نفعل؟ من كثرة الدبابات والعساكر أصبحت البلد ثكنة عسكرية، ناهيك بالشعب الغلبان المنساق خلف البكباشات وأميرالات الجيش، أما العساكر فهم جهلة من الصعيد والريف يصعب عليهم قراءة اليفط التي بالشوارع، فالكتيبة التي تمر أمامنا الآن قد نسميها كتيبة الخراف، لأنهم يتبعون الضابط الأعلى سمعًا وطاعة كأنهم في مرعى!

– الساعة العاشرة صباحًا كانت هناك طائرات تحلق بالسماء، ثقب صوتها أذني أقسم بالله، لقد صحوت على صوت الطائرات وانتفضت زوجتي فزعة!

– حقًّا نحن نذوق مرارًا، ربنا يستر.

كان هاروت لديه أسئلة تدور حول ما حدث بقصر راغب، خاصة أن الخبر تردد كالنار بين معشر باشوات الإسكندرية، كان يراقب اللحظة التي سيطرح بها عنوان السؤال، وجاءت اللحظة المناسبة، فلا أنسب من الجلوس معه في بار عريق على كراسي جلدية مريحة في الظهر، مع فرقة تعزف ألحانًا موسيقية هادئة، تشجع ثم قال:

– لديّ سؤال، هل تسمح؟

ثم أخرج سيجارًا منفوخًا بعناية وعزم عليه:

– تفضل.

– لماذا تركت حلمي ولم تعاقبه؟ لقد اندهشت من تصرفك! فطبعك غليظ دائمًا، قلت لنفسي سيقطعه ويرمي جثته لكلاب قصره!

– إن جئنا للحق كنت أود فعل ذلك، لكن عندما بدأت أفكر بمن أكلم، وإن بلغت هل سينال عقابه، لا لن ينال غير أنني إن بلغت ستتجه أعين الحكومة نحوي، وأنا كنت مقربًا من العائلة الملكية وما زلت، وهم ثائرون ضدهم، ضد أي أحد مع الملك أو له علاقة من بعيد، فماذا سأنتظر؟

كمش هاروت شفتيه قائلًا: فعلًا، وربما يأخذونك بدلًا منه.

– يفعلونها.

***

متخضبه بالحناء الصفراء وشعرها يصل لخصرها تقريبًا، وتلوك العلكة كثيرًا، جل ما رأيتها تمضغها وتدعس بفكها بقوة وغيظ يتحشرج بفمها، وأسنانها بيضاء كالرخام الصافي، بشرتها دهنية قليلًا فآثار حب الشباب تاركة علامات لكن هذا لا يخفي جمالها، حتى إن بشرتها تجهل مساحيق التجميل، هذا وإن قلنا إنها تحتاجه، فمجرد لمحها تبتسم يذوب العقل كالحمم، يقال لها "غزال السوق" من كثرة المعجبين وشهوات الذكور المتعفنين المتبلدين بالمروءة، كل يوم تزداد رقيًّا، وحسنها وقوامها تنهار منه فحولتي، فقسمًا أرى بها فقط قلبًا وعقلًا فالعاهرات كثر وتعطيك ما تشتهي بأبخس المال، تناقض أليس كذلك؟ لا إنه عقل الرجل حينما يلطش بقلم الحب، لا يعرف ماذا يريد وما الغاية، ويبقى متشتتًا شاردًا وتائهًا، إن هذا

الاستحقاق الممنوح لذاك الأبكم كذبة وافتراء، فإنها تحتاج لشاب يافع مثلي ذي حمئة وجذاب كـ(رشدي أباظة)، تضحك؟ حسنًا يا "هيما"! هل تراهن على أن هذه الفرس ستقع بحبي وتتركه، أوه منذ الآن اسمي رشدي، نادني بذاك الاسم حتى أتخذ شخصه ويحسدونني على ثقتي بنفسي وترتمي بأحضاني وتداعب شعر صدري، إنها تشبه إحدى التلميذات التي كانت معي بأحد الصفوف، كانت تلك البنت تحضر لي كل يوم ساندويتشات وكأنني اخاها، ربما حن قلبها نحوي وأنا أحضر بملابس مقطعة وحقيبة ممزقة ومهلهلة، نعم، هي بها هذا الأمر، القلب الحنون، ولهذا اخترتها، تشبهها شكلًا وإن لم يكن طبعًا وروحًا، انظر، الشهر الفائت مرت علي" فعندما رأيتها بت شخصًا آخر غير ما أنا عليه، كنت على وشك الدخول بمشاجرة مع "هذا المعاق"، من المحتمل أن أؤذي حالي!، توافق وتقول نعم، هذه الكلمة ستكون طوق نجاة ودواء شافيًا، وسيشهد الكل أن محمدًا بن الزنانيري بات شابًّا آخر، السؤال هنا: هل تحب الشباب السيئ مثلي؟ أقصد هنا السوابق صاحب سجل إجرامي! ربما، ففي الأفلام دائمًا نرى النساء تغرم بالأشرار، يدغدغ هذا أنوثتهن، لماذا؟ العلم عند الله، ربما تلك الشخصية الفجة التي يخاف منها الجميع أو تلك التي يروج لها على أنها تؤذي غيرها وتمارس البلطجة..

فصفع محمد خده ثم تابع: ما هذا؟! ألم أقل إنني سأصير رجلًا آخر! لماذا امتدح نفسي سابقي كالذي هو عار على أي مخلوق! أنا أستعر مني أحيانا كون هناك علامة بوجهي قبيحة ويروج اعتقادًا أنني سيئ السمعة، أليس كذلك يا "هيما"؟

اعتاد محمد الجلوس ببلكونته يتحدث مع طائره الأبيض الذي يأتي ليقف كل صباح يأكل فتات الأكل الذي يضعه، ثم يتكلم معه وكأنه إنسان بعقل، ناهيكم بأن هذا الطائر سلوكه غير اعتيادي، لأنه يحضر يوميًّا صباحًا ولا يفوت يومًا كأنه يعقل ويفهم أمرًا، فسمّاه محمد "هيما" على اسم صديق عمره المتوفي غرقًا، ويدرك أن الطائر روح صديقه، فلهذا يعتني به، فلا مشكلة من التحدث معه أوقاتًا طويلة، ويقف الطائر مستمعًا ثابتًا وغير العادي أنه لا يرحل إلا بعد أن يكمل محمد كلامه، غير مكترث لتقلبات الجو إن أمطرت أو حرارتها ارتفعت، وفوج الطيور المارة بالسماء متمرد عليها طليق وحر، بيته هو السماء، هل لديه أسرة؟ سؤال طرحه محمد عليه، فطار لبلكونة مجاورة، وتنقل على سورها ببهجة كأنه يجاوبه بالتأكيد، هل يعقل أن طائر به روح؟ هل هذا بحدود المنطق؟ بجواب يلح بكم، إنه الإيمان، الإيمان بأن الروح لا تموت وأنها باقية تنتقل من جسد إلى جسد، جسد حيوان جسد إنسان، جسد نبات... أيًّا ما كان فإنه كائن نوراني يطوف ويجوب ويقود حيوات مخلوقات الله. في مرة كان يتكلم معه وكأنه إنسان متجسد، لاحظه أحد الجيران وصوره بالكاميرا فيديو، وحمّله على مواقع التواصل الاجتماعي، اقترف هذا الرجل خطأ فادحًا، بل إنه ذنب بلا مغفرة! فخسفت الرحمة بقلب محمد الذي جرحه برقبته وسال دمه بالشارع كنافورة، وتجلت نظرات الشفقة والحسرة على أوجه سكان المنطقة، أخذ الحق صنعة كما يقال بالمثل.

اشترى محمد قفصًا لهذا الطائر وأدخله به، لكنه أبى المكوث وهرب، كان يريد محمد أن يبقيه دائمًا ويكون صديقه، الا ان الحرية منهج لذاك الحمام الأبيض، قال محمد لإبراهيم بشيء من الدعابة: لديّ بذلة سأرتديها اليوم الساعة السابعة لحضور

زفاف أحد أقربائي، لماذا لا تأتي معي؟ نعم سيظهر أنني مجنون، فخضور زفاف بطائر، ربما يظنون أنني سأقدم عرضًا مسرحيًّا وكأنني بهلوان أو ساحر، عندك حق، ليست فكرة سديدة، امم لماذا لا آخذ رأيك بالبذلة! أود أن أعرف رأيك؟ ولج الطائر للبيت ووقف أمام المرآة بإشارة إنها فكرة تروق له، ليبتسم محمد ويسرع للدولاب لإخراج البذلة ويلبسها مع الحذاء ويضع عطرًا اشتراه من محل اسمه "مسك"، يدعي أن عطوره من السعودية، كانت البذلة سوداء بربطة عنق سوداء مفصلة على جسده دون وسع أو ضيق.

– هذه البذلة كلفتني الكثير، لكن الشخص الذي سأحضر زفافه هو أغلى عندي من أي شيء.

طار وخروش رابطة العنق وشدها معلنًا استهجانه.

– ذوقك راقٍ يا هيما، حقًّا رابطة العنق هذه ليست ملائمة، لديّ واحده أخرى.. ثانية.

كانت لديه رابطة أخرى، لكن نسي أثرها، فقلب الدولاب رأسًا على عقب، وبهدل الغرفة وتبعثرت ملابسه، إلى أن وجدها مدفوسة بقعر الدولاب، وارتداها وعرقه ينصب، كان لونها رماديًّا تبدو وكأنها تناسبه أكثر.

– أها أظن أنها حلوة.

بدأت الطائر يرفرف بجناحيه، فعلم محمد أنها أعجبته.

– "يا لك من كائن سبحان الله"، أومأ بإصبعه معاتبًا الطائر بخفة، ثم قال: "المرة القادمة ستأتي معي، حقًّا أود مجيئك معي في أي أمر أفرح به، هذا زفاف صديق عمري "يحيى" له جميل لا أستطيع رده إلى يومنا هذا، كنت سأدخل السجن بمشاجرة لولا وقوفه بجانبي، واستأجر محاميًا مدافعًا عني، وخفف الحكم، كانت المشاجرة الأولى بحياتي، وكنت خائف من الذهاب في "كلبوش"، تقول بنفسك الآن ابتعد عن الشر وغني له، لكني لا أخاف الشر، إن كنت مع الحق سيخافك الشر ويبتعد عنك.

كل ما حدث أن أحد رجال السوق ملقب ب "بيكا"، ذكر الكنغر مفيد عنه، رجل لا يحسب على الرجال بشيء، هذا كلب نجس بأرض مهجورة، غرفة مظلمة يسمونها غرفة "المزاج"، بها بنت صغيرة يريدون قضاء ليلة معها، كانت الفتاة تبكي وترتعش وتترجاهم أن يتركوها، شلت أطرافي لوهلة! كيف تفعل بنفسها هكذا؟ كيف تبيع جسدها بهذا العمر لهؤلاء الذئاب، كنت بتلك الشقة لتذوق سيجارة حشيش وأرحل، لكن هذا المنظر فارت منه أعصابي، وسحبت البنت للخارج ليوقفني أحد الرجال ليمنعني، فضربته بخصيتيه وأخذ يتألم، جعلتها ترحل، وعند رجوعي كان في انتظاري أربعة مدججين بالعصي والمطاوي، ما كان عليّ إلا أن أمسكت بكرسي كان بجانبي وبدأت تجنب أي شيء، راجيهم بأن يكفوا، وإن أرادوا نساء فالعاهرات كثر، أخذوا يحاولون معي لكن لم يفلحوا، عيب عليك، أنا ابن الزنانيري، السكين يهابني مثلما يهاب الناس النار، وتغلبت على اثنان بمطاوي العزيزة، حمدًا لله أنهم لم يموتا، وكانت جروحهما سطحية، وهربت بعد ذلك بشق الأنفس، تخيل معي مجابهة أربعة رجال معهم سكاكين وعصي غليظة

وتتغلب عليهم! يا لي من "سندال"! لم يقف الأمر إلى هذا الحد، بل تطور وقرر هؤلاء الخنازير رفع قضية بمقتضاها أنني تعديت عليهم، لكن "يحيى" اخرسهم، جعلهم بالمال يتنازلون عن القضية، كم هو شهم، وهذا جميل برقبتي يجب ردّه.

خرج الطائر وحلق بعيدًا وودعه محمد وهو يلوح يده، فقال وهو يخلع بذلته سنرى ماذا تفعل المرة القادمة، سأطهيك وآكلك لكيلا ترحل وأنا أكلمك! وضع البذلة على السرير وأخرج سيجارة بخسة الثمن، وجلس يستمعن بهاتفه المليء بالصور المخلة والمنافية للأدب، فتلك عادته، يعشق عري المرأة مثلما يتلذذ بشرب الحشيش، ثم مر الوقت، وذهب للفرح بالوقت المناسب مهندمًا .

الفصل السادس

لقد بت أنام بصعوبة، وصارت أحلامي غائبة، أرهق الوسواس بدني لأصير كالعنقود الجاف، أشعر بالخمول والأرق وأقضي ساعات أدقق في جل شيء حولي كالمجنونة، ذبل شعري وبت لا أعتني به مثل السابق، أما عن التصوير والتنزه فلم أترجل خارجًا منذ الكثير، وأصدقائي يتحايلون عليّ كي أخرج معهم، وأخواتي أيضا يبتدعن العجب كي أتنزه معهن وأقضي وقتًا يزيح الغبار الذي على روحي. كل ذاك بسبب الحب، ذاك المرض اللعين الذي أصابني، وبت بسببه مثل الثمرة المتحللة!

أنا أكتب وأكتب لا أتوقف حتى ينزاح هذا الهم، سأكتب عن آلامي وحزني وفرحي وغضبي وسكوتي وكلامي، سأكتب حتى ينفد حبر قلمي وتخلص رزم أوراقي، سأجعل روحي هي من تكتب، سأنصبها وزيرة للتعليم لتضع منهجي الذي سأمشي وأجري وأقف وألتف عليه، سأكون مخلصة لمشاعري حتى أكون زوجته وأكتفي، أو أبغض الحب وأسبه وأحدفه من الشرفة وأطرده من غرفتي،

لكني ما زلت أسيرة لدى الحب، لاجئة! لديّ رغباتي، أراه همًّا ثقيلًا مُر المذاق كالليمون.. يا رب خلصني من همي وأعطني قوتك الأبدية، قوة المسيح العاتية. يا ترى ماذا تخبئ لي الأيام؟ هل ستكون مرعبة كجوف الكهوف أم أنها أيام الزهور والربيع، يا رب اجعله من نصيبي، وإن لم يكن لي نصيب فأزحه عني، فأنا لا حول ولا قدرة، لقد نال من مراهقتي فلا أقوى على همساته ونظراته البارقة، هل الحب خادع؟ أي أن ما اشعر به خدعة مزينة بعناقيد متوهجة، أم أنه حق بيّن كمطرقة قاضي بالمحكمة، ربما هو ذلك النزغ الذي بالقلب يظنه المرء مرضًا خطيرًا، وفي الأصل ما هو إلا عارض عضلي، السطور ستطول إن جلست أكتب عن الحب والإعجاب والغرام، الحب كالبحر عميق وواسع لا أول له ولا آخر، فكيف سألخص مشاعري بقلم ودفتر، عليّ التزام الصمت وأسجد للقدر، وأن أترك الأمواج هي من تحركني كالزمن يوجهنا يمينًا ويسارًا، أنا خائفة من أن يقع ذاك الدفتر بِيَدِ إحدى أخواتي، فهن مثل جرس الإنذار صاخب وعارم بالجلل، وإن علم أبي سيرمي هذا الدفتر بالقمامة ويرميني معه، يا الله ماذا أفعل؟ سأضعه بحديقة العمارة عند شجرة العنب المزروعة، شجرة ميتة لم ترتوِ منذ مدة، الماء غاضب عنها ومن غير المتوقع أن يلتفت لها أحد أو يقف حتى هناك، وأيضًا شارعنا بلا حس أو خبر لا يزور عمارتنا غير بائع اللبن والجرائد الذي ينادي عليه الأستاذ شكري أبو نشأت، قلبي النابض، آه لو أرتمي عليك وأحتضنك وأقول آسفة من غير قصد، هذه البرهة تكفي عمري جله! حتى إنها بثروة أبي الطائلة، إنني أرى أن اللحظات السعيدة أثمن من المال كأنها قطعة من القمر، أو أنها لؤلؤة بجوف صدفة، أو أنها خبر مفرح كخبر مولد المسيح، المسيح!! هل ما زلت تسمعني؟ أنا مارال ابنتك،

أكتب لك وأصلي بتفانٍ، قل ما هو الحب يا إلهي؟ إنك إله الحب والقلب الحي، هل نحن من نختاره أم هو من يختارنا؟ ألهذا نحن عبيد لأقدارنا؟ حدثني عن الفرصة، هل من الخجل الإلحاح أم من السذاجة مصارحة الناس بأن نظفر بفرصة، فرصة الحب!

– ما الذي أتاك؟ ارحلي ارحلي.

– ماذا بك؟ تجلسين لاصقة وجهك بالدفتر وكأنك تكتبين رسالة وداع، ما الأمر؟

قالتها مارينا بكيد النساء المتعارف عليه.

تركت الدفتر ونحّته جانبًا، ثم ردت قائلةً.

– لا شيء، كما تعلمين أنا أحب كتابة مذكراتي وحدي، هذا يجعلني أكثر تركيزًا.

خطفت مارينا الدفتر من على الطاولة، كأنها سارق محترف! وقبل فتحه سحبته مارال منها ثم نهرتها وابتعدت.

– ما بك؟ هل أكلت أكلك؟ أنت أختي لماذا الغضب؟

– دعيني وشأني.

– مارال، نحن بالنادي، أتينا نتراقص ونأكل أكلاتنا الشهية، لا تفسدي اليوم!

– أعطيني بضع دقائق وسألحق بكم.

رجعت مارينا إلى مجموعة من الشباب والشابات يرقصون بعباءات خاصة مزركشة "تاراز"، ويهللون ويغنون بعبارات أرمينية ويحركون أيدهم بخفة وأقدامهم على أنغام (سايات نوفا) يشاطرهم العجائز التصفيق ومحاولة الاستمتاع.

"تون أن هوريس فور كامي كوزافتا..

جونكي انتس تسافتا تسير خوبوف نازاني اري فيلك اربغمود هاراف هوسيس جه كاكيزي نمان جافوف نازاني شاد مارت كو اخجامان كو تارانا يزيت" آري ما رام آرا لاف كاتسي.

كانت الأم تجلس مع أمهات أخريات يتباحثن عن شأنهن، ثرثرة نسوة قد تنفجر كالقنبلة إن أطلت الجلوس معهن، يتباحثن عن إيجاد عروس لكل منهن، وكيف أن أنتوني ابن ميريام أصبح يافعًا ولا بد من إكمال نصف دينه، وأن يوستينا بنت بوغص صارت ذات ثدي كبير، وأنها إن حملت ستفيد مواليد النادي جله رضاعة، هؤلاء النسوة لا يعرفن الأدب بينهن، قد تلقى بينهن أحاديث يخجل الشيطان النطق بها من شدة البذائة، وأنا هنا لا أتكلم عن المرأة الارمينية تحديدا قارئي العزيز، لا تدخلني بصراع مع الأرمن..."أنا. الكاتب".

وإن إدوارد بن بوغان صار مهندسًا للكهرباء، ويبدأ ماراثون المصارعة بينهن من هو المناسب لابنتها ومن هي المناسبة لابنها وكيف سيتقابلان؟ وكيف سيجتمعان؟ وهل الجواز سيطول أم لا؟ هل هم بصحة جيدة لإنجاب أطفال؟

ويمتدون بعيدًا عن مستقبل الطفل.. هل سيأويه الشارع ويتشرد جامعًا للقمامة أم سيصبح عالِم ذره، فيعاني عددهن نقصان، فالبعض رجع أرمينية والآخرين صلتهم بمصر ليست وطنا بل جزءًا من لحمهم.

وبينما نرى الدنيا والآخرة بالدين والعقيدة فالبعض يرى أن الدنيا والآخرة هو الوطن الأم.

وفي خضم الأمومة الحائزة على جوائز الحنين والطيبة، تراجع بعض الأمهات على طبخهن المعد بأدق الفوائد.

– يا سلام على سايات، هو أب للأغاني التي ترد الروح.

– بل هو من علم الترك والفرس معنى الألحان، إنه موسوعة، استمعي...

– الأغنية رائعة يا مريم، أود ترك ما بيدي والرقص معهن.

– هل يرضيكِ أن يكون يوم فرح ورقص ويغني الناس دون لقمة تسد جوعهم.

– أريد التذوق.

فغرفت امرأة منهن بملعقتها لتقترب من فم مريم وتتذوق بلسانها مستطعمة... إنه طبق ال (حريصا).

– أضيفي بعضًا من الفلفل الأسود مع ورق اللورا وادعي لي.

– على ضمانتك؟

– وأكتب لك إقرارًا بذلك أيضًا.

على مقربة منهن كان هناك راهب يسمونه الراوي، رجل ستيني أبيض البشرة يشع بركة وإيمانًا، يستقر بقلبك عندما تنظر له، حيث يروي هذا الرجل حكايات شعب الأرمن العريقة وكيف هم عِرق نقي خالص ومديد، يقف مقابلا لجمع من الصبية يروي لهم رواية.

– لقد اخترعت الأبجدية الأرمينية على يد "ميسروب ماشدوتس" وهو راهب أرميني لاهوتي بين عامي 392 إلى 404 م.

ركزوا معي، افردوا ظهوركم، ارتخوا.. هذا الرجل كان ركنًا من أركان الكنيسة، وموسوعة لغوية نهض بالكنيسة وأرسى قواعد الحروف والهجاء باللغة، فوجد "ميسروب" مخطوطات لدى مطران الكنيسة السريانية، وثائق حول الأبجدية الأرمينية، وتم بفضلها استنباط أحرف أرمينية أولية، ثم عمل على تعليمها للأطفال بالكنيسة مع بطريرك يدعى "ساهاك" خلال مدة، لكن التجربة لم تنجح بالبداية، لكنه لم ييأس وأكمل مشواره، ذهب إلى سوريا وأنطاكية وأخيرًا لتركيا، وتمكن من تحديد صوت اللغة والأحرف، وكون مضمونًا صوتيًّا عن كيف تنطلق الكلمات مستعينًا بخطاط يوناني اسمه "هروبانوس" ثم عاد ميسروب لأرمينيا حاملًا مثقالًا لغويًّا وعلميًّا غزيرًا ليؤلف أبجدية بها 36 حرفًا، ثم زاد عليهم ثلاث بعدها، وهكذا أخذت الأبجدية الأرمينية شكلها الأولي الذي عمل به شعب أرمينيا والكنيسة ومن ثم شد رحاله وانتقل إلى جورجيا وألف لها أبجدية من الأرمينية، وفي أثناء إقامته هناك سقط حكم الارشاخونية في أرمينيا، فطلب جاثليق

الأرمن، بتعيين ادارشيس هذا ما رفضه الأرمن وجعلها ثورة عارمة وساخطة وكانت شرارة لعزل إسحاق من مهتمه، حتى توقف ورشح بعدها ميسروب لذات المنصب، لكن روحه غادرت إلى السماء، إلى يسوع المسيح، إلى حيث تسكن ملائكته، ميسروب كان من ملائكته لأنه خدم دينه ودعوته ونشر رسالته.. وتوتة توتة خلصت الحدوتة، بالتأكيد ليست ملتوتة..

الأكل جاهز، لنا موعد بعد الانتهاء، سأحكي لكن حكاية أخرى.. لا تغادروا هاااه!

رغم الحرب والسلام وتباعد العرق وتتدهور الحضارة إلا أنهم ما زالوا يتجمعون محافظين على كل شيء من الجلدة إلى الجلدة، الأرمن كلمة كفاح ونضال، بل إنها تحل محلها إن نطقناها، ومن أراد الافتخار ومن أراد الانسلاخ ستظل أرمينيا روحًا لا يفارق الجسد، ولهذا لا يتركون بعضهم في رباط إلى يوم النهاية، لا تجد بينهم غريب، بل إنهم إخوة متلاحمون وإن ابتعد الأخ عن أخيه بلادًا وإن زاد عتاب الأخت لأختها عتابًا، ما زالوا في رباط وكنف، وهذا المشهد خير دليل على هذا.

وعلى مسافة ليست ضحلة بحديقة بها أزهار ونافورة تضخ المياه، بها تمثال لمريم العذراء كأنك تبصر مشهدًا بالفردوس، ومنقوش عليها عبارة بالأرمينية، "الرب يحفظ كل من معه" وطيور تنقر بالأرض، آكلة لحبوب يرميها خادم بالنادي، يجتمع الحاضرون، يهرول بعض الأطفال لاعبين الغميضة مع ملعب كرة قدم يتسع للركض والنطح والقفز.

كانت غالبيتها مكونة من زوج وزوجة وابن أو ابنة، والأرامل والعزاب والمطلقات، فرحين بذاك الجمع يتشاطرون الأطباق والملاعق والشوك وما يتم طلبه من رجل كهل بأقصى الطاولة الطويلة توصله فتاة شقراء بترحاب وبكلمة طيبة، مع اجتزاء وتقسيم الأكل بأطباق وتوزيعها بعناية بمقدار حجم معدة جل فرد، فالطفل ينال مقدارًا أقل من الذي يكبره، والبعض يتحسس من مأكولات سمكية وآخرون يطلبون نوعًا خاصًّا أو مقدارًا معينًا، أطباق من (الحريصا) و(الدولما) و(المانتي) و(لاحماكون) وهو عيش عليه طبقة من اللحم والبصل المفروم والثوم والبندورة المهروسة. مع خشخشة الملاعق ووشوشة المجاورين ببعضهم، وتأزر الجمع لإرضاء أمعائهم الخاصة، خبت الأصوات المتداخلة بمقدار يسمح للأذان بالسمع، بدا الجميع بالهبش والنبش والخدش، غطى الزيت أصابعهم، يلكون بإمعان وتريس ممزقين الأكل لجزيئات وفتات، ثم تقف امرأة تاركة المائدة ثم ترجع بقنينة من النبيذ المعتق وتصب في كؤوس على صينية من الفضة، وتضعها على الطاولة، ليخطف كل منهم كأسًا ويشربه، كانت تالار والأسرة حاضرة، لكن مريم الأم ترى أن الخمر غير صحي ويؤثر على جدار الأمعاء، وبالتالي لا يهضم الأكل جيدًا خلاف تالار التي تفضله قبل الأكل.

وقالت مريم تدنو من ابنتها:

– تالار، لا تكثري الشرب، كأس واحد يكفي.

– لا يؤثر.

ردت بسخط:

– لا يؤثر يا رأس الفأر! أنسيتِ آخر مرة قد شربتِ بها استفرغتِ كل ما ببطنك على الأرض ولم تتحملي؟!

– لكن هذا لم يكن بسبب الخمر، لقد أكلت شيئًا فاسدًا.

علقت مارينا:

– هل تظنين أن حجتك هذه تدخل العقل، هل نسيتِ تاريخ بطنك مع المرض عندما شربتِ أحد مساحيق الغسيل وهرعنا بك إلى المستشفى؟ هاه؟ ماذا قال الطبيب؟ لحظة سأتلو عليكِ...

تأففت تالار بامتعاض ثم قالت:

– حسنًا دون تفاصيل، الجلوس معكم يسد النفس بالأصل، سأكتفي بهذا الكأس فقط، (ثم التفتت إليها بنظرة ثاقبة قائلة) تلعبين دور الأم بشكل جيد، عليك اختيار طريق التبشير، ستكون كلمتك مثل الماء الطاهر بقلوب القوم.

ثم أومأت بإصبعها وتابعت: لكن وحياة أمك لا تلعبي على هذا الدور ثانية، لقد سأمته وصار بخسًا رخيصًا مثل نصائحك!

– شعرك مفرود بعناية، مدام سهام أتقنت هذه المرة وعملت تسريحة رائعة!

ابتسمت مارينا وهي تسرح شعرها بإصابعها بخفة وعلى وجهها علامات الغرور والفخر، هذا الإحساس الذي يصيب الآنسة عندما تشعر بأنوثتها، ثم صرحت:

– لقد رأيناها بمجلة فرنسية وأتقنتها بالحرف، ما رأيك بتموج الخصل؟

لكن تحولت مشاعر الغرور الممزوج بالافتخار إلى ألم حينما أمسكتها تالار منه بقوة قائلة:

– لا تتكلمي معي هكذا مرة أخرى، أفهمتِ؟

صاحت مارينا وهي تتأوه: آآاه آآاه أمي أمي تعالي.

فسمعت صوت ابنتها لتحضر وقالت وهي تجز:

– أمنية من أماني حياتي أن يسود الود بينكما، لا يمر يوم من الأيام إلا وحدث شيء، (ثم قالت بأمر وحزم وعزم) إن حدث شيء آخر بهذا اليوم سأصفعكما صفعة يسمعها العالم كله وسترجعان إلى البيت ببكاء وحذاء ينزل على الرأس!

قالتا بلسان مهذب يخلو من الشيطنة:

– نحن آسفان يا أمي.

– هيا تفرقوا.

فراحت تالار بعيدًا تطعم العصافير، فكانت تلك عادتها عندما تحضر للنادي، كانت تحتفظ ببعض الحبوب بحقيبتها وترميها ناشرة الحبوب فتتناثر، وينسكب الطير من الجوع آكلا الحبات المبعثرة، تراقبهن يأكلن حبة حبة وكأنها تربيهن، تقول دائمًا إن الطير هو إله السماء، يعرف أسراره، فما لا تعرفه يأتيك بسر لبه، ويمنحك بصيرته، ويغدق عليك بأسراره، كانت قد قرأت قصة عن هذا الأمر وأنها ليست مخلوقات عادية بل إنها من السماء العليا، فاستمرت بإكرام هذه الآلهة، وراحت تطعمهن بكل مكان تراهن به،

وعلى عكس اعتقادها الغريب أكرمها المسيح بعقل فذ وجعلها حكيمة وتتسم بالرزانة، وذكية تحل أي شيء معقد بثوان، ولماحة وكأن لديها حاسة سابعة، كانت متفوقة بترتيب الأوائل بكليتها، تعتقد أيضًا أن كلما خف وزن الكائن زادت حدته وأهميته بالطبيعة، فهذا يعني أن بداية الخليقة تنمو من الصفر أي من اللا شيء مرورًا بتكون الشيء، حجة تعلمتها من الارتماء بكتب الفلسفة التي تنحشر برفوف غرفتها، فتمكث لساعات بقراءة كتب فلسفية وتعلق اقتباس تتخذه حكمة على سريرها (لسنا أثرياء بما نملك، لكن بما نستطيع فعله من دونها).

تلك الجملة التي تحفزها على القيام بالمهام الصعبة، وتلهمها بمجرد التطلع لها.

لاحظت في أثناء وقوفها بتسرب مياه وصل لطرف فستانها، فشدته وهي تتأفف قائلة: "من هذا الأحمق الذي رش المياه الآن؟" فتدخل شاب فلاح (البستاني) راعي حديقة النادي قائلًا:

– أنا آسف يا آنسة، لم أقصد، لقد تركت الصنبور مفتوحًا ولم آخذ بالي أنها ستصل إليك، يمكنني جعل ابنتي "حفيظة" تغسلها.

– لا شكرًا، ستجف بمفردها.

أقبلت إليها أختها مارال تتساءل ما الأمر؟ فليس من عادتها التحدث لأحد غريب.

– الفستان تبلل.

شهقت قائلةً: أليس هذا فستاني الذي استرعيته مني؟

قالت تالار بارتباك وكأن برجًا شاهقًا وقع عليها:

– لا تقلقي إنها مجرد مياه وستجف.

أكملت مارال سخطها قائلة:

– أتعلمين، لن أعيرك أي فستان من بعد الآن، أنت مهملة.

فنظرت للفستان من الأسفل وقالت بيأس: يا رب هذا الفستان المفضل لديّ، لماذا؟ لماذا؟

بانت الريبة بوجه تالار التي لم تجد ما تقول، واعتذرت عما حدث، لكن هذا لم يزِح نظرات الحزن بوجه مارال التي تتعامل مع فساتينها ككائنات حية، تعتني بهم أشد عناية وتذهب لتنتقي أغلى الفساتين وأكثرها جودة، لكن تغير حزنها وتجلى الوقار بها ففكرت أن الأمر يفضي إلى أنه فستان قد ابتل بغير قصد، وأن ما حدث غير متعمد من أختها.

كان (الراوي) يتابع قصصه ويتجمع حوله حشد أكبر، وانضمت إليهم الأسرة مستمعين مدققين بكلامه وبأسلوبه الشيق.

"أتعلمون متى دخل النور قلوبنا؟" ثم تحسس صليبه بوجه منفرج وتجهز لقول شيء شيق.

وبقول التاريخ، دخل المسيحية أرمينيا في 301 م، تلك السنة انتشرت الديانة على يد بعض الرهبان والقديسين، فإن أرمينيا الدولة الأولى التي عهدت بالروح القدس، أول دولة بالعالم اعتنقت المسيحية، ونكمل حلقة الوصل عن أبينا

ميسروب فأنه بعد تكوين أبجدية أرمينيا، بدأ الأدب الأرميني بالازدهار، فإننا أول من ترجمنا الكتاب المقدس.

رفع أحد الحضور يده، رجل ببذله ونظارة نظر يبدو عليه الثقافة فأذن له (الراوي):

– لديّ شك بآخر، نص قد قلته، هل الترجمة التي قام بها الأرمن للكتاب المقدس ترجمة عرفية أم شرعية؟

ماج السامعون وبدؤوا بالوشوشة والهسهسة: من هذا الرجل من الأساس؟ وما الهدف من سؤاله؟

قال الراوي بتوجس، وكأن السؤال أصاب رأسه بالضرر: عذرًا، أنا لا أفهم سؤالك، هل من الممكن التوضيح؟

هز الرجل إطار نظارته ثم قال بثبات:

– أعني هل الترجمة التي تتحدث أنت عنها ترجمة صحيحة؟ لا تؤاخذني، لك مني كل الاحترام، لكن الديانة بعد حركة الترجمة أصبحت فرقًا وأحزابًا وتحالفات وصراعًا داخل الكنيسة، جل ما دق بي كالشاكوش (الترجمة)، ترجمة الكتاب المقدس.

– من الواضح أن لدينا سؤالًا يشكك في رجال ديننا! هذا غير مسموح به هنا.

– إنه مجرد سؤال سيدي الكريم، انظر إلى الكنيسة بأوروبا الآن، تنسلخ من عقيدتها الأصلية، إن الرجال الذين قد أنشأوا الديانة هم السبب في اضمحلال الديانة أيضًا تحت طاولة (التنوير).

تعالت الأصوات مرة أخرى وطفق الجميع يثرثر مع بعضه.

فقال (الراوي): هدوء هدوء من فضلكم، هل تخلينا عن عقيدتنا كـ(أرمن)؟ إننا الكنيسة الوحيدة التي عارضت كنيسة أوروبا بقرارتها المجنونة (معركة أوارايرِ).

- التي خسرنا بها؟

صرح الراوي بعزيمة بعد أن نفر الدم بعروقه:

- خسرنا؟ إنه انتصار لنا ولحريتنا الدينية يا هذا!

- رجال دين متمردون يريدون الخروج من جلبابهم، وقرروا محاربة الفرس لنشر قيم التسامح، لا أعلم كيف هذا وهم حاملين السهام والسيوف!

- سألت أولًا عن ترجمة الكتاب المقدس وشككت أن الترجمة قد خرجت من الكنيسة الأرمينية بشكل غير صحيح، وقد ضللت النصوص المترجمة، ثم الآن تدعي أن التمرد على الفرس كان خطأً فادحًا رغم أنه تسبب باستقرار وضع الكنيسة بعدها؟

اقترب الرجل منه وارتقى بنبرته التي كانت حادة:

- سيدي، أنا ناقشتك لجعل الناس تفكر بقصتك، أنت تنقل من كتب التاريخ، ولك وجهة نظر، هذه ليست قصة، بل إنها حجة يجب النقاش بها، أي أن سؤالي مشروع بمحله.

- أنت لم تعرفنا عن نفسك، فليحفظك الرب، تمتلك ثقافة واسعة.

– أنا صحفي، عملت بجريدة (الوفد) وصحيفة (باري لو)، وباحث بمقارنة الأديان، اسمي هوفسيب.

– ليبارك الرب لك، أنت بمقام ابني الصغير، لدي شاب مثلك هكذا ويمتلك نفس الحماسة أيضًا، هذه القصص منقولة تاريخيًّا، والبعض من منقولات الكنيسة، فالكنيسة قد تصدق على روايات تاريخية والأخرى تنكره.. أما عن سؤالك عن رجال الدين وكم نحن صرنا أشرارًا بوجهة نظرك، إن المسيحية عمرها ألفان عام، مر عليها الكثير من التشكيك والطعن والتهديد، لكن ها هي باقية وستظل، أنا لا أمنعك من السؤال، لا أستطيع مهما حاولت، لكن، لكن تدبر بإيمانك قبل عقلك، اقرأ بإيمانك قبل عقلك، قد يكون هناك نص تراه غير منطقي فتقلب الصفحة الأخرى تجد مرادك وإجابة تشفي سؤالك.

قالت مارال: جماعة، أنا لا أفهم شيئًا! لماذا أصبت بالغباء هكذا؟!

فردت صديقتها هبة: أنت دائمًا غبية، وما الجديد بذلك؟ انتبهي، ربما سنشهد مبارزة ويقذفون بعضهم بالكراسي.

أنهى الراوي الجلسة إلى هذا الحد، وتفرق الجمهور من حوله، لكن سؤال الشاب "هوفيسب" جعل الجميع يمارسون هواية عصيبة وهي التفكير، فإن تلقي التعاليم بالسماع كابتزاز العقل وتقييدها بأغلال القساوسة والرهبان، يحجم دور الفرد بالمشاركة والنقد والتفاعل والرؤية المغايرة، وهل الإيمان هو التسليم الأعمى بالمقدسات، وبالله ؟؟

***

كانت مارال قد اتفقت مع هبة إلى الذهاب للسينما، فترجّل الاثنتان إلى سينما "بلازا" وطلبا الفشار المملح وجلسا يتابعان فيلمًا بطولة سامية جمال وعماد حمدي عنوانه "قطار الليل"، وجلسا يشاهدان بإمعان شديد أحداث الفيلم الشيقة، كانت الرومانسية تحضر مع الجالسين، فتجد أن معظمهم رجل وامرأة بكرسيين متجاورين، ويمسك كل منهما يد الآخر، وتضع واحدة رأسها على كتف حبيبها أو زوجها أو خطيبها، ولا يفرق هذه الرتابة إلا عندما يشعر أحد بالملل فيغادر أو تمتلئ مثانته بالمياه ليفرغ ماءه بالحمام.

قالت هبة وهي ترفع حبة فشار:

– يا سلام، إذا كان في حياتي شاب مثل عادل يبذل الغالي والنفيس من أجلي..

مسكت مارال ذقن صديقتها كأنها تعاينه ثم قالت:

– لا شبه بينك وبين سامية جمال، أنت سمراء وعينك بنية وقصيرة، تلتلصق الشحوم حول خصرك، وهي ملكة جمال! عودها ممشوق، ماذا تحسبين حالك؟

– أف، أنت دائمًا هكذا تحبطين أملي بالحب.

– هل نحن هنا لمناقشة مشاكلك الشخصية؟ شاهدي بصمت.

– قولي لي يا عاقلة، وأنت لا تحبين؟ لماذا هذا التدين غير المعتاد؟

– هبة، هل أنت مبتلعة راديو؟ قولي لي أرجوكِ، سأنتزعه لا تقلقي، دعينا نتكلم بعد نزول أسامي طاقم الفيلم.

قالت هبة بعد أن جلست بإنصات وأدارت نفسها للضوء المنكب على شاشة العرض:

– معك حق، أحيانًا تكونين مقنعة!

هز البطل قلب مارال المتعلق كمحكوم عليه بالإعدام، وجعلها تفكر به وكأنه "نشأت" وراح خيالها بعيدًا عن أحداث لا وجود لها!

أنهما سيتزوجان وسينجبان طفل، ربما تطلق عليه نادر، أو طفلة تسميها إيثار، ليكن الاسم موافقًا لمبدأ الديانتين، وسيعيشان ببيت يبنيانه معًا، وربما يطليان جدرانه بالفضة ويبلطان أرضه ويركبان صنابير من الحلي ويفرشان أثاثه من خشب الزان، إنها النساء، لديهن خيال لا يوصف، لكن تخيُّلها "نشأت" ليس وليد اللحظة، فإنه متجسم بعينيها ومتردد بطبلة أذنها ومتنفس كالعطر بأنفها، وتصل لأبعد من ذلك كزوجين على حافة الشيخوخة، وتفكر هل هذا العالم سيكفينا ويبقى متسعًا لنا؟ أم سيضيق كحفرة مجوفة؟

الفصل السابع

العربات تسير هنا وهناك محاولة تفادي بعضها، منها يوصل الركاب ومنها مملوك لشخص قادر على مصاريفها، فكومة الفولاذ تلك تطلق أبواقًا بما يعرف ب (الكلاكس). ويصيحون كالديوك ببعضهم، تختلف حدة الصياح وفقًا لشدة الموقف، إذا كان مزنوقًا أو معطلًا أو خُبطت مركبته.

وإن كانت تلك المركبة (مشروع) وهو الاسم المفضل لدى السكندريين لوصف الميكروباص، فيا ويلك ويا سواد ليلتك! هؤلاء لا يخطئون، كالإله أو كالأنبياء فيمتلك جل منهم شهادة سواقة خبرة مئتَي سنة مع حالة من جنون العظمة والكبرياء الذي يجعلك إن كان هو المخطئ بالسير، أنت المخطئ، بل وقد تندم وتتساءل لماذا سرت بهذا الطريق.

هذه الكومة من الجنون شيء والمارة شيء آخر، إن المشي بهذا المزلقان اختبار ذكاء، فتفادي العربات والناس والالتزام كأنها مسابقة يستفيق معها ذهنك إن كان شاردًا، فالهيام هنا قد يودي بحياتك، فالمشي هنا كالمشي بحقل ألغام، فضع عينًا

ثالثةً وتحصن بذكاء خارق إن تواجدت أو فكرت بالوقوف حتى، فالمكان لا يتسع لكل هذا الضجيج، شارعان متقاطعان، شارع يتوسط به خط الترام الذي يمر من الحين والآخر، وشارع آخر يقطعه والباعة الجائلين والمقاهي الخاطفة لمساحة الشارع القانوني فارشة كراسيها ومعلنة الاحتلال بتبجح وبلطجة، والعمارات المكسية بالأتربة تطفئ جمال ورونق التحضر مع تصميماتها المنافية للهندسة المعمارية، وعوادم السيارات الخانقة المسببة لأمراض الصدر النائبة عن محطات الغاز ومفاعلات النووي وقد تصاب بالكحة والسعال والرشح إن لم تتحصن، فلا حيوان يمكث هنا ولا نبات عشبي هكذا (مزلقان باكوس) الخاص بالترماي، حيث كانت تلك المنطقة منذ حقبة ملجأ للجاليات الأجنبية، ومعمارها إيطاليا وإنجليزي الطراز، لكن انحدار وغياب سيادة النظام خرق التحضر ورماه قتيلًا، والتّهم هنا متعددة تتوزع بين الإدارة والمسؤولية والحكومة والشعب والقانون فجلهم مكانهم خلف القضبان..

تأفف سعد الذي كان واقفًا منذ نصف ساعة ينتظر الطفل، يلتفت يمينًا ويسارًا، يتطلع لكل طفل يسير أمامه، شعر بشيء يشد بنطاله فنظر له قبل أن يسقط بفضيحة، إنه الطفل المراد! لم يتجاوز العاشرة، بشعر ناعم يغطي جبهته.

مد يده ليسلم عليه قائلًا:

– كيف حالك؟

لكن الطفل كان مكشرًا ولم يتفوه، وكأنه روبوت، وأعطاه الحقيبة ورحل، كان غريبًا، فذاق سعد ما يعانيه الطفل، فأراغمه على العمل مع مجموعة من الحثالة شي

يقشعر البدن، وتوضع التكهنات عن كيف يتعاملون معه؟ هل يتعرض للضرب؟ أو ربما اعتداء جنسي! لكن سعد متعطش لتخزين المال بحسابه البنكي، فلا يبالي إن كان يفترش حصيرة وسط الشياطين أو يلعب الطاولة مع الجان، أو أنهم كائنات غير مرئية تتغذى بشرب الدخان، أو لو كانوا بشرًا فلا مانع إن كانوا تجار أعضاء!

فحص الحقيبة بتوجس بعد أن اتخذ ركنًا بعيدًا هادئًا قليلًا، ووجد قطعة أثرية قديمة للإله حورس تبدو متهالكة أو مرممة، فهناك ذراع مكسور ووجه التمثال مخدوش، مع مرآة مطلية بالذهب، يرجع تاريخها إلى عصر الملك فؤاد، ويبدو أنها ملك لإحدى سيدات الملك، كانت تبرق كنجم ساطع في السماء مزخرفة بإتقان، هاتان القطعتان كانتا ملفوفتين بكيس أسود ومرقم، على كل كيس رقمان **3479** ورقم **9087**، لا يعرف سعد لماذا يوجد أرقام على الكيس، دفس الأكياس ثم رفع هاتفه متصلًا بعاطف:

– انتهيت ومعي الشنطة، ماذا الآن؟

سكت لثوانٍ ثم قال: حدث تغير طفيف بالخطة.

– إنه يوم مفاجآت، تنقصنا الألعاب النارية.. هاه ما هو التغير؟

– ستذهب بالحقيبة التي معك منطقة ميامي وليس أبو تلات، ستركب من عندك وتصل هناك وتسلم الحقيبة لسيدة هناك.

– سيدة!!

– لماذا تقولها وكأنني قلت لك إنك ستسلمها لضابط؟ عملنا لا يوجد به قواعد أو مسلمات، من يقدر على العمل يعمل، خذ رقمها.

سجل سعد الرقم ثم ركب "مشروع" أوصله للمنطقة، كان خائفًا على الحقيبة لحد جعله يلصقها بصدره طوال الطريق، كان يحسب الوقت الذي يمر دقيقة دقيقة وكأنها آخر دقائق عمره، ثم اتصل بالسيدة التي لم تكن سيدة بل امرأة شابة، عندما رآها سعد شعر أنه رآها من قبل، كأنها مرت عليه بالسوق أو شيء من هذا القبيل، كانت بجلباب أسود وملهمة لذكورة أي رجل!

أعطاها الحقيبة ثم قال: هل رأيتك قبل ذلك؟

قالت بارتباك ناظرة للأرض وبيد مرتعشة وهي تسحب الحقيبة:

– لا، لا أظن، ربما تشابه ليس إلا.

لمح سعد حالتها غير الطبيعية ثم قال:

– لا، أعرفك.

وبعدها استرجع ملامحها التي كانت قريبة من مخيلته (إنها بنت أحد أصدقائه) مَن مَن؟!!!

– أنت ابنة المعلم...

وقبل أن يكمل جرت بعيدًا، فجرى وراءها وهو يقول: لماذا تهربين؟ لن أؤذيكِ؛ أنا مسالم جدًّا.

فأمسك بكفها بعد أن لاحقها قائلًا: صبرًا يا جميلتي، لن أبرح من هنا حتى أعرف من أنت؟!

– إن لم تتركني سأصرخ وأفرج عليك الناس!

شعر سعد أنه يفسد الأمر، وإن اطال واغتر بنفسه قد يسوء وقد يجتمع الناس فعلًا وينصبوا أنفسهم قضاة والازدحام هائل، فأقل صرخة ستلم اثنين أو أربعًا من المهتمين بتأهوات الإناث، فانسحب قائلًا:

– حسنًا، تذكرت، أنت (عزة) بنت المعلم الجربوع، أبوك هو صديق وأخ عزيز، كيف تسمحين لنفسك بالدخول بهذا المعترك! أنت صغيرة وعظمك طري، ورجال العصابات قد يفتكوا بك ويرموك بالبحر.

جحظت عيناها المطلية بالكحل ولاحظ سعد، فعرف أنه على صواب، ثم تركته مهرولة وكأنها تمشي على جمر من نار.

هاتفه عاطف فقال بنبرة تشي بالانزعاج: ما كان عليك فعل ذلك، إمساكها من يدها والجري وراءها وكأنك ستفتح معها تحقيقًا!

ارتفعت دقات قلب سعد الذي بالأصل يعاني مشاكل به ثم قال: هل تراقبونني؟

– كل متر مشيته من بيتك إلى هنا.

– من الواضح أنني أتعامل مع أناس كفء، أرجو أن يكونوا كفؤًا بالمال.

أغلق الهاتف بوجهه دون أي تعليق، ثم أرسل له رسالة قائلة: بعد غد "كوبري أبيس" الساعة الخامسة فجرًا.

***

ذاك الموقف الذي حدث عقد عزم "سعد" إلى الذهاب بنفسه للجربوع تاجر اللحم، ومر من أمام محله القابع بمنطقة السيوف، ما زال يجلس على نفس الكرسي البلاستيكي يدخن الشيشة ويعطي الأوامر لصبيانه، لكنه لم يذهب ليسلم عليه، فقط مر ليطمئن هل هو ما زال يستنشق الأكسجين أم أن ملك الموت كان له رأي آخر، وكان بصحة جيدة تظهر مدى سطوته وسيطرته، ويستشري به عرق المروءة وتسأل أين هذا الرجل من ابنته؟ هل يعلم ماذا تفعل؟ حيث إن "الجربوع" ينهر مسألة المخدرات، حتى إنه إن علم أن أحدًا من صبيانه الذين يعملون عنده بالمحل يشرب الحشيش يصفي عمله فورًا، ويعتلي منتصف جبهته زبيبة صلاة من كثرة السجود، عيبه الوحيد تدخينه الشيشة، والعصبية الزائدة، يشخر كثيرًا في أثناء النوم لكن إجماليًّا هو رجل رشيد.

أخذ الوسواس يلعب بعقل سعد ويقول له أن يذهب لإخبار الجربوع لما رآه، ظلت تلك الفكرة تراوده لأيام لكنه عدل عنها وفضل الصبر وقال إن الوقت سيثبت له أشياء أكثر، ربما هذه البنت مرغمة أو مغلوبة على أمرها، وعليه المكوث أكثر والانتظار ليوم استلام أمواله ويستخبر عنها، إن الجربوع رجل خشن الطبع صعيدي الهوى قد يؤذي ابنته أو يحبسها بالبيت حتى تموت جوعًا، أو يوفر هذا العناء ويطلق رصاصة عليها ويرتاح منها خاصة أنه سوابق وله سجل إجرامي بأيام

شبابه، فقد حضر له مشاجرة بمنطقة (العجمي) وقد ضرب شاب برشاش كان يخبئه بجلبابه الفسيح، تحدثت الإسكندرية كلها عن تلك (العركة)، وعندما خرج من السجن ارتكب جريمة أخرى بأحد منافسيه بالسوق، حيث أرسل صبيًّا من صبيانه وضرب عجلًا بمطواة في بطنه لبسط سيطرته وإثبات مكانته مرة أخرى، انقلبت الحادثة إلى عركة هائلة أفضت إلى الصلح ودفع ثمن العجل، ومن وقتها وهذا الرجل يهابه الجميع، ربما زبائنه يشترون منه خوفًا، وليس لشراء اللحم، هذا احتمال سخيف لكن كل شيء وارد.

حشر سعد احتمالًا غريبا، وهو أن ابنته تعمل بهذا الأمر تحريضًا من أبيها، لمَ لا يكون هو المحرض؟ وقال إنها صغيرة ولم يشك أحد بها، فلمَ لا؟ لكنه أزاح تلك الفكرة، كون هذا الرجل يخاف جدًّا عليها، فقد جمعهم لقاء كانت عزة حينها صغيرة، وعندما وقعت بالأرض دون قصد هرع نحوها وحملها يقبلها من يديها وهي تبكي، ثم رجع وهو يحملها ويضعها بحجره، فما حدث عالق بعقل سعد، كيف وهو بالنهاية أب، ثم تراجع بقسوة بعد مناوشات بأفكاره وأفضت حالته البقاء على مسافة.

الفصل الثامن

استفاق من نومه يدغدغ الصداع مخه، تحسس ملابسه فوجدها مبتلة وكأنه كان عائمًا لساعات، ونزيف من الأنف أصابه بالفزع مع انتفاخ عينه اليسرى، ثم قام ونظر للمرآة فوجد حاله لا يسر، ملأت آهاته الغرفة ممسكًا برأسه من الوجع، كانت كل ثانية تمر وكأنها سنة، الوجع لا يحتمل، فتح الدولاب واستبدل ملابسه داعيًا الله أن يكون بخير، وفي أثناء خروجه اصطدم بكوب زجاجي فهوى متهشما لكنه لم يلتفت وأكمل، أزاح الباب ونزل السلم بحذر شديد، الرؤية كانت ضبابية، سارع ليصل لمن يقدم له الراعية، كان الطريق طويلًا وكأنه سرداب، يرى سحابة سوداء وضيقًا رغم اتساعه، انخطف بأحد الشوارع ليصل لوجهته يسند بأي شيء لاهثًا فقال:

– أنقذني، لا أستطيع التنفس!

فأجلسه الطبيب وأحضر له كوبًا من الماء وجهاز قياس الضغط وقال:

– اهدأ ستكون بخير.

لف السوار على ذراعه، طلب منه الاسترخاء، وبدأ عملية القياس وسط صمت وصوت المنفاخ.

– ضغطك مرتفع جدًّا.

فأحضر حبة ووضعها تحت لسان محمد فذابت وانسحبت درجات ضغطه الشاهقة، وعادت سجيته ببطء، وانتشل عافيته.

وتعامل الطبيب بحكمة ويسر وخبرة رغم صغر سنه، بالإضافة إلى أنه صديق لمحمد منذ الطفولة، فعامله بعطف أكثر ولين من الوهلة الأولى.

التحق بكلية الصيدلية، أما محمد حاصل على الدبلوم بشق الأنفس.

– ماذا أكلت؟ ولمَ لا تتابع ضغط دمك؟

رد محمد لاهثًا يتصبب عرقًا: أنا شاب يا سامي، لماذا أقلق حالي بتلك الأشياء؟ ما زلت بالثلاثين من العمر!

– وهل هذا معناه ألا تهتم بصحتك؟ الحشيش، إنه هو من فعل بك هذا، هل هناك أحد من عائلتك يعاني من الضغط؟

قال محمد وهو يرمش مجربًا كفاءة عمل جفنه:

– لا، لهذا لجأت إليك، قل لي ما العمل؟

– اذهب للطبيب مباشرة، ليحدد الدواء الملائم.

– الله يلعن أبو الأطباء يا أخي، لقد تعبت، أنا منهك من العمل، وأصحو على صداع شديد وحالة متدهورة، أتعلم بكم كشف الطبيب لهذه الأيام؟

رفع الصيدلاني حاجبيه ثم قال محذّرًا:

– عجيب أمر هذا الشعب، ينفق المئات في السجائر والحشيش ويتكاسل للذهاب للطبيب عند المرض! محمد، إن لم تذهب سيسوء الوضع وقد تصاب بما هو أسوأ، عليك باتباع نظام غذائي وليس كل شيء يؤكل مثل الأكل المالح والمخللات والأكلات التي تحتوي على دهون عالية، وأنت تاجر أسماك إذًا، لا تملّح السمك بضمير يكفي ملحه.

– أنتم الأطباء لا تعلمون شيئًا، أنا لا آكل كثيرًا، طقة واحدة باليوم، قطعة جبن مع رغيف عيش.

ابتعد سامي الصيدلاني قليلًا وجلس أمام جهاز الكمبيوتر الخاص بالصيدلية ثم قال:

– أو ربما التفكير أحيانًا يؤثر على الضغط، فربما يعلو ويهبط نتيجة ضغط عمل.

قال محمد سارحًا كالعشاق:

– وأي ضغط يا أخي، إنها حمالة أثقال، بطلة ثقلها ذهب!

– ماذا تقول؟

– لا شيء.. شكرًا لك يا صديقي، أشعر بتحسن الآن.

اتصل بحامد وقال له أن يحضر بالمقهى الذي تقابلا فيه مرة أخرى، ثم أوقف تاكسي والذي تغير مزاج سائقه حينما رآه، وكأن مخلوقا قبيح الشكل قد ركب معه. فسأله السائق:

– هل أنت بخير؟

ليجيب محمد بنبرة حازمة:

– ليس من شأنك، سر بلا صوت.

سمع كلامه السائق وحاول إشعال سيجار، لكن محمد أمسك السيجارة ورماها بوقاحة.

– أنا متعب، ألا ترى حالي أيها الوغد؟

نال الخوف من السائق وحسب أن محمدًا قد يؤذيه ويأخذ منه التاكسي كما حصل لأخيه عبد الرازق الذي حوال تثبته بلطجي بسكين، فرفض، فغرزها ببطنه وقفز هاربًا، ودارت التخيلات والتصورات بالسائق الغلبان.

– ما اسمك يا حاج؟

– محمود.

دنا محمد وقبّل رأسه قائلًا:

– هل من الممكن أن تكمل دون كلام؟ رأسي ينفجر، أريد بعض الشاي لأعدل مزاجي، وأنت تخرب رأسي أكثر وأتألم أكثر من الصداع.

– لا تؤاخذني.

وصل لوجهته وحاسب السائق فقال بطيب قلب:

– لا تزعل مني يا أبي لأني كلمتك بأسلوب سيئ، أنت لا تستحق ذلك يبدو على وجهك البركة مثل أبي الله يرحمه.

– لا عليك، ربنا يستر طريقك.. السلام عليكم.

– وعليكم السلام.

شعر محمد بالندم ولسان حاله يقول يا ليتني تأدبت بالكلام، فهذا الرجل مثل أبي حارب شيخوخته ليرتزق من الحلال فكان لا داعي بالتعالي.

مشى إلى أن جلس بمقعد خفي عن أعين الناس، استعلم عن الساعة بهاتفه وقال وهو يخبط على فخذه وأصابته النرجسية مرة أخرى، الوجه الآخر وجه الشيطان بعد أن نبتت به بوادر ملائكية: أين أنت يا حمودي؟ أين أنت يا حامد بية، وكأنه سمعه وحل عليه كالمارد.

– عذرًا، الزحام هو السبب.

– ادخل بالموضوع، قل ما عندك، مر شهر! تلك الأيام كافية لتخزين زكيبة من أخبار سعد، الله يسعده.

– صلِّ على سيدنا محمد.

– عليه أفضل الصلاة والسلام، هاه؟

– الرجال الذين أخبرتك عنهم الذين قابلو سعد بالبحر، جاؤوا من قرابة شهر إلى السوق وقفلوا باب غرفة عليهم وبدؤوا بالتشاور، لكن هذا ليس شيئًا لما جرى وقلب السوق رأسًا على عقب.

تنحنح محمد وقال بلهفة: ماذا جرى؟

– حدث شجار وسرق بعض الأفراد طاولات من السمك وهربوا، وتقريبًا سعد يشك بك!

– أنني السارق؟!

– كل رجال السوق أشاروا إليك واتهموك إنك الفاعل انتقامًا لما حدث.. هل أنت من فعلت ذلك؟

أشعل محمد سيجارة وسحب نفسان، وكان كف حامد يتكئ على الطاولة الخشبية فأدفس محمد السيجارة المشتعلة بكف حامد المسكين، فعلت صرخاته وانتبه من حوله للصوت.

– لماذا فعلت ذلك، يا حول الله يا رب، ماذا أفعل أكثر لأرضيك؟

بحلق محمد به والغضب يملأ عينه:

– اتفقنا على أن تطلعني بالأخبار بالثانية والدقيقة، ولكنك خالفت الاتفاق.

– وهل أنا عبد عندك؟

– حاشا لله، أنت أقل من ذلك، أنت فسل، مدمن للشابوه!

– ماذا؟ ما الذي تقوله!

لوح محمد بورقة، محضر قسم شرطة كوم الدكة لحيازة مخدرات (مخدر الشابوه) عليه بصماته وتوقيعه، وقال هذا لك.

فقفقت شرايين حامد كأنها ماء تغلي ثم قال بحرص:

– من أنت؟ كيف حصلت على هذا؟

– أنا من يسأل هنا!

– ضابط؟ أنا قلت إنك أحد الضباط، وربما لك نفوذ لتظفر بهذا.

زام محمد قائلًا:

– استنتاج ليس بمحله، لم ولن تعرف شيئًا عني أيها المدمن.. أكمل، ماذا حدث بسوق السمك؟

ازدرد حامد ريقه بعد أن شعر بانحصار وكأن صخرتين قد انطبقتا عليه ثم قال:

– على ما يبدو أنهم جاؤوا بمصلحة، كانوا يريدون منه تدبر أمرهم.

– من خلال سعد؟

تبسم محمد ونظر لما بين أرجله وقال بوقاحة: أترى هذا؟

فدقق النظر وتعجب قائلًا: ماذا؟

– هذا قضيبي، سأجعل رجلًا يمصه إن نجح سعد في إكمال مهمة معهم، هذا العجوز لا يقوى على الحركة ويعرج كالمبتورين، أتعلم من فعلها؟

– من؟

– البلطي.

قطب حامد ثم أخذ ينظر حوله قائلًا:

– أتقصد البلطي تاجر السمك المعروف؟ أم أنك تمزح؟

– لا، إنه البلطي معلم السمك، الرجل الستيني ذو الشعر الأصفر الذي يشبه البرتقالة من عرب العجمي، فعل ذلك بعد أن حرقتُ مركبته، حسب أنه فعل مدبر لكن المراكب معرضة للاحتراق من الحرارة أو الموتور الممتلئ بالجاز والسولار.

– ولماذا شك بسعد بالتحديد؟

– لأنه وسخ، لا أحد يطيقه بالسوق، يظن أنه قيصر وهو خسيس!

ضرب الطاولة ثم قال بعد أن رصد حدقة عين حامد كالصقر قائلًا: لكن هذا ليس كل شيء، هناك أمر آخر.

– ورحمة ابني لا أعرف أكثر من ذلك!

انتصب محمد وقال بضيق: تكذب مرة أخرى؟ ماذا عن ذهابه ميامي ومقابلة امرأة هناك ومقابلتها وتسليمها شنطة؟ قبلها أخذ تلك الحقيبة من طفل قابله بمزلقان باكوس، ألم نتفق على أن تراقبه كظله؟

– أنت تعرف كل شيء! إذًا لماذا تريدني؟ ثم نهره بصدره قائلًا: ابتعد عني، أنا صاحب مرض!

وقبل أن يستدير قبض محمد على كتفه قائلًا: لقد حضرت لك مفاجأة، اقترب عيد العمال ويجب أن نحتفل.

– كيف حالك؟ قالها سعد بعد أن أحضر كرسيًّا من ورائه لكنه لم يجلس!

انتفض حامد من مكانه بفزع، وانكمشت عروق حنجرته وقال بمفزوع: أناااا أناااا...

– أنا بعشقك أنا، أنا كلي لك أنا (الشحرورة)، مغنيتي المفضلة.. قالها محمد بعد أن تركهم وراح للتبول.

– ما الذي أتى بك هنا، ولماذا تتأرجح كالسكرانين؟

– سأحكي لك كل شيء.

وقبل أن يردف قاطعه محمد قائلًا: حامد هنا للعمل معي بالتجارة، أنوي شراء فرن وتأجير محل والعمل برمضان وأحتاج إلى رجال، موسم وأنت تعرف كل سنة وانت طيب.

– نعم مثلما قال.

قهقه سعد فترامت عليه النفوس منتبهين:

– حلوة، أين ستفتح المحل؟ بطني تحب الكنافة والقطايف، ويا سلام إن فتحت جنبه محل للعصير، خروب وعرق سوس وسوبيا، كم أنا واهن أمام الشهر الكريم، كل سنة وأنتم طيبين مقدمًا، لا تنسَ تعليق فانوس رمضان.

– يقولون إن مع التقدم بالعمر يصبح العقل أغبى، لكنك ما زلت تحتفظ بعقلك بحال مقبول..

قالها محمد وهو ينفس دخان الشيشة الذي وضعها (القهوجي).

كتم حامد وشمّ رائحة الخيانة التي جابت مجلسهم.

أردف محمد:

– رجلك الموقر يتسلط عليك، وأحضرتك هنا ليس لمحبتي فيك وكشف أمره لا، هذا كله كلام فارغ، أنا هنا لأثبت لكم أنكم أولاد كلب!

ثم رفس كرسي سعد فافترش الأرض وأخرج سكينًا من بنطاله كان قد خبأه، ولوح بالسكين بوجه حامد الذي تطايرت قطرات دمه، ثم اقترب من سعد وشج السكين بساقه اليسرى فانبعث دمه قائلًا: أنت السبب.

ثم لوح له بصورة، كان لابنة سعد الوحيدة، طفلة لم تتجاوز الخامسة عشر، والتي رزقه الله بها بعد محاولات من الولادة إلى أن تكونت بفعل الحقن المجهري.

نزلت دموع سعد، وبدا على غير حاله قائلًا بتوسل: أقبّل يدك إلا هذه، هذه الحسنة الوحيدة التي بحياتي.

– احفر قبرها واحجز جنازتها إذًا.

هرع محمد من المقهى واختفى كفص الملح في الماء، تجمهر الناس عليهما يصرخون ببعضهم قائلين: الإسعاااف، أحضروا الماء الرجل يموت.

والبعض كان يشاهد كأنها بروفة فيلم. كان حامد مغشيًّا عليه ينزف من خده إلى أسفل رقبته، وانهار سعد ببكاء وانكسار غافلًا ألم الغزّة.

خاض محمد بالبغي وسلخ إيمانه ورمي رحمته أرضًا، واستكبر وقصر حبل توبته، وخط ملاكه ذنبه بخط أحمر، وشاهد الزمن خطيئته متحسرًا على غفلته، ولِمَ الجلبة؟ هذا طبع البشر، متحور وغير مستقر، هذه غريزتهم من يوم أن قتل قابيل هابيل.

***

اهتزت الأرض لقدوم شريط الترام لوجتهه (محطة باكوس) مكان مقابلة تالار وعادل، كان عادل يقف بالمحطة منذ العاشرة صباحًا يقرأ في الجريدة، هذا الشاب الولهان والمولع بالشابة الأرمينية، أحمر جلده، وجلت به أعراض الحساسية، حيث إنه يعاني من بعض الأكزيما لكنها ليست بالخطيرة، وقد زادت الشمس الطين بلة، جلس بالمحطة يهرش جلده وعزم على الصمود، إلى أن تأتي معشوقته.

– ماذا بك؟ هل أنت على ما يرام؟

– أنا بأحسن حال تقريبًا، الشمس تسبب لي حساسية وأنا أنتظر شخصًا ربما سيأتي قريبًا، فدعاه الرجل لدخول محله وشرب قازوزة، فوافق عادل خاضعًا لإلحاح الرجل، رفع غطاء الزجاجة وأهداه إياها بترحاب، وعندما مد يده لاحظ عادل خاتم بيد الرجل ملفت جدًّا، عبارة عن مثلثين متداخلين بمنتصفهما حرف الG باللغة الإنجليزية، فأبدى عادل رغبته باقتناء واحد مثله.

– الخاتم رائع.

بمجرد قوله هذه الكلمة دارى الرجل الخاتم وكأن عادل سيسرقه!

كان عادل يراقب المحطة من مكانه، ظهرت تالار بفستان خلاب أبيض مطرز بعناية وقبعة حمراء وقفازات من الحرير الأبيض ممسكة بحقيبة باهظة أرجوانية، فبدت ناصعة!

– أتعلمين، إن كنتِ لم تأتي في خلال عشر دقائق كنت سأرحل.

سألت تالار:

– من حدد المكان والميعاد؟

– أنتِ.

– إذًا كيف سأخلف كلامي؟

– تبدين فاتنة اليوم، أقصد وكل يوم، الصراحة أنت دائمًا فاتنة!

احمرت خدودها البيضاء خجلًا، ثم قالت:

– هل من اقتراح لمكان نذهب إليه؟

رد عادل بتلقائية وحماس: أي مكان تريدينه؟

اقترحت:

– ما رأيك بالمقهى؟

افتر قائلًا: ولِمَ لا؟ هيا بنا، هناك مقهى اسمه (بول) سيروق لكِ.

– هل مشروباته بجودة جيدة أم سننتقل أنا وأنت للمستشفى؟

قال مازحا بعد أن اكتنفته حالة من السرور:

– ربما، الأعمار بيد الله.

– الله يطمنك.

بعد أن جلسا بالمقهى طلب كل منهما اثنين من عصير الليمون، وران سكوت لدقائق، لكنه تلاشه بعد طرق عادل الكلام:

– يبدو أننا نحتاج إلى الوقت لنأخذ على بعضنا البعض.

قالت تالار محطمة خجلها:

– لِمَ لا تدع الظروف تقودنا؟

– صح، إذًا أخبريني، تقريبًا أنت تعرفين مَن أنا، أليس كذلك؟

– لماذا؟ هل أنت مغنٍّ؟ ممثل، لاعب كورة؟

– أقصد من (محل الفساتين)!

– آاه، لا لم أفتش وراءك، ولم أفكر فيك حتى! لكنك تروق لي.. سأتيح لك الفرصة، وربما نكون ملائمين. أنا لست مغرورة، اعذرني، إنها رهبة لقائك لا أكثر، فلست من النوع الذي يهوى الجلوس مع الرجال، متحفظة جدًّا مع كل الناس.

– أفهم.

– اسمي تالار، خريجة كلية العلوم، أبي رجل أعمال وأمي ربة منزل، جاء مصر قبل ثلاثين عامًا هو وعمي وأبوه هربًا من أهوال الصراع الأرميني التركي، واستقر بالإسكندرية وتزوج أمي وأنجب، وجئت للدنيا وتبعاني أخواتي.

– إذًا أنت من أب أرميني وأم مصرية؟

– أنت ذكي ما شاء الله ما شاء الله، خمسة في عين الحسود!

انفجر عادل ضحكًا وتماسك بصعوبة ثم تابع:

– آسف أكملي.

– أتعلم أنني أصبت بالخضة.. ضحكتك أفزعتني! لكن تدوم الضحكة.

– هذا إطراء جميل منك. ثم عدل رابطة عنقه: إحم إحم، أنا عادل كاظم، عمري ثلاثون عامًا ولديّ أخ واحد، نمتلك عدة فنادق وعقارات، وأنا أعمل مديرًا إداريًّا بعدة فنادق، لكن هناك بعض المحال التي أجرها باهظ، أمر عليها بنفسي لتحصيل الإيجار. وأيضًا أصحاب هذه المحلات يماطلون.

– ولهذا؟

– ولهذا رأيتني بالمحل. وكانت أجمل صدفة بحياتي، يا ليتني كنت أجمع الإيجار بنفسي منذ زمن، أتعلمين الرجل المسؤول عن تحصيل الإيجار بتلك المنطقة نقلته لمنطقة أخرى وكان عليّ التحصيل بنفسي.

خلعت قفازاتها في حرج ثم قالت:

– وتقابلنا، وماذا بعد؟ قبل أي شيء أود إعلامك أنني لست موافقة، يجب أن نختلط أكثر ونشارك حياتنا.

– عين العقل.

– اسمع يا عادل.

– ماذا قلتِ؟

– قلت ماذا؟

– هذه الكلمة.

– عادل!

– أتعلمين أنه أجمل نطق لاسمي قد سمعته بعمري كله، ربما علي تسجيله!

ضربت كف على كف واعتراها الذهول الممزوج بالخجل ثم قالت:

– عليك بالتوجه للمورستان، اسمع، علينا التخطيط جيدًا إذا نوينا الإكمال، الأمر ليس سهلًا، ديانتنا مختلفة وهناك عراقيل.

– سأمحي أي عراقيل قد تواجهنا، لدي سؤال: كم عمرك؟

– أربعة وثلاثون.

– أنت أكبر مني، وأشعر أنك صغيرة بالعشرينيات!

شهقت ببطء ثم قالت: عادل، إذا لم يوافق الأهل فلا يجب أن نستمر.

– وما شأن الأهل؟

– الأهل هم الأساس، لا نقدر على المواصلة بدونهم، كيف سنحطم كل تلك القيود؟ وإن تم هل سيتركوننا؟

ثبت كفه الأيمن على صدره ثم رد:

– أنا ميسور الحال، ولدي عمل وفيلا أسكن بها بمفردي، معي كل شيء لنكون بمفردنا.

انكب القهوجي متدخلًا بالحديث بوقاحة:

– سمعت كلمة عمل، بالله عليك يا بيه إن كان لديك وظيفة لابني "بلية" سيكون جميلًا فوق رأسي.

– هل تعرفه؟

– أول تارة أراه.

ثم انضبط عادل بعد أن كان مرتخيًا في الحديث مع تالار وقال:

– وما هي شهادته؟

– يقرأ ويكتب لكن شاطر. هو ثقيل قليلًا بالحركة لكنه نبيه، واد يعجبك.

– حسنًا هذا العنوان، دعه يحضر.

ثم انهال القهوجي على عادل بالدعاء وكان ينقص الصلاة له، وكأن باب السماء قد فتح له للعبور فقد كان يبحث بين الزبائن عن رجل ينفع لحل عقدة بطالة ابنه المعاق، حتى ابتعد وعينه تترقرق..

قالت تالار:

– أنا أرى فيك شيئًا ليس بغيرك، أرى بقلبك رحمة، وطيب خلق، عندما رأيتك شعرت أنك نادر، ومعدنك أصيل، ثم سألت: ولماذا أنا؟

– احتللتِ عقلي واستسلمت كآخر معاقل الروم، أنا أتعامل مع نساء كثيرات لم تشدني امرأة مثلك! أتعلمين هذا الشعور الذي لا يوصف بل يحس، هذا الشخص الذي يربط قلبك بحبل روحه لتتعلق به، إنه أنت، ولهذا ها أنا ذاك بعد هذا العمر بلا أنثى تحتويني، أخي وأبي كان يلحون والأمر وصل إلى القطيعة من جانب أبي.

– وأين أمك يا عادل؟

تنهد ثم رد بعد أن انقلبت سجيته حزنًا:

– يا ليتها هنا، يا ليتها معنا الآن.

– أنا آسفة.

– لا يهمك، لقد ماتت بالسرطان، أخذت تصارعه عشر سنوات، ذهبنا إلى كل أطباء الدنيا، سافرنا بها بلاد الله وجبنا لكن الله كان يريدها، كانت جميلة.

– هون عليك، هي الآن بمكان مريح حيث لا يوجد ألم ولا مرض.

وضعت أوراق كوتشينة على الطاولة ثم قالت: هل تود اللعب؟

أعجب عادل بروحها الخفيفة الحماسية، فقد اعتقد أنها معقدة تعاني من الجمود العاطفي أو كحال امرأة شرقية ليس من السهل أن تكون بذلك الصفاء نحو الرجل، وأن الصورة المعلقة على جدران مجتمعاتنا معنونه بداء العادات والتقاليد، وهز رأسه بالموافقة ثم سألها:

– هل أحببت رجلًا قبل ذلك؟

أجابت وهي توزع أوراقه: نعم، أحببت رجلًا...

ثم توقفت، فلاحظ عادل:

– إذا كنتِ لا تريدين التكلم بالأمر لا مشكلة.

أخذت نفسًا عميقًا ثم قالت: هذا حقك، بما أننا سندخل بعلاقة يجب أن تعرف عني، ولكني سأحكي لك أشياء بسيطة، ومع الوقت نكتسب الثقة ومن ثم أخبرك بالمزيد عن أهلي وأخواتي.

كان هذا بالكلية، شابًّا من الصعيد عنده غمازات، عذرًا لذكرها لكنها كانت تعجبني حتى إنني كنت أناديه يا (أبو غمازات)، أبوه كان عمدة في قريته، وكان هنا للدراسة، كان شاطرًا جدًّا، أجده دائمًا يشرح لزميل أو زميلة.

– إحم، أنت لا تغارين؟

– لا، كان حجر الأساس وصلب علاقتنا هي الثقة، بالطبع كنت أغار قليلًا لأن معجباته كانوا كثر، ولازمنا الشجار لأيام عن (هذه الفتاة لمستك البارحة)

و(تقول لك تعال اشرح لي بالبيت، هل تعمل معيدًا بالجامعة أم ماذا؟)... أشياء تجعل أي امرأة تفقد أعصابها، هناك ثقة وحب لكن أكره التملق.

– إذًا كانت علاقتكم متوازنة، لماذا تركتم بعضكما؟

– كان يطمح بعد انتهاء الدراسة التقدم لخطبتي ثم الزواج والذهاب معه إلى أسيوط مدينته، وهذا ما رفضته.

– راهن على حبكم بأن تذهبي معه؟

– الأمر ليس متعلق بالحب هنا، هذه حياة أخرى لا أقوى على التكيف معها، أنا أدرى بحالي، وما خنقني هو إصراره على تلك الفكرة.

– هل حاول؟

– كثيرًا.

زحزحت كرسيها وقالت باستعداد:

– وأنت، ماذا عنك؟

الحقيقة لم أخضع لتجربة حب من قبل، كانت كلها نظرات إعجاب أو (مشاعر هوائية).

سأعتبر نفسي لم أسمع شيئًا، انظر لحالك! وسامتك جعلت من حولنا ينظرون إليك منذ أن كنا عند شريط (الترام).. أف، هكذا سنتعب معًا!

– كم امرأة أعجبت بها؟

– ثلاثة.

– ستحكي لي عنهن، أما الآن علي المغادرة.

ثم وقفت وحملت حقيبتها ولملمت الكوتشينة.

شرد ذهن عادل قائلًا: إلى أين؟ ثم رمق ساعته الفضية ما زالت الحادية عشر والنصف.

– إنني تأخرت وعلي الذهاب للبيت.

– هل أوصلك بالسيارة؟

– سأستقل (الترماي) ميعادنا الأسبوع القادم، لكن علينا التغيير، رائحة الدخان أعمتني، غير أن الليمون كان حامضًا.

– وهل يوجد ليمون غير حامض؟

– أعني فاسدًا قليلًا.. ربما سوء تخزين بالثلاجة، أنا أهوى القراءة، ولهذا لساني معوج، لكنها ملحوظة ذكية.

خرجت من القهوة على عجلة وقعد عادل يفكر، اختفت تلك التكهنات أن تالار امرأة غير ودودة، لكنه لم يضع اللمسات بتكوين رؤية حول شخصيتها، كون الأمر ما زال ضبابيًّا، وأصابته لعنة الاختيار، اختيار الحبيب، هل هذه المرادة؟ أم لا؟ هل هي مشاعر هوائية مثل سابقها؟ أم أنه باب أخير يشع أملًا، دارت وجابت تصورات عنها تفوق السماء السابعة، وجزع أظافره يحسب ويجمع ويطرح كأنها عملية حسابية، هل لحست تالار عقله أم أنها رهبة الغرام، وما حكم الدين؟ بحكم

الإسلام فالأمر جائز، وبحكم الإنسانية فهي تجيز، يا له من إحساس يشل التفكير، هذا الإحساس الذي يشرد المخ مثل الأدوية الذهنية، ولصق بعقله شيء آخر، وهو أن أبوه قد يرفض الأمر، وأن عليه الجواز من نساء دينه، عليه البقاء ثابتًا لمناطحة خلل والده كونه ثورًا بقرون حادة، وأن يتلاعب به مثلما يفعل مصارعو الثيران، لكن أباه قد يخدعه وينطحه بقرنه ويجثو على الأرض غارقًا في أحلام اليقظة وندب الحال.

وإن العول على أخيه فهو المفتاح لاستمرار مسعاه، يأخذ صفه ويتبع خطاه، ويكون له عونًا وكلمة، والكلمتان ستكونان قويتان، ويتقهقر الأب منفذًا رغبة عادل.

الفصل التاسع

كانا برحلة للشام لعرض بضاعتهما من المعادن غالية الثمن، صارت الرحلة بقدر مثالي، ومن مساوئها المرهقة، الوقوف بالشمس والتحايل والتلون بسوق الأستانة لنيل رضا القوم، وبعد هذه المشقة ظفرا بالمال بطلوع الروح، فقد سلمهما ابوهما "ميكويان" بائع الصاج والأواني، ومصنعها تلك البضاعة لتكن الرحلة الأولى لهما ولكي يفطنان "نيل لقمة العيش"، فعظامهما المراهقة ستغلظ وتكبر بشيل المعدن وبالتحمل ومعرفة سير الدنيا، كانا بريبة وتوجس فتراب الصحراء لم يعرفهما قط، وأبيارها تجهلهما، فكانا مكتنفان بقريتهما إلى سن الرشد.

لقد نال (ميكويان) ثقة أبناء القصر العثماني والفارسي بمشغولاته المعدنية فذاع صيته، وتشعبت معادنه بكافة الأسواق والقصور وتعرف بجودتها القاسية.

في يوم كان برحلة تجارة مصطحبًا تيغران أخاه، فجأة رميت الأحجار المسننة كالأمطار عليهما مع بضع طلقات تجنباها، وشكرا المسيح لتفاديها، ثم هرولا مبتعدان حاملان بضاعتهما وهي أوانٍ نحاسية وفضية ملفوفة بقماش.

وارتقى الأدرينالين بدمائهما، وكانوا يلاحقونهما بالبنادق والعصي والسيوف مدججين بالشر والبغض الأهوج، كانا لا يعلمان لماذا يفعلون ذلك وما خطيئتهما إلا عندما سمعا صراخهم يقولون (اقتلوا المسيحيين الأرمن الملاعين)، ضربت حجارة رقبة تيغران فتألم، لكن الخوف بلد جلده وتابع الجري، احتما بالقرية آخذين أنفاسهما بمرارة القلق، فرآهما أحد أقارب والذي أخبرهما بأن القرية محاصرة من الترك، ولا هدنة ولا سلام ويريدون نساء القرية، سخط هاروت وأقسم بالعذراء على فداء روحه لمن يتجرأ على المساس بنساء قريته، لثم خد أخيه الصغير مشجعًا إياه أنهم سيتخطان تلك الأزمة، ولجا بيتهما فوجدا أختهما تبكي، وحوائط البيت الطينية تبكي لهم خوفًا.

دمعت أعينهم أيضًا وربت هاروت على أخته وأمه مواسيًا، وطمأنهم، وصوت قلبه يخبره بالعكس، ستنشب الكارثة بالجميع، مزمجره كالضبع مراقبة فريستها، دوى صوت صراخ بالخارج، المجموعة التي كانت تجري خلفهم تحرق البيوت بِعصيان مشتعلة وتشد شعر النساء للأسر، والرجال فلا حول لهم ولا قوة، فهم عزل من السلاح، فهرب من استطاع لكن الأتراك حاوطوا الأغلب.

أُخذ البعض كَرَهينة، والنساء للمتعة بكل غضاضة.

أزاح أبوهم الباب فارتطم بالحائط، وحول رقبته الصليب وجلبابه ملطخ بالدماء، أمرهم بالهروب وتتبّعه فرضخوا له، تتبعوا خطواته وهم يدعون قابضين بكتاب الله المنجي، لم يمسسهم أحدهم، فهؤلاء المرتزقة دُفع لهم كي يتركوهم، فقد لحسوا الليرات كما يلحس الكلب العظام، ورحموا أسرته عاتقين وكأنهم آلهة

يقبضون أرواح من يشاؤون، ناشدتهم إحدى النساء وهي تبكي (أرجوكم ساعدوني لقد أخذوا ابني) لكن الأب أعطاها بعضًا من المال قائلًا: الله معك لكنها تعشقت بيده وجثت على الأرض تترجى فزجرها، فلا مساعي له، ولا حول له!

اعتلوا ظهر الجمال، أما الأم والابنة الصغيرة اللتان كانتا يرتعشان خوفًا فامتطا الخيل. ومن الشحيح تملك دابة بتلك القرية فنالها ميكويان لثرائه وفحش نفوذه، أشاحوا ظهورهم، فلا هذه أول ولا آخر قرية، بل إنها بداية لحفر قبور أكثر لضحايا بريئة.

ارتقت أرواح سكان القرية لمسيحهم، كانت صرخاتهم عالية وتمتزج صوت الصرخات بصوت البنادق وزعيق الترك ونحيب الأطفال.

صارت أحصنتهم وجمالهم يساومون برد الجبال، كان هناك عصي قد لمحوها من بعيد مغروز بها رؤوس، اقترب ميكويان الأب وهاروت، أما تيغران فأوصاه أبوه بلكنة حازمة ألا يترك أمه وأخته، ينسل الدم على العصي ليتجلط ويسود مع رائحة جلد متفحم نفاذة، وقد استنشق هاروت البعض منها فأفرغ ما بمعدته وتقيأ، لازمته ملامح هؤلاء الناس، وحفروا متسعًا بذاكرته الشابة، أخبره أبوه أنها قبيلة من الأكراد والأرمن كانت تعمل بالغزل، أجبرها الأتراك على العمل بالسخرة، قبلوا في البداية، ثم هوت شمس ريعانهم وانقلب ثورانهم إلى حمم دماء بعد أن نكلهم الترك وانتهكوا حرماتهم وأعراضهم، أخبره أبوه تلك القصة للتصدير لابنه الأكبر أن لا مفر إلا اللجوء وإن استحوذته الشجاعة والبطولة والجسارة بالانتقام فسيكون ذلك مصيره، وعندما وصلوا لمدن أبعد كانوا يطاردوهم بغشاوة، وسلبوا

أراضيهم ومحاصيلهم ودنياهم، واستمر الأمر بلا توقف، كان الأب له قطعة أرض بالشام حينما رجع وجدها تحترق فعلم أن الحارق كردي يمقت ما أسماهم (النصارى) فأشعل وجار وظلم.

ضاقت بهم الجبال والوديان والكهوف، وكانوا يبحثون عنهم ببقاع اليابس والماء، فاستقروا بفلسطين متوارين، لكن العين لم تبعد عنهم وظل الشر يطقطق أصابعه متحفزًا ويدقق بأي أثر بالرمال، يطوقون القرى بالدرك الحاملين للسلاح متأهبين للمناوشة والمكاشفة عن مدلول لأرمني.

نتفت أجنحتهم بعد أن كانوا يجنحون بأي مقصد فضغطوا من الأحداث الدامية، سرقة للقوافل وتعذيب وترهيب واغتصاب، وخطف ونحر للرؤوس، وملاحقة!

فاقترح الأب السفر لمصر فهناك قوافل متجهة إلى هناك، لكن عليهم الرجوع لتركيا حيث تجارته، وتصفية ممتلكاته حتى ولو برخص التراب والظفر بالمال فلا مفر، رغم خوفه من أن يؤذى كما أحرق الكردي أرضه بالشام وأن ينتهي مصيره بفظاعة، قوبل اقتراحه بالرفض من الأم وابنته اللتان كانتا مصابتين باضطراب ويرتعشان من القلق.

مرضت الفتاة ذات مرة (أرتين) ذات الشعر الأصفر والعينان الخضراوان، ازرق وجهها وتشققت شفتيها وخفقت قلوب اخواها وتوسلت الأم رافعة يديها لشفائها وبدأت بالصلاة.

وقف هاروت أمام أخته يعتصره الألم ثم اقترب وحاول تقبيلها لكن أخاه منعه قائلًا إنه مرض معدٍ وعلينا التعامل بحذر، فكان مهتمًّا بكتب الطب من صغره.

نادته أرتين قائلة: "صلِّ لي يا أخي وسأكون بخير".

كررت الكح فاستشعر هاروت أن الأمر بدأ يسوء.

– أرتين أختي، هل أحضر لك الماء؟ أرتين... أرتين...

ثم استيقظ من ثباته العميق وهو ينادي اسمها الذي تشبث بلسانه وأخذ يستجمع أنفاسه فاستيقظت زوجته بفزع قائلة بصوت هائم:

– هاروت، أنت بخير؟

قال وهو يدعك رقبته لاهثًا: كابوس، إنه كابوس.

فقامت زوجته وملأت كوبًا بالماء الفاتر وقدمته له ليشرب ثم رسم الصليب حامدًا.

– الحادثة؟

– لا غيرها!

إنه الكابوس الثاني بهذا الشهر، ذهب للطبيب النفسي والكنيسة واستشار وسافر لأمريكا لمصحة هناك، لكن بقيت علامات الحادثة بنفسه المتزعزعة.

– لقد طفح الكيل، لم أنم ثانية!

– ستنام، وستكون بخير..

ثم مالت إليه ورفعت اللحاف وغرق بالنوم يغمغم...

***

بأحد فنادق الإسكندرية بمنطقة الإبراهيمية، فندق على الطراز المصري المعتاد الخالي من التفاصيل، عدة طوابق فوق بعضها، وقد بناه وصممه مهندسون مصريون، حيث لا شيء مميز بالخارج، فتجد بالداخل صالة تحمل معايير الرقي وكيف هو التناسق بين صالة الاستقبال والغرف المجاورة والأسانسير! وكيف يستقبل العاملون الزبائن بالمشروب الخاص بالفندق الذي يقدم كهدية استقبال!، وكيف هو بالخارج به شح بالتفاصيل !والبناء عادي الطلة !

كان ذلك فندق من عشرات الفنادق التي يملكها والد عادل أباظة بيه الكبير، أحد أفراد عائلة أباظة المالكة لإمبراطورية الفنادق بالإسكندرية والقاهرة، كان عادل مجهزًا لإخبار والده بأمر تالار، لكنه كان قلقًا قليلًا ففتح موضعًا مثل هذا أشبه بفتح فوهة بركان!

– إنها رائعة يا أبي، كيف لك أن تبصر ضحكتها وطيبة قلبها دون أن ترد إليك روحك وينتعش وجدانك، أود لو تتقابلا بيوم ما، بالتأكيد ستكون سعيدًا لرؤيتها، إنها أرمينية يا أبي، اسمها تالار، هل تعرف ما معنى اسمها؟ يعني الخضرة والزرع، تقابلنا مرتين، مرة بمحل ماركو ومرة بالكنيسة، لديها أختان يشبهنها، وأبوها رجل أعمال مثلك و...

قاطع أبوه كلامه قائلًا بوجه عابس:

– مسيحية؟

– بالفعل.

– لكنك مسلم على دين محمد صلّى الله عليه وسلم، لماذا؟ اختر واحدة منك، من دينك هه! ماذا أقول للناس، ابني يريد التزوج من امرأة مسيحية؟!

امتعض وجه عادل معلقًا:

– تبًّا للناس (طز)، هل أتزوجها هي أم سأتزوج الناس؟ ثم يا أبي ديننا سمح لنا بالجواز من المسيحيين فلا مشكلة!

قال أبوه الذي تبددت ملامحه وكأنه أتاه بخبر وفاة:

– لا، أنا لا أقبل أن تتزوج امرأة من دين آخر، نعم مسموح بالدين لكنك إن بحثت ستجد الكثير، ومن الأولى أن تتزوج بامرأة مسلمة، ثم سحب غليونه الأسود من درج بمكتبه وأشعله وتابع حديثه: وتنجب منها أطفالًا وتذهبان للكنيسة ثم يصبح الأطفال مسيحيين؟ تسمي هذا مينا وهذا مايكل! ما هذا العفن الذي أصابك؟ كنت أظن أنك أتيت لإلقاء كلام موزون، لكن عقلك فسد!

– سيكونون مسلمين يا أبي لا تقلق، مثلنا فقط، وافق أرجوك.

– وكم عمرها؟

– بعمري تقريبًا.

تبسم أبوه بخبث قائلًا:

– بعد هذا العمر تتزوج امرأة من دين آخر، لقد عرضت عليك أجمل النساء، وكنت ترفض بحجة أنهن غير مناسبات، بعضهن جميلات أثرياء الشرق، مسلمات

عفيفات بديننا الجليل، أنا أرفض، وإن عاندت لا تدخل مكتبي مرة أخرى.. أخوك بالخارج، اعرض عليه الأمر، أقسم بالله سيبصق على وجهك.

– لا، أخي أذكى من كل هذا، سأكلمه.. عن إذنك.

وقبل أن يقوم ويغادر قام أبوه ثم وقف وراءه بمشهد درامي، وأمسك كتفه منحنيًا وقال:

– عادل، أحذرك، لا تنصَع لهذه المرأة، ربما تفعل هذا لأنك غني، وشاب يعيش بترف، أنا لو مكانها سأفكر، إنك فرصة لها.

ابتسم عادل وقال باستخفاف: تالار من عائلة ثرية جدًّا يا أبي، أبوها يمتلك عدة شركات بالملاحة وحالهم ميسور، تالار إنسانة عظيمة، ولا تفكر بتلك الطريقة.

رفع يده من على كتفه وجلس أمامه ثم قال:

– كيف عرفت أنها لا تفكر بتلك الطريقة؟

ازدرد ريقه ثم قال وهو يحك أنفه ويتنحنح:

– عندما قابلتها، ومن خلال خبرتي بالتعامل مع الناس أستطيع القول إنها إنسانة مخلصة وتشبهني.

ضحك أبوه وهو يسحب نفسًا من غليونه فسعل وأخذ يكح، لكنه تماسك بوجه محمر قائلًا بغرور:

– والله العظيم هذه الفتاة صانعة لك عملًا، قل لي، هل في الكنيسة يحضرون جلسات للسحر ويؤمنون بتلك الأشياء؟

– الكنيسة بيت الله يا أبي، الشيطان يخاف أن تطأ قدماه أرضها.

قطب أبوه متعجبًا وقال:

– ماذا حل لهذا الولد؟ أيعقل أنه تأثر بها! وربما قد يتنصر.. (ثم علت نبرته وصوب حديثه بشدة) ماذا بك؟ لماذا تتشنج وكأنك تربيت مصلوبًا!

غادر عادل دون أن ينطق بكلمة، واتجه لأخيه وهو يتمتم: تغيرت كثيرًا يا أبي، تغيرت..

غضب عادل وغادر الغرفة وهو حزين مغلوب على أمره، فلم يتم الجواز بدون موافقة أبيه، حتى إن وافق أخوه فلا ناقة له ولا جمل، هل يستدعي أسلوب الأفلام ويأخذها ويهرب أم لا!

عاش عادل لحظة جوازه من تالار، رغم أنه لم يفاتحها بالأمر، فقط منحته تلميحًا بأنها راضية، وهو الآن يعيش على هذا التلميح بنحت تمثال كزوجين، وهناك شيء يدندن بمشاعره وينقل حدثًا مستقبليًّا أنها له بالنهاية، ولهذا هو يصارع لنيلها.

خطى إلى أخيه الذي كان يتابع الأعمال الإدارية بالفندق:

– ما بك وجهك مخطوف!

قالها أخوه "رؤوف" بعد تركه القلم، وأدار جسده لعادل:

– أبوك تغير كثيرًا، لا يريدني أن أتزوج!

تبسم مستغربًا:

– لا يريدك أن تتزوج؟! غريبة!

جلس بعد أن فك رابطة عنقه وقال: الأمر أسوأ، أبوك معترض على كونها غير مسلمة.

اقترب منه رؤوف وأشار إلى حقيبة جلدية بجانبه وقال:

– افتحها.

نفذ طلبه وأخرج أوراقًا بها خطابات وبيانات عن واجب الجهاد الإسلامي، وأن الحكومات التي لا تطبق شرع الله حكومة كافرة وكلام حماسي لتحفز الناس على الدعوة والإرشاد وتوعية المسلمين بالدين الصحيح، بعضها يتغنى بحمل السلاح، والأخرى الدعوة باللسان، وكانت خطابات طويلة مكتوبة بلغة عربية فصحى وبها إمضاء بنهاية كل ورقة.

– ما علاقة هذا بموضوعي؟ وكيف حصلت على هذا؟

– هذا هو سبب رفض أبيك، إن أباك قد انضم لجماعة دينية (الإخوان المسلمين) وهي حركة تمقت كل من يختلف معهم، وتقصي الطرف المخالف.

هز رأسه ثم أكمل: كما تفكر، يعتنق أبوك هذا الفكر ويسمح لابنه بالجواز من امرأة على دين مخالف؟

رمى عادل الورق تحت قدمه بقوة وقال بصرامة:

– أبوك يجب أن ينسلخ عنهم بأي طريقة.

فرد رؤوف وهو يهرش شعره وقال:

– أعجبني كلمة "ينسلخ" وصف لا غبار عليه، لكن أباك صار واحدًا من أفرادها، بل قياديًّا مساهمًا بالمال أيضا، يأتون هنا مجتمعين وينظرون لي بقرف وكأنهم من تملكوا مفتاح الجنة، أغلبهم بوابون وبائعو بطاطا وبائعو سميط، القليل منهم متعلم، أناس بسطاء لكن عقولهم قنابل!

– قد يتخلصون منه.

– لمَ لا! هؤلاء خونة، هل أنت مقتنع بهذا الهراء الذي بالورق، لقد استخدمهم الإنجليز والضباط الأحرار، آها، إن الضباط الأحرار هم بالأصل أعضاء بجماعة الإخوان المسلمين.

نظر عادل لرؤوف بنظرة قاسية ثم قال: عليك إقناعه بأن يتركهم وإلا...

– وإلا ماذا؟

– نتخلص منه!

رمقه رؤوف بنظرة ثعبانية: رويدًا رويدًا يا ابن أباظة! أنت عنيف جدًّا، تتخلص من أبيك؟! وهل هكذا ستحل.

ثم مد يده لأخيه كي يصافحه وأردف: دعنا نهديه لكي ينعطف لمساره الأصلي ويستجمع صوابه، ثم بعدها لن يقف أحد أمامك.

– رؤوف، أنا أحبها، وسأفعل أي شيء لتكون لي، لا يهمني أبي ولا الدنيا كلها، خذ صفي يا أخي فضلًا.

– ستتزوجها يا أخي، ستتزوجها.

قالها وعينه تترقرق ولسان حاله يقول يا ليتني مثلك، يا ليتها ترجع ولو ثانية، حيث إنه تذكر ما حدث لحبيبته وموتها المفاجئ زرع صدمة ببالـه، ورأى أن أخاه لا يستحق تلك المعاناة.. أن تفقد عزيزًا عليك وتقطع من أطرافك طرفًا وتندر ابتسامتك وتبور رحمتك بسبب عنف الحياة هو أشد ابتلاء..

ثم حاول رؤوف التوازن قائلًا:

– سحقًا لأبيك ولأي أحد، إنها جميلة يا عادل تشبهك!

– هل رأيتها؟

– بالشارع، كنت أمر في مرة ووجدتكما تتكلمان، إنك طويل عنها، ظننت أنك ارتطمت بها، لكن لغة أعينكم كانت تقول عكس ذلك.

– ستحبها جدًّا يا رؤوف.

– المهم أنك تحبها.

ثم احتضنه وقبّله من خده قائلًا: طالما تفعل شيئًا لا يضر أنت حر، وأنت تفعل أجمل شيء، الحب.. إنك تحب يا أخي، فلا أحسن من ما تحس به.

الفصل العاشر

هذا الشعور الخارج من وجدان الشخص لا ينجلي إلا برصاصة بالرأس، فالرجل إن غرق بمرض الحب لا ينهض منه، وبالأخص إن كان مصابًا بجرح يلازمه، أحمق من قال إنه ضعف، بل إنه كرامة الإنسان؛ فهو عفة الجسد ونبل الروح ونقاء البال الذي يلتصق برغبته الإنسانية.. وإن تعب من تستهويه تطلعاته وانكساراته فهو تعارض مع كينونته، فبالتأكيد سينطوي تحت موصلاته العصبية وإفرازاته الجنونية، فسبح بجمال طبيعة البشر التي عمرت الأرض ليزرعوا بها أجيالًا متلاحقة متعاقبة.

ظل الاحتدام بين عادل وأبيه شائكًا وقائمًا مترصدًا ما بينهم من معروف، وما زالت تلك الواقعة التي حدثت بباله؛ فقلّ نومه وأكله ونشاطه ليكن كالوردة المقتطفة، يذبل نسيجها ويجف رحيقها، خسر وزنًا ليس بالقليل، وذهب لطبيب أخبره أن علاجه هو عدم التفكير، وعرف طريق المهدئات التي أولجته بطوفان آخر، وأقدم مكبّلًا يبلع تلك الكبسولات، لم يكن إلا حل من الحلول، بعد أن تجمهرت

أفكاره حتى كادت تنقلع جمجمته من نحر سكاكين الوساوس! يا ترى ماذا سيحدث غدًا؟ هل أكتفي بتسليم مهامي لأخي أم أدخل مكتبه؟ هل أفتح معه الأمر مرة أخرى أم أمكث؟ هل حقًّا قد يطردني أبي من العمل؟ كانت تلك قطرة من بحر الأسئلة التي أرهقت وجدانه، تأجج داخليًّا فالتهب خارجيًّا، وظهر جُرْح جائش، سيعالج بشق الأنفس.

حاول عادل تطييب الجرح ووضع ضمادة الود التي هي منبت أسرتهم، فقد تلقى عادل صفعة حين رفض الأب طلبه، وتحدث إلى رؤوف أن أباه اختلف واكتفى برأيه المناهض لحقّه، تجنب النقاش لأشهر، صيف وشتاء، ربيع وخريف، برودة وحرارة واعتدال ومرارة، ران الابتعاد وبقي بالصدارة دون مصافحة أو مكالمة أو زيارة، فعاندا، حتى اقتصر التعامل وبات سطحيًّا، فتمر الملفات بين أيديهم بكلمات ضئيلة تحمل الغم الذي لم يفصح عن حاله لهم دهرًا، باغته الوقت حائرًا يدق به الهواجس أنه قد يمزق ما بينه وبين تالار، فاكتفى بالنظر لنصف الكوب الممتلئ، أنها تحارب الظرف المنشطر، فتقابل مثلما يقابله من رفض، فأسرتها متدينة ترى بأن تأخذ من دينها أقوم من غيره، والاثنان يعولان على الزمن، فالزمن يعالج كل شيء، فقد تزول تلك التمنعات ويحل محلها انفراجه، لا يعلم أي منهما متى؟ كيف؟ لكنهما دؤوبان على تحقيق نصرهما الخاص، الاتفاق والمعاهدة على تعميق علاقتهم الإعجازية، فمن الذكر الذي حملته أمه تسعة أشهر يأتي ويدخل بيت عائلة أرمينية وهو على دين الإسلام؟ كيف له أن يتجرأ ويخطو وتجرجره نفسه إلى هذا الأمر، وإن تطمع رغبته باقتحام هواء بيتهم المعتق بترانيم الكنيسة، وأقاويل الباباوات والرهبان وأيقونات العذراء وصليب المسيح، وروح الإنجيل المقدس،

كيف والذبيحة ما زالت غارقة بدماء الطاهر تنغمس بـمنكرها ومخالفها؟ هل بكم عاقل أو مفكر؟ فهذه القصة تروى فقط بالروايات، وهل الأمر يقتصر على ذلك؟ لا، هيهات وويلات، تتفجر بعروش رجال الدين عند الحديث عن تقابل قلبان مختلفان.

جعلت الواقعة عادل يسترجع ذكرياته مع أبيه، وكم الحرص عليه وكيف كان يوفر له لبن العصفور كأب مخلص لولده، وكيف كان لا يبخل عليه بالمال ولا بالوقت، وكيف تغير كاظم باشا وصار يقف في حلقه كالشوكة؟!

وكيف كان يضع مقامه عاليًا، لمَ لا وهذا ابنه فلذة كبده، فيأخذ من الدلع قدرًا ليس بالضئيل، وعندما كان تلميذًا بالمدرسة حضر يومًا بالبيت وبيده لفافة شوكولاتة منتشيًا، فقد استقبل كاظم خبر نجاح ابنه بالصف واعتلاءه الأوائل، مع تعليق صورته وتوقيعها من مدير المدرسة بالنجاح والتوفيق ولثمه لخده المنتفخ الأبيض واحتضانه بقوة مبتسمًا مبتهجًا رافعًا ذقنه بشرف قائلًا هذا ابني، استرجع تلك النظرة التي كانت بعينه وكم الشغف المتوهج ببريق الأبوة، ويندب حاله!

شال ثوب الضيق وعزم على التغيير ونهض برجولته قائلا: لن يحدد أحد مصيري غيري، ولن أصعد السلم إلا بقدمي.. وقراره باليد اليمنى رافعًا وملوحًا أنه كيان مستقل وليس دمية، وما أشعل ناره الخافتة، رؤوف الذي حثه على المضي وعلى عدم الالتفات لأي من كان، مستندًا لما مر به من كارثة، فالشخص الذي تحبه اليوم قد لا تجده غدًا، وأبلغه أن هذه فرصة لا تعوض وأن ما عليه هو السعي إلى نتيجة مرضية، إن توج الأمر بالنجاح كان بها وفعلت ما شغل قلبك، وإن خاب

فقد تندم لكن الندم يثقفك، كيف تتعامل مع مشاعرك؟ كيف تميز إن كانت فراغًا داخليًّا أم شعورًا حقيقيًّا؟

وعند الاقتراب من عائلة تالار فنيل رضا أسرتها سيكون كصعود جبل، وقد تعتلي القمة لكن بعد عرق وجهد وكد وتعب ومشقة، حتى تاريخ الأسرة مشوه بالمأسي، الأب مثلا جاء هاربًا من الحرب وخوفًا من القتل العقائدي، والأم مسيحية متدينة حديثها لا يخلو من أن مَن يتزوج بناتها لا بد أن يكون رجلًا تطأ قدماه الكنيسة يوميًّا، يحضر القداس وتلك الأيقونة السخيفة المرسومة تلازم فئة من النساء، أما عن أخواتها فهن لا يكترثن لمعتقده أو لونه أو عرقه أو جنسه، فالأمر شبه محسوم بقرار الأبوين.

كلما كان يشعر بخنقة من أمر ما كان يذهب لقبر أمه، يحكي لها عن همه وشأنه، يكلمها وتكلمه كأنها حية ترزق لا يلتفت لمن حوله، فجسدها يتشكل أمامه فيرمي ما يحتدم عنده بالحديث، وبكل تارة يقشعر جسده كأنها تربت على كتفه وتواسيه، يشعر بها وبالنباتات التي حول قبرها وبالرمال المتناثرة وبصنبور الماء الجاري وبالقطط الجائعة المتجولة تسولًا، ويشعر بها وبكل شيء حي.

– من المخجل يا أمي أن يصير الوضع هكذا، لقد قدمت فرض الولاء لأبي كما كنت طوال عمري أفعل، وأحسن إليه بقدر المستطاع، وبالنهاية ماذا؟ لا أوافق على زواجك! ولسبب محير، إنها من ديانة أخرى، إذا كان يرفض ذلك، لماذا تزوجك وأنت على اليهودية، لماذا تمسك بك ويريد مني إفلات تالار، لقد اتبعت سنة رسول الله، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما، والشرع أجاز وأباح، فما العيب؟ وما المشكلة؟

بالله عليك يا أمي أن تكلميه وإلا اتخذت قراري بمنأى عنه، قابليه بالحلم وأقنعيه وقولي له إنني لست صغيرًا ونبت الشعر الأبيض بلحيتي وراثة منك، أخبريه أنني أنت، وإن نظرت بالمرآة ستجدني.

***

سلم المؤذن الأزهري وأنهى صلاته، عدل (كاكولته) متوقرًا بإيمانه، وبدأ بترتيل التسبيح والاستغفار، وانقضت صلاة الجمعة وللم المصلون آياتهم وقرآنهم وركعاتهم وسجودهم، محتشدين عند الباب الخشبي الهائل يتذكرون موضع ما أتوا به بأقدامهم، كان من بينهم كاظم باشا ومعه اثنان بذقنان خفيفة في بِذَل وطرابيش حمراء وجزم مهملة من التلميع، رافقاه إلى مكتبه بفندقه بالإبراهيمية، لقد تعود كاظم باشا الجلوس بمكتبه والتسبيح والتكبير بسبحته الطويلة من خرز اللؤلؤي المنقوش بها أسماء الله الحسنى، تعجب رؤوف من شكلهما الذي لا ينطبق مع ردائهما، حتى إن الأنظار بدأت بالتوجه نحوهما عند دخولهما الفندق، لافتين الانتباه.

قال بتلهف لأحد العاملات:

– من هؤلاء يا سلوى؟

ثبت فكها عن مضغ العلكة ثم قالت بتحضر:

– علمي هو علمك يا أستاذ رؤوف، هاذان الشخصان قد وجدتهما الجمعتين السابقتين لكن بشكل مختلف، تارة بقميص وبنطال حالقان ذقنهما، وتارة ببذلة مثلما ترى، يقولون إنهما شباب من حركة إسلامية.

– الإخوان المسلمون!

– نعم.. الأخوات المسلمون يا أستاذ.

– أخوات ماذا! إخوان، إخوان.. هل أذنك تعمل جيدًا؟

كلح رؤوف مغمغمًا: ما هذه الورطة التي تورطنا بها! هؤلاء القوم سمعتهم مسمومة، بماذا تفكر بماذا! لكني لن أسكت على هذا الهراء، لن أنتظر حتى يأتي البوليس ويغلق الفندق.

فتح باب المكتب بعزم فانتبه له الجالسان، يبحلقان بعد أن خطفهما الترقب، فإنه اللقاء الأول، كان أبوه على كرسيه الجلدي الفخم، والاثنان جالسان يأكلان الجبن والبقدونس مع الفول والفلافل ويلتهمان ويحشوان أفواههما وكأنهما لم يأكلا منذ أشهر، تركا ما بأيديهما ونظرا له بترقب كون حضوره خلا من الاستئذان!

قال والغضب يحضر عليه:

– من هؤلاء؟

أومأ له أبوه قائلًا منتفضًا:

– كيف تجرؤ على الدخول هكذا؟ ألم أعلمك الاحترام؟

كان صدره ينتفخ ويرد من ثورته، فتابع قائلًا: لا، لا احترام مع هؤلاء، عليك أن تشرح لي من هذان الرجلان حالًا؟

رد كاظم بصرامة:

– اخرس وإلا وبختك.

وقف أحدهما بعد مسح يده بمنديل واقترب منه خطوات بطيئة وبطريقة حربائية قال:

– ماذا بك يا أخ رؤوف؟ نحن أصدقاء الوالد، ونحن ضيوف عندك، هل هناك أحد يتكلم عن الضيوف هكذا؟

– تتكلم معي وكأني أعرفك! أريد أن أعرف لماذا أنتم حول أبي؟

قهقه الاثنان بشراهة وتابع الآخر، والذي لا يختلف عن الأول بالذقن النابتة ثم قال: نحن نكمل بعضنا، نحن إخوة في الإسلام.

صوب كلماته لأبيه قائلًا:

– أنت لم ترد عليّ!

فأجابه قائلًا:

– سأشرح لك كل شيء.

ثم وقف ودنا منه:

– أريدك أن تكون واحدًا مثل هذين الشابين الجميلين، ما شاء الله أخلاق، التزام، تحضر، يصلون الفروض، فإنهم عز الشباب.

– هؤلاء من؟

قال أحدهما:

– نحن الإخوة، أخوة في الدين، هدفنا نشر شريعة الله في الأرض، وإرساء خلافة الصحابة رضوان الله عليهم.

علق رؤوف:

– خلافة أمك...

نزل كف كاظم على خده كالسيف، ودوى صوته قائلًا:

– كيف تتجرأ على قول هذا؟

تغرغرت عينه قائلًا بحرقة:

– تضرب ابنك من أجل هؤلاء؟

– وأدفنك هنا، ولا أحد يعرف لك مطرحًا!

تدخل أحدهما والحذر يكتفه: لا داعي لهذا، اهدأ، لقد خانه التعبير ليس إلا.

– لا، أنا مُصر على كلمتي، ما هي الخلافة البلهاء التي تسعون لها، كم أنتم والعالم كم؟ هل ستحاربون الدنيا كلها بغروركم، كيف تنتصرون على قوة العالم بأحاديثكم البدائية، وشرائعكم المتهكمة؟!

برق نجم الاثنين وبادر أحدهم قائلًا:

– ما شاء الله، لديك ابن حكيم يا أخ كاظم، ما رأيك أن تأتي معنا المسجد لحضور ندوات شيخ جليل، الشيخ معتصم الفلاح، عالم مبجل له مؤلفات فكرية، ما رأيك؟

– بلا عالم جليل بلا عالم بزغاليل، اسمع، إن رأيتكما هنا مرة أخرى سأضعكما برأسي، وأقسم برحمة أمي سأسلط عليكما من يحلق ذقنكما، ولدي من المعارف من يضع أمثالكما بالزنزانة.

– الله يسامحك.

جلجل الضجر بالمكتب، ولازم التوتر أعصابهم واندفع الأدرينالين ليخبط بكرات الدم بعروقهم مستنفرين، ثم خرج رؤوف ليجد عادل يقف بردهة الاستقبال وحكى له.

أيقن عادل أن أباه ذاهب إلى سكة آخرها مقطوع، كأنه يسير على خط قطار، والمحطة الأخيرة هي القفز من الجبل، تلك الثروة التي أنعم الله عليه بها قد تتفكك، وتستغل الحكومة أفكاره وتؤمم ممتلكاته قاذفة الاتهام المسحوب بسن السكين، كاظم باشا الإخواني داعم لجماعة التخريب التي تهدد أمن الوطن، وعليه قررنا ضم فنادقه وممتلكاته وتجميد أرصدته البنكية تمهيدًا لضمها للممتلكات العامة للدولة، فهذا مفروش على طاولة المناقشة والمداولة، ولمَ لا وقد حدث هذا مع كثير منهم، كما حدث مع صديقه الذي سجن بعد أن هتف بالتكبير عندما مر موكب لأحد الضباط العسكريين الكبار، سحبوه من وسط الحشد، واتهم بانتمائه لهذه الجماعة

التي كانت قد حلت بعهد محمود فهمي النقراشي، كان صاحب شركة زراعة ويمتلك مئات الأفدنة، حققوا معه يومين متواصلين، ثم قرروا مصادرة شركته وتكبيله بالأصفاد وسرقة حريته، وهنا كان على عادل التدخل والذي ولج مكتب أبيه وأجهز عليهما بالتوبيخ حتى صغر مقامهما وغادرا، وأما كاظم باشا فلم يجابه ولديه اللذين يرعيانه ويعتنيان بشأنه وماله.

– لقد كبرتم وأصبح لكم حس، لكني لن أسمح بالتجاوز مرة أخرى، أنتما بهذه الأفعال تبنون جدارًا بيني وبينكما، قد أغضب عليكما، وأدعي عليكما ودعواتي كفيلة، اللهم بلغت اللهم فاشهد.

بتلك النبرة الجازعة بطرف الحزن وطرف المحبة راشقهما بحزم وتوعد، لا يعلم أنه قد طفح بهم الكيل، أو ربما لا يفرق معه إن كانا راضيان أو معارضان، فكلما رأى أنه على صواب استكبر بنفسه، وكلما نهضت أبويته خمدها بمطفأته كما يطفئ سجائره.

ينبغي عليك يا أبي أن تشاطرنا حالك بعد أن كبرت، إننا مسؤولان عن أمرك، خاصة أننا ندير الفنادق، إن محاولتك للتصرف بغوغائية تحت مسمى أنك الأب باتت محاولة فاشلة، وصرنا جزءًا من حياتك وليس عندنا استعداد أن نراك تنهار ويندثر ما بنيته سدى أو تزج بالسجن، ناهيك بأن من تلتف حولهم لهم تاريخ بالصراع مع الحكومة، وكاستثماري قد يستغل ذلك في الإيقاع بك، ولن تكون الأول ولا الأخير.

سأل عادل عن سبب احتضانهم، ولماذا المقابلات كانت بالمكتب؟

فكان جواب كاظم:

– لقد قضيت عمري أفعل الحرام مثلما أعد الفلوس، كان الأمر بسيطًا أن أجزع تحت رغبتي، وشكّل موت أمكما صدمة لي، دخلت بنوبة من الاكتئاب وإدمان الشرب، كنت أسهر بالبارات وبيوت بائعات الهوى، مقيدًا بضعفي، لكن، ذات مرة، وجدت شابًّا بأحد هذه البارات، كان مختلفًا ينظر للحاضرين بأسى وحزن، سألته عن دلالة تلك النظرات، قال إنه هنا لمحاولة تعقيلهم، ولم يجد أحدًا يسمع كلمته، فعرض عليّ السماع، فوافقت، تلا قرآنًا بصوت عذب قبض على ضالتي، كانت سورة البقرة، وعند الإمعان بالكلمات أحسست كأني ضائع ووجدت فجأة وجهتي، أجلسني وكلمني في الدين أكثر، وأرشدني لجماعتهم، شعرت بخلاص ذنبي، وانزوت عني تلك الغمة.

تدخل رؤوف بفكاهة: يا لها من قصة مؤثرة! ولم تجد غير هؤلاء؟ هل تظن أن مفتاح الدين بأيديهم، إنهم لم يتركوا أحدًا إلا وقد كفّروه، ناهيك بجرائمهم.

ليرد الأب بوقار وهو يرفع إصبعه:

– هذا هو شرع الله، فلا تبديد ولا تحريف.

– عادل، سأرحل من هنا قبل أن أجن، حاول معه أنت، عن إذنك يا فضيلة الشيخ.

– خذني معك.

رجع الأب الناهض بجبل الإيمان وأشعل غليونًا يفكر بإمعان كيف يفر من ذلك الضجر المتقوقع، هل يرحل ويتركه؟ أم يبقى يداهمهما؟ فتح دولاب مكتبه المصنوع من خشب الزان، وتطلع لجواب برائحة الورق القديمة، كانت قد أرسلته زوجته له عندما كانا بالجامعة، لزم يقرأ ويستجمع شبابه المنقضي، تفور ذكرياته عن كيف كان يرتدي بِذَل الباشوات مفصلة ومطرزة ومدققة من أحد الخواجات، وكيف كان يرسله أبوه ببعض الجنيهات يشتري بها ما يرغب ويفيض منها الباقي، فورقة بخمسة جنيهات كانت تمكث بجيبه أوقاتًا طويلة، ويتنزه بها بشوارع الإسكندرية التراثية، وأول يوم رآها بالمكتبة تذاكر، فخفق قلبه وأصابه سهم الغرام السام وتخدرت أرجله، وساقته إليها طالبًا منها الجلوس، فرحبت بتواضع ونقر ذاك الحاجز بينهم بالسؤال عن صفها فبادلته بسعة صدر حتى ولج بيتها وصافح أبويها وهو يشبه العرائس البلاستيكية من لمعة الشعر والحذاء ونقاء قماش بذلته ورابطة عنقه الزرقاء ببقع بيضاء كالكرات، وكان الخجل يعتلي إيماءاته وتصرفاته ورمقاته.

ثم بعد دقائق، شعر بوخز بالجزء الأيمن من كتفه مع دوار حاد، ربما تعب فجأة، لم يسبق له أن خذلته صحته، ضغط زرًّا أحمر بأسفل مكتبه، ثم حضر خادم أمره بإحضار كوب ماء مخلوط بالسكر بسرعة، مرت ثوانٍ وكان الكوب أمامه ثم شربه وتلبسه مقدارا من الصحة.

الفصل الحادي عشر

على أشعة الشمس الساقطة على الأسفلت المتشقق، ميعاد خروج الطلبة من المدارس عند الظهيرة، وميعاد فترة دراسية أخرى تبدأ أيضًا بذات الوقت لقلة الفصول وزيادة الرؤوس، فمدارس البنات تختلف عن الأولاد بالأجواء والتنظيم والنظافة، فقد تجد في باحة (الحوش) مدرسة الأولاد بالمرحلة الإعدادية والثانوية وخاصة مدارس الحكومة متسخة وملقى بحماماتها أعقاب السجائر من كثرة الطلبة المدخنين، أما هذه العشوائية لا تجدها بمدارس البنات فالنظافة عنوان لأفعالهن، فأشد العيب أن تجد فتاة ترمي كيسًا أو شيئًا بالأرض، فتوصف صاحبة الفعل بالمقززة أو بالقبيحة أو أنه تصرف أولاد، فالتصقت الأفعال المخالفة للأخلاق والعادة والقواعد بأنها أفعال الأولاد.

تنتصب الأمهات ينتظرن بناتهن الصغار، ولاسيما قد يتركن أولادهن يحترقون بجاز! المهم الاعتناء بكائناتهن الصغيرات الرقيقات العفيفات الحبيبات، فهن الراحة وقت الأزمات لا يخرج منهن خطيئة ولا يسعون للأزمات، فلهن الاحتواء

بغير حساب أو معاتبة الذات، فاحتكاك السكر ينتج غزل البنات ولا يتجمع عليه الناس الا بالاحتفالات.

قمصان وردية تلبسها فتيات سمراوات وقمحاوات وبيضاوات، ينزل من أعناقهن رابطة عنق سوداء، بعضهن مختمرات وبعضهن يطلقن العنان لخصلاتهن، بجيبة حتى الركبة كحلية، وبأقدامهن أحذية مريحة، يتدفقن من البوابة الفولاذية الكبيرة المضاف لها أشكال ورود بمحاولة لسكب لمسة جمالية فقيرة، وكان المدرسون ينظمون الحشد المنطلق بنبرة رقيقة تخلو من الحدة والحمئة والشدة، وهناك عين ضبع تترقب من بعيد البنات وهن يخرجن للانقضاض بلحظة ملائمة على إحداهن، إنها عين محمد الذي توعد سعد بأن ينتقم منه أشد انتقام، فابنته من ضمن الدائرة التي رسمها، كان يقف منذ الساعة السابعة صباحًا يترقب الدقائق حتى تخرج البنت من الباب، لكنها لم تخرج، أو ربما لم تحضر بذاك اليوم، لحرص سعد على ابنته الوحيدة والتي هي كبده المفرز لإكسير حياته، لكن محمد قد حسب كل شيء، وهذه الأيام مواعيد الامتحانات بالمدارس، ومن الإلزام الحضور حتى لا تفقد الطالبات درجات تسندهن بالشهادة النهائية، عاود الوقوف باليوم التالي رآها أخيرًا بعد انتظار تهبط من سلم المدرسة، عبر الطريق متأهبًا ودنا خطوات محسوبة بهيئة طبيعية.

- إلى أين؟

نظرت له بحدة ثم قالت: هل تكلمني؟

ابتسم محمد ابتسامة صفراء قائلًا:

– أنا أحد رجال أبيك المعلم سعد، وأوصاني بأن أستقلك للبيت، أنتِ الأستاذة رقية، أليس كذلك؟

ردت بتعجب:

– نعم، هل تعرف أبي؟

– لحم كتفيّ من خيره!

رفعت الهاتف لتكلمه والذي كان مغلقًا، فأحست بالقلق، فمن القليل أن يرسل أبوها رجلًا يصحبها، العام المنصرم أرسل لها رجلًا بعربة عدة مرات، لكنه كان على تواصل معها ويهاتفها، كبر بتفكيرها أن هذا الرجل جاء زيادة الأمان كون ما حدث لأبيها كان مفجعًا وشرخ بالهم بالتوجس وتصدع هدوؤهم المرتاح.

– إنه لا يرد، عذرًا هل معك سيارة؟ لأنه بالعادة يرسل أحدًا بسيارة وقبلها يقول لي إنه سيرسل أحدًا.

عاود الابتسامة فكان جاهزًا بكل شيء ثم قال:

– ربما نسي إخبارك، (وقال وهو يومئ) إنها بالجهة المقابلة.

– ما اسمك؟

– أنا اسمي حسن يا ست الكل تفضلي.

عبرا الشارع وقبل ركوبها رن هاتفها، إنه سعد، ففتحت المكالمة ممسكة باب السيارة.

– لماذا لم تقل إنك سترسل أحدًا ليوصلني للبيت؟

– أنا لم أرسل أحدًا! من معك؟

هنا انقض عليها كذئب ثم ضغط بقماشة على فمها بقوة، فهوت وأغمى عليها قبل أن تطلق أي حركة أو صرخة استغاثة، ودفسها بالمقعد الخلفي، ففقدت الوعي إثر مادة مخدرة بالقماشة، نظر حوله يمينًا ويسارًا لكي يتأكد أنه بعيد عن أعين المارة، حتى برد هذا اللهيب الذي بداخله، أمسك الهاتف ثم قال:

– رقية نائمة الآن، كلمها بوقت لاحق.

انهار سعد وتسمر جسده وكأن الكون قد انطبق عليه وارتفعت دقات قلبه وشل تفكيره! وأخذ يتوسل ويترجى ألا يؤذيها، وأن كل ما يطلبه سينفذه، لكن كان الخط قد انقطع.. عاود الاتصال مرة أخرى لكن محمد أغلق الهاتف، وبتلك الأثناء لاحظت زوجته أنه تشعث، وسمعت الجزء الأخير من توسله فسألته:

– ما بك؟

– أنا بخير، ما زال هناك وجع كما تعلمين.

– هل تناولت المسكن؟

– منذ نصف ساعة.. سأكون بخير.

– كنت تكلم مَن؟

– أحد الرجال الذين يعملون عندي، هؤلاء الرجال يغضبونني، دائمًا ما أرفع صوتي عليهم.

أحست الأم بشيء غريب، إنه ليس أحد رجاله، لأن سجيته انقلبت كالبرميل، شيء ما خاطب أمومتها أن ترن على رقية.

تناولت الهاتف الذي كان على (الكومودينو) واتصلت بابنتها لكنها لم ترد، كررت الأمر لكن بلا إجابة! فقالت ربما بطارية هاتفها قد نفدت.

تابع محمد السواقة بسيارته ال (نيسان) والتي كانت سيارة مؤجرة من محل لإيجار السيارات. سار بعيدًا عن المدرسة حتى وصل لمكان مهجور بمنطقة "أبيس"، منطقة أرضها رمال، ولا بشر ولا حياة لمن تنادي، ثم حمل رقية بمنزل مستأجر، ووضعها على الأريكة وهي غارقة بالسبات العميق، جلب كرسيًّا وجلس ينظر لها مخططًا للسيناريو القادم، حاول فتح هاتفها لكنه كان بكلمة سر.

– رقية رقية.

جلب ماء ورشها بوجهها المنمنم فاستيقظت بفزع وأخذت تبكي.

– اتركني بالله عليك، ماذا فعلك لك؟ اتركني!

– شششششش، اصمتي وإلا قتلتك، كوني متعاونة كي لا أذبحك.

ارتعشت وأخذت تتلفظ بكلمات غير مفهومة، والدموع تنهمر وجسدها يرتجف، كل ذلك لم يحرك جفنه، بل كان ناشفًا كالفولاذ، توسد على أريكة ينتظر غايته ويتجول بخياله لأبعد الاحتمالات، هل سيُقضى عليه؟ أم سينجو؟ هل ستنفذ

الخطة كما أراد أم لا؟ ثم وقف يلف بالغرفة كالتائه وكل ثانية يوارب الشباك ليرى إن جاؤوا أم لا.

رن هاتفه:

– هل تم الأمر؟

– إنها أمامي، كم من الوقت وستكونون هنا؟

– إننا على وصول.

نظرت له بأعين كأعين شبل القط قائلة بهيستيريا: لماذا فعلت ذلك؟ لقد وثقت بك! انظر، لدي كل ما تريد، الأموال بالحقيبة خذها، وأبي قد يعطيك ما تتمنى، لدينا مبانٍ وأراضٍ زراعية ومراكب صيد، خذ ما تريد وفك قيدي واتركني.

رد ساخرًا: أبوك مليونير، ربما يعطيكِ مصروفًا ألفين جنيه باليوم، وأنا أمي كانت تضربني إن أضعت كيس الساندويتشات!

– أرجوك!

وبعد أن كررتها باستعطاف لم يتحمل محمد توسلاتها، فوضع شريطًا لاصقًا على فمها.

طق الباب مرتين، وقام بفتحه، جاء الثلاثة المنتظرين، أحمد الضابط المتقاعد، ورأفت وعاطف اللذان درسا تلك الخطة وأشرفا عليها كمهندسين، فقد اتفق معهم على خطف ابنته لمساعدته لتجنب الإمساك به، ومن جانبهم كانوا يريدون فدية.

امتقع رأفت من اللاصق، فنزعه برفق وربت على الفتاة يطمئنها، أما عاطف فكانت عينه حمراء وتغلي شهوته لمرضه بالأطفال، وتولى أحمد مهمة الوقوف عند الباب مع رفع سيجارة وتلويث رئته بها.

جلس عاطف بجانبها واضعًا يده على كتفها يطمئنها بنبرة متعطشة لغاية إبليسة، نزل بكفه نحو خصرها وبدأت بالبكاء أكثر.

قال محمد بارتباك: باشا، ما الأمر؟ ماذا ستفعلون بها؟

نهره أحمد بغضب ألا يتدخل فيما لا يعنيه: اسمع يا شاطر، نحن هنا من نسأل فقط، إن حسبت نفسك قاضيًا فلن تأخذ أبيض ولا أسود، ستظل مطاردًا مشردًا بالشوارع، اتفقنا؟

نحا رأسه، راميًا فرض الولاء.

– رائحتك جميلة، ما نوع العطر الذي تضعينه؟

سحب رأفت عاطف من قميصه ليرتمي للجهة الموازية، وصاح به بغضب أن يكف عن أفعاله.

– إن فعلت ذلك مرة أخرى، سنكمل المهمة بدونك، لن يتحمل أحد منا سخافة منك تارة أخرى، ثم أخرج زجاجة مياه من حقيبة رصاصية كان يحملها وسقاها برفق.

وأردف أحمد: ستأخذ الفتاة إلى المكان الذي حددناه، وأنت يا عاطف ستذهب إلى سعد وتبلغه بالمبلغ المطلوب، وإن تجرأ على أمر خسيس معك فزّجه صورة ابنته، حافظ على ثباتك وكن ذكيًّا.

غير اتجاه وجهه إلى محمد قابضًا على رزمة من الأوراق النقدية وسلمها له قائلًا: هذه بداية، ستأتي رفقتي لإحدى القرى، وسأسلمك لشخص أعرفه جيدًا يتدبر أمرك.

أمسك محمد بالنقود يتلألأ وهو يقول: فيك الخير والبركة، أنا تحت أمركم.

انخفضت رقبة رأفت صوب رقية ثم قال بصوت حنون كأب لفتيات بنفس عمرها تقريبًا: ستأتين معنا الآن، اعتبريها جولة تمثيلية، لن تتأذي، وستكونين بأمان بالمكان الذي سنذهب له، أعلم أنك تتضورين جوعًا، سنشتري أكلا يعجبك، ما رأيك بالبيتزا؟

كانت مهلهلة مما لحق بها، طفلة بهذا العمر تُخطف بنصف الشارع، قد يفقدها التريث الجسدي ويردم جزءًا من صوابها، ازدردت ريقها ثم وافقت قائلة:

– حسنًا، لكن أرجوكم لا تؤذوني.

ناشدها رأفت قائلًا وهو يخرج كيسًا من أخلاقه المتبيسة: لا تقلقي، سترجعين بيتك بأقرب وقت.

قاطع محمد تلك اللحظة البشوشة بصوت غليظ قائلًا: إحم، لديّ طلب يا رأفت باشا.

– ماذا؟

– المبلغ هذا لا يكفي، لا يكفي حتى لشراء هاتف بشريحتين وكاميرا نظيفة!

أخرج رأفت رزمة أخرى من جيب بنطاله الجينز ثم قال:

– كذا انتهى ما بيننا، لا تسألنا عن كيف ستختبئ من الشرطة أو كيف ستهرب خارج البلد!

– وهذا يعني؟

صرخ أحمد الذي كان يقف وخلفه الباب بسخط وغضب: يعني تأخذ الفلوس وترحل من هنا، على آخر الزمن بياع السمك يفاوضنا!

زمجر محمد وصرخ بالغرفة:

– ماذا تحسبني؟ خواجة من بلاد بره؟ لقد عرّضت نفسي للخطر من أجلكم، وخطفت الفتاة، القضية صارت قضيتين، كل هذا من أجل خمسين ألفًا؟ ورحمة أبي لن تخرج تلك الفتاة من هنا إلا على جثتي، أريد حقي!

قابل عاطف صراخه بنفس وتيرة الحدّة والأداء قائلًا:

– يا ابن العاهرة، ماذا تخال حالك؟ وماذا ستفعل إن لم نزد المبلغ؟ هل ستبلغ الشرطة؟ اهدأ وإلا...

وقبل أن يكمل شد محمد رقبة من يديها وأخذ ركنًا بالغرفة وفتح مطواته يهدد ويتوعد ويشوح لهم وعيناه جاحظتان، أغمي على الفتاة حتى إنها كانت تنزلق من يده.

أنذره رأفت ألا ينجرف لأي خطأ آخر، لكنه استنكف، هنا بدأ الثلاثة بتحويطه ومحاولة الانقضاض عليه لينالوا منه ومن عزيمته، لكنه كان داهيًا ويلوح بالمطواة ببراعة، فيرجعون بخطوات حذرًا من انغماس سن المطواة بلحمهم، كان خفيفًا مثل الريشة، بقدر ما يحمل وزن الفتاة المغلوب على أمرها بقدر ما كان جريئًا بالمواجهة، أخرج كل منهم مطواة وصار الوضع كمبارزة بحلبة مصارعة رومانية.

قال رأفت وقلبه يخفق باستنفار لاهثًا يحاول إيجاد ثغرة ينقض عليه بها:

– اترك الفتاة يا محمد، دعنا نحل الأمر وديًّا.

– أي حل ودّي تريد؟ أنتم عصابة! لا ينفع معكم الأدب، وصراحة أنا قليل الأدب والاخلاق فلا أجيدها.

انقض عليه أحمد بغتة، لكنه نال نغزه بالبطن أحدثت ثقبًا عميقًا، وارتمى على الأرض، أما عاطف فارتخت أرجله من الهول، رمى رأفت عليه كرسيًّا لكنه تفاداه، ثم تابعه عاطف قاذفًا فازة أصابت قدم محمد فترك رقية على الحصيرة ليركز بالمناوشة.

قال عاطف بعد أن اقتنص منه الإرهاق: رأفت، علينا بحل الأمر، أحمد لن يتحمل، ويجب أن نسعفه!

رد بخيلائه المصاحب لكينونته المتعالية: لا، لن يخرج من هنا إلا إذا أرجع الفلوس وترك الفتاة.

راوغهم حتى تصبب عرقهم المملح، وأدرك محمد أن هذه اللعبة لا بد من تفكيكها، كون صراخهم تجول بالخارج، وستزيد الطينة بلة إن لم يتعجل، فاستطاع الاقتراب من الباب وفتحه، فأمسك رأفت بقميصه فمطّ كالعلكة، ثم لاحظ محمد الجذب، فرد بضربة بمعصمه أصابت شريانًا حيويًّا، تأوه رأفت من الألم وكتم سيل الدماء المنهمر، وكان عاطف بتلك الحالة يلهث مستسلمًا، فسارع محمد بأخذ رقية ووضعها بالسيارة، وداس بنزين بقوة فخرج صرير الإطارات المحتكة وانطلق هاربًا..

***

تخاطف الشعب أخبارًا متشائمة تتجاذب بين مصيرهم المبهم وحاضرهم المكتم بالألغام والأسلاك والحواجز عند صاحب سمو وجلالة وحضرة وجناب النياشين والدبابير والنجوم والأشرطة، هذا الحازم صاحب الخرزانة، حيث يتداولون ذاك الحلم الذي قد حلموا به جميعهم بنفس الليلة، فقد كان طويلًا دسمًا بالعلا وهموا مفزوعين، وقاموا يعلقون اليفط بعناوين الحلم (مصر جديدة، أبو خرزانة إيده شديدة)، (ولا وفدية ولا حزبية أبو خرزانة هو الديمقراطية).. كانوا يطوفون بالشوارع يهتفون بكد مادحينه معظّمينه، كان صدى الشعار مميزًا يغطي السمع برنة وشنة، وتعظم أمل المصري بحكم القانون، مع تقزم أصابع الملكية، لكن بعد فوات الأوان!

قابلهم صاحب الخرزانة بأكواب ماء مذاب بها منوم ثقيل، ووزع دون جهد، فشربوها عائدين لنومهم، وسحب عليهم لحافهم، وعاودوا الحلم.

وما فعله كان معتادًا، فمن أمسك الخرزانة واحتمى بها أعطته هبة السلطة، وأضاءت بجوفه الإشارة الخضراء بالمسؤولية.

ذابت جل تلك الشعارات عن الحرية، ومن زعق بالديمقراطية فليقنع حنجرته المتشققة من الزعيق بالدكتاتورية، ولهذا ستشمها مطلية بكافة الأدوات والأساليب المرضية وغير المجدية، وإن جادلت ستكون ذكراك منسية، يقولون كان غبيًّا وقف بوجه المدفع وقال "أين الحرية؟"، أهدم اللافتات المطالبة بالكرامة وعلق بالحائط دموع الخزي لتكن رسالة تنتقل عبر السنين، شعب مكلوم أراد نصرًا من بطن هزائم الضالين، ولحّن لتلك الأغنية ودندنها عن الجهاد والنصر والشهادة مع كأس خمر لينسى جرح الحقيقة المنجلية على شجرة الوطنية، وسوف تنقش على كل جدار وتبقى رسالة ملعونة، فقد لوّن الضباب ظروفها المشؤومة، ودعونا نخبرها بألسنتنا اللينة أنه كان حلمًا أشبه بالفؤاد وبالمجد وداست عليه بياده المتنشي ببندقيته، والمتفرعن بدبابته ومدرعاته، وهذه الدبدبة المتواصلة بالأرض والبحر والسماء نالت من عنق المعترض، فأراح السلاح بحدته رؤوس الأضاحي واقتنص منهم بحاحهم الأخير، طمست تلك الأناشيد في المقاهي والمجالس، وحل بها الهزيمة بعد أن كانت منتصرة، كانت الأضاحي هنا مهمومة ليس بفقدان روحها لكن بخسارة الرهان، وبدلًا من إذاعة إعلان عن موعد مع بلد عادل بشعبه وحكامه، انفرد الحاكم ببيان استبعاد المخالف والمعارض وزج الاشتراكيين والثوريين وهؤلاء المتطرفين من اليمين حتى احتشدت السجون بهم، وسال عرقهم بها من التضييق، وفقدوا وزن همتهم وبطولتهم من غمر النضال، فقد راوغهم بصنع هيكل ضخم مثل حصان طروادة وولج لقلعتهم وذبّح بهم وانهال على الشعب

بالاغتيال، كانت خطة محكمة مدروسة ومفحوصة ومترسة فكللت بالنجاح، حاول منهم المقاومة من المثقفين والفنانين والجمعيات السرية بأشكالها، وهؤلاء المنتفعون من الملك وغيرهم من المتبولين على جدار قصره، لكنهم كانوا مستعدين مجهزين العتاد، يتكالبون بغير طرق باب أو تمهيد ليقتلعوا آخر ومضة بيديهم، كبّر بالمسجد ليس لله بل لمالك البندقية، وأذّن له ينبه أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، ورن جرس الكنيسة ليعلن أن الأب والابن والروح القدس هو العسكري، فعناصر الأمة جزعوا تحت بيادته وبدؤوا بعبادة الله الحقيقي، الإله المتسيد بالطول وعرض الأرض مالك وحاكم أغلب البلاد والإمبراطوريات، صاحب السطوه والأمر والإشارة والبدء والغزو والنقطة الأولى والأخيرة، وإن كنت من الذين أغوتهم الحياة بالرأي وأقوال أفلاطون وهؤلاء البوهميون وأصحاب نظريات علم الاجتماع، عليك بالتفكير مليًّا أن كل ذلك سيتحطم تحت عجلات الدبابات، لأن هذا نتيجة حتمية لأي صراع بين البشر والفيلة، دعني أقربها لك، إن كنت تعيش بكوكب الأرض فستقع حتمًا تحت وطأة الأعلى والأكثر والأبطش والأقوم والأذكى والأحكم، إذًا أنت عبد منكوح بإرادته أو بغير إرادته، فاحترم تلك الطبيعة التي أعطتك مساحة، فذاك العالم الظالم، لأن كل من تجرأ انتهى برميه بحفرة، وردمه بالتراب وتحلله وتحوله لهيكل عظمي، مع اختفائه من الدنيا بالأساس، حتى أثره الطيب يبقى صورة مبروزه مكسورة بأحد البيوت القديمة، مختومًا بها (كان يرى أو ينظر أو يسمع أو يتكلم بعبارات تشير إلى فعل صدر باتجاه الزعيم الكبير)، أو أي شي عظيم المعنى، سمّوها كما تريدون، كان من أميز الأمر أن تجد من بينهم رجلًا رشيدا يبرق كالذهب، هذا الرجل الذي كان له رأي سديد بأن

لا يركب "أبو خرزانة" معترك السياسة، وأن يكتفي بالاكتناف بمعسكراته، لكنهم وضعوه بالسجن ونكلوا به وبمسيرته الحافلة بالإخلاص، ونال اخرون وانفردوا بنا ايضا، وبات الأمر أشبه بمجموعة من الضباع ينهشون من لحم ظبي يصارع ملك الموت، كانت براثينه حادة تقطع بلا شفقة وحسرة، وما أشد قسوة من ذلك هو أن الظبي حيوان نادر عمره الآلاف من السنوات، يدرس كحيوان بأعتق الجامعات، وله علم باسمه، ويصنف الظبي بأنه من أندر الحيوانات بالعالم، ذو عرق نقي، يشهد العالم عراقته ومدى زعامة حضاراته، وهنا من سأل وأجاب وباشر بالتكلم، هو أمسك العصا وجلس على الكرسي واستقر التاج فوق رأسه، يعلن الكهنه أنه صاحب الملك وأنه المختار، فعلى الجميع الانصياع لإرادة البعبع لأن إرادته واجبة.

الفصل الثاني عشر

بينما كان سعد مستشيطًا كالبركان، كان محمد قد فك سراح رقية وأركبها تاكسي لتصل لبيتها آمنة، فتملّك الشر منها لبضع لحظات أفقدتها إدراكها وشردها متناحرة بين أيدي الخاطفين، كان أبوها يرقد بالسرير مصابًا تلتف الضمادات حول جراحه الملتهبة، ارتمت الفتاة بحضن أبيها الذي ودع الظنون والوساوس بعد أن لمسها، ولبثت بأمها الحيرة وأخذت تتساءل عن سبب هذا الحضن وتلك اللحظة الحميمية وكأنها جاءت سفرًا من الصين، فصارحها سعد في ارتباك، فأخذت "تشرشح" وتتوعد أن الأمر لن يمر مرور الكرام، فأمّية سعد وقلة علامه وعدم اكتمال تعليمه لن تغفر له، ولا كبر شاربه وسمعته الرنانة ستشفع له.

وإن المرأة المتعلمة لن ترضخ لألاعيب زوجها المنفلت:

– ورحمة أمي يا سعد، ستدفع ثمن ما فعلت، هؤلاء البلطجية الذين تستخدمهم رجالًا وتحتك بهم لن يجلبوا لنا إلا الدمار، هذه المرة كانت في ابنتك، الله أعلم المرة القادمة ستكون في من؟

– هناك سوء تفاهم، رقية آمنة وبخير والحمد لله.

ردت والدماء كادت أن تنفجر من مخارج رأسها غضبًا:

– نحمد الله، لكن، إن من خطفها لو كان لمس شعرة منها لكنت قتلتك!

لم تسر الخطة كما أراد محمد، حتى قطرات دمائه المبقعة لم تُحسب فيما حدث، ولم يراوده أن الأمور ستؤول إلى ما آلت إليه، ولا خبط جمجمته بالباب كالمجنون شفع لسقطة كانت غير مرخصة بعقله الحذق، كانت قد هبطت الغشاوة وارتج كالجرس وفازت به الأفكار الغامقة أن يأخذها ويطلب الفدية، لكن اليقين أنهض فطنته وصفعه بحقيقة أن خيار الفرار هو الأصح، وحزم خيبته واختار محافظة الوادي الجديد ليهرب إليها لقلة سكانها وتشعث أطرافها حيث تتسع وينقشع بها الزحام والضجر فقرر الالتجاء إليها، وتبسيط أفكاره المشاحنة، وقرر أن يخسف بهواجسه مستعينًا بهدوء المدينة، ويصفي ويرتب أوراقه المبعثرة.

كان كل كمين يمر، يكاد قلبه أن يتوقف! تتصارع أفكاره بإقتراب النهاية وصار بآخر الطريق وينتظر وضع الكلبشات بمعصميه مع ترحيله إلى أحد السجون المظلمة غير الآدمية في لباس متسع ومتسخ تنسكب عليه رطوبة وبرودة البلاط، لتئن عظامه وأربطته ولحمه، ويبور شبابه بين أربعة جدران.

كان يستأجر شقق ببطاقة مزورة، البعض منها بأسماء مثل إبراهيم أو عصام أو وائل، فعلها عدة مرات عند أحد المخضرمين بالتزوير مع وضع باقي الاسم بأسماء وهمية ليس لها سجل،

وبالفعل اتخذ من شقة مأمن له واستقر بها، استأجرها من امرأة خمسينية اسمها سعاد، وهي امرأة ذات صيت بالعقارات بالمحافظة من عائلة عمدة قرية، منحته الأمان بعد أن كان هائمًا بين الشوارع.

– تفضل يا أستاذ وائل، آنست وشرفت.

ولج البيت ينظر لأثاثه المنظف بعناية والمنمق والمحضر، وشم رائحة بخور كان مدفوسًا بأحد خشب الباب، وكأن سعاد كانت بانتظاره، وتعلم مجيئه، كانت تمتلك قوام رهوان كنجمات السينما، وبوارز فاتنة تشعل رغبته المتفحمة، في الخمسين لكن تشعر أنها بالعشرين أو أقل، شعرها سائح كالزبد، وملامح مثالية بمقاييس الجمال الأوروبي.

– لقد أتعبتك بترويق الشقة.

– لا تقل ذلك، أنت زبون، والزبون دائمًا أوامره مستجابة، كما أردت، شقة على الشارع العمومي، إن احتجت شيء أنا تحت إمرتك.

مص شفتيه بخبثه المعتاد قائلًا:

– أحتاجك دائمًا.

فردت بحرج وحذر:

– في خدمتك.

فتح محمد شباك البلكونة الأخضر المكدس بالتراب، فوجد عربة للشرطة بجانب إحدى الشجيرات على بعد عشرين مترًا، كانت الشقة بالطابق السابع، فمن السهل رؤية مجال الشارع وأول الشارع إلى آخره، شعر بالريبة قليلًا ورجع ليسأل:

– هناك عربة للشرطة بالشارع، هل كان هناك مشكلة؟

– حقيقة، لا أعلم يا أستاذ وائل، ربما حادثة أو خناق.

عاود النظر إلى البلكونة فوجد بالطابق الأعلى بلوزة منشرة مع بناطيل جينز نسائية، يخرج منها صوت تلفاز عالٍ، أحس حاله بسيرك من الضجيج، ورجع يسأل وهو يحك أنفه الضخم محاولًا إظهار عدم الاكتراث:

– من يسكن بالأعلى؟

– إنها مدام شيماء، امرأة منفصلة من سنين، تسكن بمفردها وتؤجر الشقة بشكل دوري.

– لكن صوت التلفاز عاليًا جدًّا.

– سنتحدث إليها، آسفة، إن لم ترُق لك هناك شقق أخرى، لكن هذه بحسب المبلغ المتفق و...

– أعرف، حسب ما دفعت.

ثم تابعت بانسياب كالحرير قائلة: هل أعجبتك الشقة؟

– جدًّا.

تنهدت ثم استدارت، وأخذت تتساءل عن سر غموض هذا الرجل، ونظراته تشي بشيء قد فعله وبحس النساء المعتاد الخارق لمجال الطبيعة، تخيلت قصصًا وحكايات عنه من وحي خيالها المنطلق يشق الفضاء، ربما مجرم أو قاتل متسلسل، ربما سارق وهرب من مكان بعيد، أو ربما مباحث ومن المعقول ذلك كون هناك عربة شرطة تركن منذ الصباح بشارع هادئ دائمًا، ربما هناك خلية إرهابية بالشارع، ويعدون كمينًا للقبض على أحد، ثم ردت الباب خلفها راحلة رامية تكتل التفكير بعيدًا.

كان الوقت ملائمًا للتخطيط، كيف سيفلت بحاله خارج حدود البلد، رغم المعوقات الشديدة إلا أنه كان لديه خطة أخرى تقتضي بتأجير أحد المراكب بالبحر الأحمر ثم بعدها اختلاسها وأخذها للعبور المجيد، لدولة مجاورة.

– آلو.

– إبراهيم باشا، لقد جهزت لسيادتك القارب، الأسبوع المقبل إن شاء الله سيكون متاحًا.

– حسنًا، سأقوم بتحويل المبلغ لك، أمهلني بضع دقائق.

– بدون أي شيء والله.

– هذا حقك يا ريس محمود، الأسبوع القادم عدني أن يتم الأمر.

– (من العين دي قبل العين دي) هل سيأتي معك أحد؟ قد نغير القارب ليسع عددًا.

– لا، سأكون وحدي كما أخبرتك.

أغلق المكالمة ثم عاود بالاتصال برقم آخر، كانت رنات الهاتف ترن مثل دقات قلبه، شعور بالقلق لأنها أول تارة يكلمها، فتحت المكالمة وبصوت رقيق سألت:

– آلو، من معي؟

– أنا من ينتظرك كانتظار المسلمين لهلال رمضان.

– إن كنت تتصل للمعاكسة فأنا آخر شخص تود فعل ذلك معه، لا تتصل مرة أخرى.

قال بلهفة: تمهلي، وقبل ثانية من إغلاقها المكالمة، أنا اعرف من أنت، عزة بنت المعلم "الجربوع" من أكبر الجزارين، رأيتك عدة مرات وأطمع بنيل جزء من مشاعرك،

– محاولة جيدة، أنت لست الأخير الذي أطلعني من أكون، فهناك الكثير من الرجال يعلمون من عزة بنت المعلم الجربوع، ثم ما هذه الكلمات الدرامية يا أخ؟ هل تتابع مسلسلات تركي كثيرًا؟ لا تتصل مرة أخرى يا روميو.

ثم أغلقت الهاتف وأغلق معه ذاك المصباح الذي أنار حينما سمع صوتها، قال لنفسه إنه لا مفر إلا وأن يهبط عليها ويكلمها، أو ربما يوجه تهمة لسمعتها تفقدها حيزًا من شرفها، كل الطرق متاحة رغم فراره، وهروبه كالفار لكنه لم ينسَ "علي" وعناده الذي غاظه، فأرسل لزوجته صورًا له مع عزة برسائل هاتفية أخبرها فيها عن خيانته، وانقلب بيته رأسًا على عقب بعدها، أما عنها فانسكب إبليس عليه فعلا

كالشلال، فهو دائما ملاصق له يحل مثل الوحي وعزم على نشر إشاعة بين أناس منطقتها أنها تعمل بالبغاء، مع رش رذاذ الفلفل بأنها تعمل مع أختها وتتربحان، ومن المنطقي أن يؤثر هذا الرذاذ على والدها ويجزع طالبًا لملمة الأمر ككومة تراب تحت الطاولة، وإن استقر يتقدم محمد محامٍ للشرف عريسًا لها.

***

الباب الذي ظل مفتوحًا بات يحاول الإغلاق، فالبلد المفتوحة أذرعها هزمها الزمن بانكسار ساحق، واحتمت بثكنتها بعد طوفان هزائم قبيل رحيل الملك، الرجل الذي خان عرشه خوفًا من طلقات الرصاص، وأبحر بمحروسته بعيدًا عن محبوبته أرض الكنانة، ظل المحتمي خلف الباب يعد الدقائق، ترى هل سيأتي الوقت؟ أم سيطول محتميًا بدفء طقس مصر..

أنهم مختلفي الأشكال والأديان والأعراق والمذاهب من بلاد الغرب ومن الشرق يحتشدون داعين بعدم الانصياع متمسكين بكنيتهم المتغلغلة بتراب الوطن، والبعض يرى أن الوطن هو راحة القلب وليس أرضًا أو شعبًا مكتوب بجواز سفرهم، والبعض يرى الوطن هو "الأرض"، وسينتهون جميعهم وسيدوم الوطن.

لقد تفشى بهم مرض بيع أملاكهم وحل بالجميع يبيعون محلاتهم بالإسكندرية والقاهرة، كانت أعراض المرض هي سماع نداء من بلد آخر فينجروا كالسكارى لتلبية النداء، وطرف لئيم السجية كان حاملًا لمرض من نفس النوع مذكور بكتابه أنها ليست أرضه، وأن عليه النزوح لأرض الله المخصصة بفلسطين، وهذا المرض

كان جزءًا منه بسبب فيروس لعين، يحكم بالحديد والنار، كان يجبر الجميع على الإصابة بالمرض بدلًا من إعطاء الدواء.

نعم، صودرت ممتلكات البعض وقفلت حسابات بنكية ومصرفية وأسر آخرون بحجة العمالة والتآمر وتأميم الشركات، مع طرد وتهجير الأقليات وفقًا للمعلومات الذكية الغنية المخابراتية بأن هناك متصهينون بالداخل ويجب رش الشوارع بمبيد الوطنية، مع تلطيخهم بعنوان "متمصرون" وكأنهم شيء خبيث بجسد سليم، وما كان ولن يكون الجسد سليمًا بعد تدشين الفوهات بشوارعه وطنين الطائرات بسمائه، واستنكر التاريخ ما يحصل وقال مهما حاولتم التلاعب بي فلا يقدر أحد على تزييفي، أنا بكل اللغات، فلا مجال للاستنساخ أو التزوير.

اختلف أفراد الأسرة وانقسموا لفريقين، البعض يرعى ضرورة الرحيل والرجوع لأرمينيا بلادهم، خاصة أن هناك تطمينات ترسل يوميًّا من أقاربهم وأصدقائهم وأقرانهم، غير ذلك وجود إغراءات حكومية بالعمل والسكن، والإغراء الأكثر لمعانًا هي قوميتهم الشاهقة،

وزادت الضرائب خلف قناع التنمية، وسن الفساد سيفه ليرهب به جل رأس المال، ينغز حكم العسكر ومصالحه، فصار هاروت يماطل خلاف السابق ويتحايل على الضابط فلان والمستشار علان لتيسير عمله بالميناء، وانتهكت معاملاته بتعسف هو وغيره من أصحاب زكائب المال، شنق ذلك الوضع مرونة عمله وأحس بانقطاع هذه الحماسة التي تحثه على الاستيقاظ مبكرًا والذهاب للميناء.

وبدون ذكر للفريق الذي يريد البقاء، بالطبع تالار، الفتاة الثلاثينية ذات الوجه البشير، والتي تناهض مع عادل لتلبيس قصة حبهما بسياق مقبول لدى البيتان، نزلت تعمل بشركة للغزل وتضع القرش على القرش، عملًا بواجب التطلع لمتطلبات الحياة، وتجميع قد مال يكون لحافًا وعونًا عند الحاجة، وهناك طرف في حيرة بين البقاء وبين السفر، مارال الابنة الصغرى ترى أنهم من الممكن أن يكون قدمهم هنا وقدم هناك، إلا أن هذا الاقتراح أصابهم بمرض الاعتراض فالمنطق هنا ممسوح فكيف لهم التنقل بين دولتين مختلفتين كأسرة مستقرة، حازت الأم منصبًا رفيعًا بهذه المناقشة، فرأت أن عليهم البقاء، وأن أسرتها مصرية من جذور الأجداد فمن الصعب الهجرة، لكن رأيها عارضه زوجها وأيضًا قلة حيلتها كأم لثلاث بنات وامرأة بمجتمع معمي عن المرأة، وصفّت مارينا صف أبيها بالرحيل، فقد ضاق وجودهم بالإضافة إلى هجرة مجموعة من أصدقائها الأرمن الذين يراسلونها ويلحون بأن أرمينيا باتت بلد آخر، وهجرة عمها أسكتت ولاءها لمقترح المكوث، وعلى ما يبدو أن شقًّا اخترق تلاءم الأسرة، وستجري معركة بأحاديثهم، عن اقتراحات وتدابير، يحتفي بها هاروت ومارينا سيتجاهلها كل من تالار ومارال وأمهن، وبإحدى الليالي عرض الأب النقاش حادفًا إياه على طاولة الطعام.

– ما رأيكم أن تسافروا لعمكم وتروا إن كان الوضع مناسبًا؟ وهل سيروق لكم العيش هناك، يريفان مدينة بها جبال وثلوج ووديان ومساحات خضراء وهذه الأجواء المفضلة عندكم.

وردت تالار بانضباط:

– لا بأس بالزيارة، لكن مهما بقيت من أيام سأرجع.

قفزت مارينا تصفق وكأنها بحفل تقول بفرحة عارمة وقالت: لقد وافقت تالار، إذًا علينا حزم حقائبنا من الآن.

ضحك كل من يجلس ثم سألت تالار:

– وهل السفر كان سيتعطل من دوني؟

– بالطبع، سيتحتم علينا أخذ موافقتك القانونية.

وجهت ابتساماتهم لبعضهم بقلب مرح، وقد شتتتهم الحياة وجمعت شملهم الطاولة الخشبية وموعد العشاء، فبات من النادر الجلوس والتكلم مع بعضهم، كان الجميع مشغولًا بأمره ودنياه، لكن رغم انشغالهم هذا، تجمعوا في تحدٍّ لمشاغلهم.

علقت الأم: ستكون زيارة جيدة، خاصة أن مصاريفها على حساب أبيكم.

حدجها قائلًا بحزم:

– وهل تصرفين شيئًا في هذا البيت؟ أنا أتولى كل شيء، آآاخ من معشر النساء!

أضافت:

– ما بك يا رجل! لقد صرت لا تطيق سماع كلمة مني!

– من قال ذلك؟

– أمي.

– ست الكل والبركة.

علقت مارينا على حوارهم:

– انسحبت يا هاروت باشا بعد أول قذيفة، مع أنك مدجج بعتاد ثقيل.

– لا يا بنيتي، نكد أمك سلاح فتاك، إنها قنبلة نووية، إن هبطت محت الأخضر واليابس، فبالتأكيد أستسلم.

انفجروا ضحكًا، تلك الفرحة غابت عن مجلسهم، ثم راحوا يتناقلون الاستفسارات والرؤى.

كانت الأم لديها وجهة نظر، فاستعدت بإلقائها:

– انتبهوا جميعًا إليّ، انتبهوا يا حضرات، أنتم الآن أيها الأرمن ستسافرون أو ستجهزون على أي حال في خلال أيام، مع الأسف لن أستطيع المجيء معكم، تعلمون أن خالتكم مريضة تعيش بمفردها ولا أستطيع تركها دون رعاية!

قطب هاروت وتدخل ولسان حاله معترض:

– الخادمة ستعتني بها، ما بكِ؟

صمتت لبرهة ثم تنهدت وتابعت:

– هاروت، أختي كريستينا لا تثق بأحد غيري بعد وفاة أمي، لم يبقَ لها غيري أنا تقريبًا، وتعتمد عليّ في شراء أدويتها وحاجاتها أيضًا.

تغيرت ملامحهم المتفائلة لخيبة، فالسفر لن يحصل إلا بها، كونهن أكثر تعلقًا بها عن أبيهن.

قالت تالار:

– أمي، اذهبي معهم، سأعتني بها.

رد أبوها والدهشة أحاطت به: لماذا؟ أليست هذه أرمينيا التي تحلمين أن تريها؟

– سأزورها يا أبي، أنا حقًّا لست مستعدة للسفر وخاصة أن لديّ عملًا، والماجستير الذي أحضره، هل نسيت؟

– حسنًا، افعلوا ما تُرِدن، متى ستقررن سأحجز لكن تذاكر السفر.

شعرت مارال بالارتياب قليلًا، فتعلقها بأختها الأكبر كتعلقها بالكتابة أو كتعلق قرد بشجرة موز، طق ببالها إغواؤها بالسفر لبلد آخر، أو حتى المكوث ليلتين والرجوع بمفردها، لكن هذه الفكرة قوبلت بالرفض التام، وتنازلت تالار عن الخوض بالشرح وتبرير موقفها وذهبت للخلود إلى النوم.

عرضت مارينا أمرًا قد يمزج أطرافهم المتنافرة قائلة:

– إذا كانت تالار امتنعت عن السفر، رغم حبها الشديد لعمها وتمنيها لقاءه من جديد، وهما يسترسلان بالجوابات، لمَ لا نزيف جوابًا؟

صاحت مارال بخفة عقلها النشط:

– يسلم فمك.

– هل تعتقدين أنه سيخيل عليها؟

– آمل ذلك.

– سأكتب أنا الجواب.

التقطت قلمًا كان على (الكوميدينو) وأخرجت دفترها الذي تكتب به يومياتها، قصت ورقة وبدأت بالكتابة رويدًا رويدًا.

"تالار، كيف حالك يا ابنتي، لقد التحق أشود بالمدرسة الابتدائية، وطالت قامته وصار شقيًّا أكثر، بالفعل أشود صار مشاكسًا ولا يسمع الكلام، أنت الوحيدة التي لك قدرة على السيطرة على هذا الولد، لقد كان ينصاع لتوجهاتك بكل انضباط، وحينما كنت تنظرين بعينه كان يقول "حاضر"، وكأن بعينك المحبة. الأطفال يحبونك، ومن أَحَبه طفل أَحَبّه الرب، لأنهم ملائكته! تالار، عليك بالمجيء، أود رؤيتك، وأحضري أخواتك وأخي، هل ما زال غاضبًا مني؟ لقد أرسل لي رسالة يهنئني بعيد ميلاد أشود، لكن بعدها انقطعت جواباته، آمل أن تنزاح تلك الفكرة من رأسه، مع أنني أرى أن المسألة أكبر من سرقة، لكني عاجز على معرفة السبب، أيًّا كان حاولي معه، نحن إخوة وهذا الأمر لا يصح، اسأليه يا تالار عن حكاية "حيفا" قولي له هذه الكلمة، الذي بيننا يُروى بالروايات والأفلام، ورغم كل ذلك..."

قاطعتها مارينا قائلة:

– انتظري، ما هي حكاية حيفا؟

– أبي روى لي حكاية عن هروبه من الأتراك.

– آآاه أكملي.. لحظة.

– ما الأمر؟

– ستحكي لي هذه القصة بعد انتهائك من كتابة الرسالة؟

– لِمَ لا..

ثم التقطت بإصبعها القلم وعاودت الكتابة بيسر وإمعان بكل حرف تخطه، وتختار معاني واضحة وسهلة القراءة، كان عليها إضافة أربعة أسطر أخرى؛ كون جوابات العم تكتب بطريقة ملخصة وموجزة، رشت بعض العبارات للّعب بعاطفتها، تعلم مارال جيدًا أن تالار حذقة ومن الصعب الإيقاع بها، فبحثت بغرفتها عن جوابات عمها وبدأت بمقارنة الرسائل مع إتقان طريقة السرد، لاحظت أن عمها يكتب جزءًا من الرسالة بالأرمينية، وكان هذا تحديدًا، فلجأت لإحدى صديقاتها التي ترجمت لها رسالتين بترجمة جيدة، وعلقت صديقتها قائلة إن عمها يستخدم كلمات قديمة أرهقتها وكأنها فكت شفرة، ثم استخرجت مارال من دراسة رسائل عمها رسالة خاصة بها نثرت حروفها وعباراتها بإتقان، وأولجت الرسالة بصندوق البريد بانتظار أن تقطف ضحيتها الطعم، وتقع باللغم المصنوع بإحكام.

***

الساعة الواحدة ظهرًا في إحدى ليالي الإسكندرية الباردة، بهدوء شوارعها بعد "نوّة" ثقيلة وغرق الأسفلت بالماء وانسداد الأبيرة، مع تكون قوس قزح في السماء ليلوّنها ويرطب الهواء وتخف الأرواح لتصبح منتشيه بالسرور، ومع المطر يمحى

أثر التلوث وعوادم السيارات المعتاد، كان التحقيق جاريًا للقبض على "ابن الزنانيري"، وكان الضابط الموكل له يستطلع بمكتبه على آخر المستجدات، وقد تكومت الأوراق واحتارت الأذهان، وفشلت الأكمنة، كان بالعادة لا يستغرق الأمر طويلًا لكن هذا الأسبوع الثاني والدنيا واقفة على رجل وكأنهم يبحثون عن كائن مخفي، طال وقت المباراة ومحمد يتفوق بنتيجة واحد إلى صفر.

زفر دخان سيجارته المخزن برئتيه ثم جلس على أريكة جلدية سوداء، مغروز بها (ازرة)، كان جلد الأريكة بارد كالثلج حتى إنه أحس بلفعتها، وباشرت عينه المتعبة تمر على أسطر ملف محمول بمعصمه الأيسر الملتف عليه ساعة صينية المنشأ وفضية المظهر، يقرأ سطرًا ثم يرفع سيجارته ساحبًا نفسًا عميقًا فيلامس الدخان رموشه فيواربها كي يستطيع القراءة، كان الخط صغيرًا فأمسك بنظارته الطبية وارتداها ليسهل الأمر، تكونت رؤية ببحثه مفادها أن القضية ولجت حيزًا أضخم ليعرض على جهات عليا، ورُتَب تكثر بأكتافها النجوم، وأناس على سفح منظومة الأمن، كانت الملفات تخبره أن هذا الرجل يجب أن تدرس بالعلم الجنائي ألاعيبه وخططه، ويستحق الدراسة لطلاب الشرطة، وباغتته التساؤلات عن مدى فطنته وكيف أن قدرته فائقة التميز بالسرعة والدقة والتنفيذ.

– قل لي هل تظن أنه يفعل هذا بمفرده؟

كان هذا سؤال موجه لأحد معاونيه.

– التقرير يفيد أنه يستعين ببعض الأفراد، بعضهم بالسجن والآخر حر طليق، لكن هناك حلقة وصل مختفية.

– ربما يستعين بأحد (الناس الكبار).

– ربما أحد أقاربه، ومن واجبه المساعدة، كي لا يراه ملقًى بالسجن.

– أبوه الزنانيري، هذا لقب، أليس كذلك؟

أجاب المعاون بلباقة:

– الزنانيري هو أحد الباشوات المصريين، ورجل كان له باع بالإسكندرية، وعائلة كبيرة أفرادها كثر، لكن لا أعتقد ذلك، ربما حاملًا للّقب ليس إلا.

قال الضابط بعد أن نظر لهم جميعًا:

– إنه يستخدم بطاقات مزورة، وهذا ما اكتشفته للتو بعد التحري، لكننا نرى أنه محاصر ولا مفر له، جميع الوحدات ومركز الخدمة تعمل بجهد، وبتنا قريبين من الإمساك به.

يجب أن نحاصره، قبل الهروب خارج البلد، وأن نوزع صوره على جميع الضباط، لا يجب أن نبحث باتجاه واحد، هذا الرجل مثل الحرباء يتلون، مع تسجيل اسمه بالمستشفيات والبنوك وشركات المحمول والمطارات كمطلوب، وعند تسجيله نتحرك بسرعة.

– تمام يا فندم.

– هناك ملف آخر.

– (ورِيني).

– يا ابن الحرام! كل هذه قضايا، شروع بقتل، سرقة بالإكراه، تحرش، آداب، ما كل هذا؟!

– ألم أقل لك (الواد دا وراه بلاوي)؟

– هؤلاء هم رجالي، الله معكم.

بعد برهة دخل عليهم رجل قصير البنية بشرته برتقالية وشعره يتخذ نفس الحذو، ثم انتصب أمامهم وقال بلكنة مسؤولة:

– هل لنا بالتحدث بالقضية؟

– التفت إليه الضابط "هيثم" والغموض يحاوطه قائلًا: من أنت؟

– أنا الرائد "حسين عبد الحي" مباحث الأمن الوطني، لدينا مستندات تفيد بأن هذا الرجل الذي تبحثون عنه هو أحد أقارب قيادة عليا.

– وبناء عليه؟

– بناءً عليه، عليّ متابعة التحقيقات معكم، هذا أمر من جهة سيادية.

ثم رن هاتفه ليمرره لهيثم:

أطلق المتحدث بالهاتف أهازيج من التعليمات والتوجيهات، ورمى عليه خطة أخرى بديلة، وكأنه يقول له سأشتت شمل تحقيقاتك، دامت المكالمة لنصف ساعة يستمع بها فقط كطفل يلقن، مع وقوفه بالتزام كأنه يتكلم أمامه بشحمه ولحمه.

– كل ما قلته سينفذ يا سعادة اللواء، اطمئن.

نظر للرجل البرتقالي وقال بحذر: وما المطلوب منا الآن؟

جلس ثم قال بهدوء:

– جميع المعلومات التي قد توصلتم لها يجب أن تراجع.

– تراجع!! ما معنى ذلك؟

– حسبتك أذكى يا حضرة الضابط، عليك بإخفاء بعض المعلومات ليس كل المطلوب مرغوب.

– لكننا يجب أن نعرض كل تلك التحقيقات على النيابة، لا يوجد خيار أو فقوس عندهم.

– يوجد!

تنهد الضابط وتحسر قائلًا: لكم يد بالنيابة أيضًا؟ اللهم صلّ على النبي.

ثم أشار إلى معاونه قائلًا:

– أعطِ له الملفات، دعه يقص ويلصق ما يرغب، أنا بالخارج.

– لا، كل شيء سيتم أمامك.

تأفف منزعجًا وتابع:

– يا باشا، أنت الكل في الكل، توليت القضية وستباشر معنا بالتحقيق، ما فائدتنا الآن؟ بالله عليك اتركنا لحالنا.

في أثناء تلك اللحظة دخل عليهم أحد اللواءات، رجل ثمين قمحي البشرة تتجلى من هيئة وكنيته وسجيته الفخامة والتميز، فأدوا التحية الشرطية، وتبللت عنوقهم عرقًا رغم اعتدال جو الغرفة.

كان هذا اللواء قد جاء نتيجة اتصال من أحد القادة المتربعين على عرش الهرم، وأناروا بطريقه الإشارة الخضراء بالتدخل حتى لا يحصل لبس وشد وجذب، وأيضًا لزيادة الحجة.

علق أحدهم قائلًا:

– (فاضل لنا رئيس الجمهورية وكدا تبقى كملت).

الفصل الثالث عشر

صار الأمر قريب من الرحيل، وتعششت الهجرة برؤوسهم يوم انطلاقها من لسان أبي، وكأن الرحيل هو سبيل سعادتنا ومولد راحتنا، وبنيان رخاؤنا، عندما أسال دائمًا عن الهجرة فيأتي ببالي شخص يرحل خوفًا من وطأة قصف قوات مدججة بالسلاح أو لراغب باب رزق جديد، أو لمن هدم وطنه فعليه البحث عن وطن آخر، فلماذا الاعتراض والانقضاض والانقباض بعشنا الدافئ، هل يهجر العصفور عشه إلا وله غاية؟ هل تهاجر القوافل إلا لغرض أو سبيل؟ كانت هناك لي أمنية وهي أن نبقى ولا نرحل وألا ننصاع لتلك الفكرة الهوجاء، أن نحتمي ونتكتف بحيطان بيتنا العتيق وأثاثه الثمين وسجاده الفريد وتعزف أصابعي على البيانو حتى تنكمش وتبور من العمر، وأخط أفكاري حتى يشرد ذهني من العجز، وترسم مارينا لوحتها وتلطخ بألوانها حتى تجف، وتطبخ أمي بأوانيها حتى تصدأ ويجلس أبي يقرأ الجرائد على كرسيه حتى يأكل السوس خشبه.

من الذي صنع الغياب لأفتك به؟ لأنزع أحشاءه وألقيها بالقمامة، أو أمحيه بممحاتي كما أفعل مع جملة كتبتها بلا فائدة، لقد أعلن هذا الدخيل عن التحدي، وحشد قوته في عز ذروته لينال من عائلتنا، هل نتركه يصدم صخرتنا المتينة ويهشمها؟ هل ندعه يشتبك بأساسنا الحصين ويدمره؟ لماذا يا أبتي سمحت له أن يغتنم من شملنا؟ ولماذا راودك الرحيل؟ سأنحره ولن أدعه يفوز، وسأتسلح بعزيمة يسوع، وأن أضحي ليس بالعناد، لكن بالحجة، إنه بيتنا وهذه بلدنا وإن كانت رمالًا ينفر منها الأحياء فسأظل بها، كان الغياب مهجورًا متربًا لفترة، آخر تارة مكث ببيتنا عندما سافرت لأمريكا لشهرين وكنا كالأرض القاحلة، نتحايل على الوقت كي يمضي ونترجاه للرجوع، الآن يريدنا أن نترك بيتنا الكبير ونهاجر! سيكون قرارًا مرًّا كالسم، لا أعرف إن كان باستطاعتي مجاراة تلك الريح العاتية، فأنا مركب صغير يمخر البحر معافرًا، ويسأل سكان البحر عن مدينة، ويقرأ النجوم ليحدد اتجاهه، أنا جاهلة بهذا العالم، إنه واسع كالفضاء وضيق مثل الحفرة، إنه كل شيء وارتداده، إنه شلال هادر وجفاف حلق، إنه خريف يسرق ربيعًا من جانب الكوكب.

هل سأظل أكتب حتى أرحل؟ الإجابة صعبة يا مارال فأنت مغلوبة، فالإجابة لا تطفئ شعلة أفكارك بل تقدد عقلك كاللحم، وتطهيه بمهارة ليستوي بمائدة أوامرهم، نعم! إنها شيء يطهيه إلى الآن قرارات غيري، ربما إن شبت قليلًا ودببت عصاتي بالأرض سأكون ملكة حرة، ما هذه المبالغة؟ ملكة حرة! أنا أستأذن أمي لشراء كيس "جيلاتي" من عم مرعي بقمة الشارع، وتتخيلين نفسك ملكة! غطي حالك باللحاف إذًا، إنه من المقرف أن أظل بدائرة لا أقوى على تخطي محيطها، بل

وإنك مرغم على التكيف والتكاتف والتكامل بمحيطها، إضافة إلى تلك الدائرة الأوسع، إنها المجتمع وهذه كأحشاء البطن تعج بالصراعات، وجناحي كجناح العصفورة رقيق وهش للغاية! وأجنحتهم كأجنحة الصقور ينقضون على فريستهم بجبروتهم، ويتناحرون فيما بينهم، وبالدائرة حيوانات أكثر افتراسًا ووحشية يتعاركون يوميًّا، مغيبي الفطنة اللازمة، فتوضع على مائدتهم لحوم بعضهم ويتلذذون بمصمصة عظام كل منهم للآخر، ويفصصون أجزاءهم بكل ناحية، كل ذلك من اجل البقاء؟ وبعد أن رأيت كل ذلك عليك بالتعايش آملًا ألا تصبح وجبة لذيذة لأحدهم.

يعتريني دائمًا الغضب أنني ضعيفة، فقد أصرخ أمام المرآة من شدة الغضب، أتطلع للبحر وأنا أقف بكورنيش "جليم" وأصرخ بأعلى صوتي، ربما ينظرون لي على أنني مجنونة أو خارجة من (السرايا الصفراء) للتو، فتبًّا وألف تبًّا للجميع، ويعتريني الفضول رغم خوفي من الهجرة.

والسؤال الجبان المتشوق لسؤالي الشجاع، إن حدث وهاجرنا كيف ستكون أرمينيا هذه التي يتكلمون عنها؟ هل يا ترى الوضع آمن؟ فقد سمعت أن المجريات هناك ليست على ما يرام، وأنه ما زال هناك مناوشات ومهاوشات بين طرفي صراع، وأسمع بالأخبار عن سقوط قتلى من المدنيين بعدة مدن، وبعض الأفراد المسلحين يتخذون بعض المناطق ملجأ لهم، ولهذا أنا متخوفة من مضي أسرتي في هذا المعترك، لكن أبي طمأنني ببعض التحفظ المعلق عليه علم أرمينيا القومية أننا سنسكن بالعاصمة، وهي خالية من أي أمر قد يضرنا، وأن هذا صار وطنه بعد صراع الاستقلال، فلا مفر من الذهاب، هذا جانب، والجانب الأكثر خدشًا به هو اشتياقه

لتراب هذه البلد من مدن وقرى وبلدات وجبال وشعب مناضل، رؤية عائلته أو ما تبقى منها على حد قوله.

لا أخفي عليكم، مهما كان الأمر ثريًّا بالتحدي والمغامرة، هناك هاجس يراودني بأن أبقى هنا حتى وإن غادروا جميعًا، وكما ذكرت أنه عقل المرأة اللعين المتردد دائمًا، فالذهاب للعيش ببلد آخر أمر يستحق كتابة الكثير والكثير فإنها لحظة حاسمة، على العموم سننظر ماذا سيجري.

***

عند بزوغ الشمس ينحني القمر، ويشرق صباح جديد حامل نفس متاعب القوم، هؤلاء الحالمين الشقيانين، تحتسي الدنيا مآسيهم وحزنهم وتمزجها لتنتقل من فرد إلى آخر، لأن كل أفعالهم هي ارتداد لهم.

كأنها قطعة إسفنجية تتشبع بالقرف ثم تغسل في حوض يعج بالصابون لتصبح نظيفة، هكذا هي أرواح بني البشر، فالإنسان النظيف نوعان:الرضيع والميت حديثًا، فخلال تلك الفترة يتسخ الفرد حتى تعصر ذنوبه في مقبرته ويكون بين يدي الله.

والعجيب أن هناك من يتنصل من أصله أو ربما حسب نفسه نبيًّا أو قديسًا، هناك من بنى هرمًا من الفضيلة الزائفة ووقف بالأعلى وقال أنا شريف ذو عفة مفرطة، والآخر اشترى غيره بلفائف النقود وادّعى الصلاح والتقوى، ليس غريب، فهذا طبع نسيج الطين، بنو الأرض الملاعين، وليس من المعقول أن ترى

كل ذلك وتغفل البائسين، هؤلاء الذين يفتقرون لأدنى حظ بالدنيا وربما الآخرة أيضًا، فتجد حالتهم يرثى لها، كأنهم بقايا عظام في صحراء النقب، استقروا في قاع المحيط المظلم وحطت عليهم أوزان الحياة بأعتى ما عندها، وداست عليهم بغلظة كأنهم صراصير بالوعات مهجورة، وتتثاقل أهوالهم تباعًا، وعند الحديث عن هؤلاء لا بد أن لا نغفل "علي" الأصم الذي هيأت له "عزة" بقصة حب وهمية وهي تستغل فتول عضلاته لتفريغ كبوتها الجسدية، حتى إنه ليس الأخير، بل كانت مثل الترس تلف على بيوت المتعطشين، وخدعته بنبرات كاذبة وأوهمته بالحب طيلة أعوام، والتلكع والتحايل لالتقاط نقوده، وكان يعطيها ما تلوذ إليه أنوثتها من حاجة، وتختلق روايات منمقة حكيمة السرد عن فائدة ادخار الأموال للمستقبل وكأنها الحكومة، وبالطبع ينساق الغلبان ويعطيها يوميته التي هي مئتا جنيه، هذه نقرة، والنقرة الأخرى هي زوجته وأولاده الذين لم يعودوا يرونه وكأنه سراب واختفى.

ولكن ينهزم خفاء نشاط عزة واقترب الأمر بالبروز، لقد شعر "علي" وأهلها، ذلك أنها باتت تنزل من البيت كثيرًا، وتطايرت صوبها الحيرة، إلا أن أباها الجربوع عزم على معرفة ما يجري، فعلم بطرف الأمر، إلا أنه سيتنازل عن زعامته كمعلم جزار وبدلا من نحر رقبتها بساطور أو سكين، اتخذ من الهدوء وسيلة قصوى، كون عزة الدلوعة الصغيرة.

***

وتهاطل نحيبهم كالأمطار الاستوائية، وتعكر صفوهم مستشريًا بشوارع الإسكندرية.

لم يذيعوا الاستسلام بل رفعوا راية الاتهام، كانوا يؤنبون بعضهم ويوزعون العتاب بينهم كأنه أكواب شاي، يستغل مثلا ثانيهم موقف ليرميه كقنبلة ثم يتفاداها الأول بنفيها، فيرتد الثالث مقاطعًا أنا لم أفعل... أنا لم أعمل... أنا لم... مشي ذلك الثالوث على هذا البساط الرديء لأيام، حتى ضاق بهم الحال والاحتكام للنفور من الأعين.

انطلق رأفت قائلًا:

– كنت شاردًا في ذاك الحين عندما ضربني هذا الكلب الهائج، فقدت القدرة على التحرك، هل توقع أحدكم أن يغدر بنا؟

رد عاطف:

– نعم وبكل بجاحه، كفاك برطمة، نحن في مأزق بسببك.

– ولماذا ليس بسببك أنت؟ هذه كانت مشورتك!

ابتسم أحمد لهم بنظرة رجل محطم رغم ضيق الموقف ثم قال:

– تشبهون الأطفال.. علينا الآن إيجاد خرم إبرة، نحن من سرقنا سعد وكنا على وشك مساومته بلحمه، لكن خاننا هذا الغبي الذي حسبناه سيسمع ويقول "حاضر"، أف، دعوني أفكر.

طالبهم عاطف قائلًا:

– لا وقت لذلك، الشرطة تبحث عنا، هيا بنا من هنا.

أومأ رأفت إليهما قائلًا:

– (تؤ تؤ)، تمهل، هل نخرج الآن نسير بالشارع كالهبل، يجب أن نختار المكان الذي نذهب إليه جيدًا ثم...

– ثم ماذا؟

– الجبل، هل عندك مكان آخر؟

– أف، أستغفر الله العظيم، كنا على بعد متر من أن نكون مليونيرات، والآن سنرجع للجبل؟ سبحانك يا رب!

– الله وحكمته!

حك أنفه ثم قال بتثاقل:

– اللهم قوِّ إيمانك!

– كلم الشيخ حسين يرى لنا مطرحًا مناسبًا، واعبثوا بأشكالكم.

– كيف؟

– مثل كل الناس، احلق ذقنك هذه، وشاربك وشعرك، ستختلف هيئتك وبالمرآة لن تعرف من أنت!

– لا يا جماعة، هذا ليس حلًّا، علينا أن ننتظر قليلًا، أراهن على "كارت" لديّ.

نطقوا بلسان واحد ونفس الآن:

– من هو؟

– عثمان.

– هه، هل تمزح؟ أتريد منا الهروب من البحر؟

– وهل لديك حل؟

– ربما.

– ما معنى ربما؟ الإجابة نعم أو لا، فلننجز قبل أن نكبل بالكلبشات.

– عاطف عنده حق، هيا بنا.

– الجبل الجبل.

قال أحمد متحمسًا:

– لا، عثمان قادر على إيوائنا بالمحيط عند قراصنة الصومال.

اقترح عاطف وقد اعتلاه شيطان:

– ما رأيك أن نتركه؟

– أحمد؟ لماذا؟

– كما سمعت، علينا أن نفترق، نذهب أنا وأنت، سيبقى أحمد هنا، سنقول له إننا ذاهبان كي نتفقا مع الرجل كي يحفظ لنا مركب، ومن ثم سنترجل معًا لوجهتنا متخفيان.

قال رأفت بحمئة:

– لن أبرح من هنا حتى أعرف وجهتنا.

شخط عاطف:

– إن لم تأتِ معي سيقبض عليك، ولا تنسَ أنك ستقعد مع ضابط سابق، أي أن أعين مصر الساهرة تتنحنح به، أيها المغفل، ارمِ جردل بنزين بهذه العاطفة العمياء التي كادت أن تقتلنا جميعًا، هذا الرجل دخيل لا نعلم أصله وفصله، هو فقط معنا كي نتصرف؟

وبعد ثرثرة استمرت لأكثر من نصف ساعة ورفع الثلاث هواتفهم مجرين مكالمات طويلة الدقائق وكثيرة الكلمات، لا يعلم أن منهم محتوى المكالمة كرسالة أخيرة أو مكالمة وداع.

ركن اثنين بجانب وتنهد رأفت بغيظ ثم علق وهو يتقطع من أعماق ضميره:

– حسنًا، المطاريد سيتكفلون بأمره، لقد كلمت الشيخ حسين وأعطى لي كلمة، هيا بنا.

– وما هو الضمان؟

– أنا غير مسؤول عن غريزة الأمومة التي بك، لا وقت لحنان الأم، هيا.

هرولا نحو الباب بعد حزم حاجتهما ثم ركبا سيارتهما متوجهان للشارع الرئيسي، ثم وقفت السيارة، فتعجب عاطف وسأل:

– ما الأمر؟ لماذا وقفت؟

وحطت قدم رأفت الأسفلت ثم توجه صوب رجل بجلباب وعمة بيضاء، قصير القامة شاحب الملامح، يقف بمنتصف الرصيف وكأنه يحرسه، ثم تبادلا نظرات حادة دون كلام، وسلم له رأفت لفافة من الورق ورجع يمد للسيارة:

– هل هذا تابع لل...

– اتفقت معه، وسيأويه لمكان آمن، لا تقلق.

اخترقت الخسة جدار مصالحهم، وشربوا من كأس أفعالهم، فبعد أن كانوا متلاحمين كفصوص النبتة، نما ورم دخيل بهذا التآخي، وصار الجميع يقتدي بذاته، فهؤلاء الثلاثي الذي تشكل للعمل المشبوه بعد أن تذمروا من وضعهم وبات الطمع والجشع يراودهم، اجتمعوا على المصائب، واختاروا ذاك الطريق الصارخ، فأولهم هذا الضابط المتقاعد بسلاح البحرية بعد أن أصيب نتيجة وقوعه بالحمام فانكسر عموده الفقري بغشامة وقال له الأطباء إن حركتك ستذهب مع الوقت ومن الأفضل الراحة، رفع الراية البيضاء فقرر العيش بالمعاش بين الفراغ والوحدة ومشاهدة مباريات كرة القدم والتي كان من عشاقها، كان مقطوعًا من شجرة! يزوره ابن عمه من الحين والآخر حتى سقم وعصى وحدته والتقى بالاثنين صدفة بأحد المقاهي حيث كانا يلعبان (الدومينو) فشاطرهما المزاج وعلم بجوفهما وأخبراه بما يطمحان إليه، فغمر إبليسهما طموحه، الأول وهو رأفت، كان بارعًا

بالرياضيات، والأعلى بدرجاته وتقديراته بصفة حتى إنهم كانوا يطلقون عليه أينشتاين لعبقريته، والآخر كان فاشلًا بالحياة الدنيا، وينجح بشق الأنفس ويلازمه الرسوب أحيانا كتلازم صغير الكنغر الأسترالي لأمه، عرفا بعضهما بشركة للبترول حيث كان الأول مهندسًا ميكانيكيًّا والثاني عاملًا عامًّا، عملا بنفس الشركة لعشرة أعوام قبل أن تطردهم كطرد موسى من مصر دون إعطاء مكافأة نظير زواجهما من الشركة البترولية، فقررا الانتقام رويدًا بالتخطيط، ونجح الاثنان بسرقة خزينة الشركة التي كان بها مبلغ وفير، ثم تخفيا كلاهما بالعمل بصيد السمك.

ومن هنا زاملهما إبليس وصار ثالثهم، وبنوا لشركة خاصة للنصب والسرقة والنهب والتخطيط لتهريب الآثار، وصار الأمر كما حلموا وجمعتهم نفس الآفة ونفس الخندق.

***

رفعت الجيبة الكحيلة لتخلع حذاءها الأسود صاحب الكعب العالي النحيل، ثم سارت بقدميها حافية ببطء على الشاطئ لتتبلل، نظرت أسفلها لتجد شيئًا فضيًّا يبرق، فانخفضت تفحصه وتنثر الرمال منه لتجد قلادة فضية بحجم نصف عقلة مكتوب بها اسمان باللغة الإنجليزية، ربما لجندي إنجليزي أضاعها، تابعت السير وهي تمسحها جيدًا وكأنها وجدت زمردة أو ماسة، لم تمر دقائق وشاهدت عادل تستقر سيارته "الأوستن" بجانب الرصيف مبتهجًا عند رؤيتها، ويقترب منها ثم تتلاصق شفتاهما بحميمية متحسسا بشرتها الناعمة بإصبعه، فتضخ هرموناتهما السعادة بالدماء وتستقبلها مستقبلاتهما العصبية ثم يكتسيهما السرور.

– ما بك؟

لا شيء، كان اليوم شاقًّا وذهبت لاختيار (أنتريه) لكن لم يعجبني شيء، أريد تصنيع الأنتريه من الصفر.

– لمَ لا تذهب للمنشية؟

– أين؟

– سوق الترك.

سأل عادل متنهدًا:

– يااااه متى سنشتري عفش منزلنا؟

– في الأحلام.

نظر لها باقتضاب ثم قال:

وكأنك تماطلين بالأمر.

– هه، أماطل! نحن طرف بحرب وكفتنا ضعيفة.

– لكن أنا أحبك والحب يهزم كل شيء!

– (اتوكس)، ما زلنا نتقابل من ورائهم.

تأفف عادل مستاءً وعاجزًا، فالوضع صلب لا يلين ككتل خرسانه، وأن بعد سنة من محاولات متكررة عاند الجميع وصدوا همتهما وأفقروا حبهما الرهيف، لكنهما لم ينخدعا لإرهاصاتهم القاتمة، وأن العلاقة ستنجح عاجلًا أم آجلًا، وظلا

مترابطان ويعيشان كالأزواج، يتقابلان يوميًّا على نفس الشاطئ، بحديقة المنتزه ويتبادلان القبلات الحميمية، ودفء كفوفهما الأمينة، ويتمتعان بشبابهما الفتي غير مهمومان بالأقاويل.

انتزع عادل حلة تأنيب الضمير قائلًا:

– لن أتركك مهما كلفني الأمر، وراهِني.

– أراهن دائمًا على عفويتك ونظراتك لي التي لا تكذب، أراهن على حبك الدائم، وشغفك للاستماع لكلامي الكثير، إن اليوم الذي رأيتك به كان عجيبًا، فعندما تطلعت لك رجفت روحي، ثم تماسكت كي لا أظهر سخيفة، وعندما رحلت ظلت صورتك بخيالي وصليت لأراك تارة أخرى.

– لست معتادًا هذه الجدية لكنها من عمقك.

أمسكت أصابع يديه اليسرى بروح شغوفة ثم قالت:

– من أعماقي.

– لِمَ لا تقولي لي هذا الكلام دائمًا؟

– أرتبك.

– حاربيه.

كانا يحتسيان القهوة الساخنة بفناجين، مصنوعين بمهارة وحنكة، مزركشة بورود زرقاء، يمددان بأحد الشواطئ، تتوسطهما طاولة مستطيلة مفروشة بلحاف من القماش الأبيض، مع لفحة هواء بقطرات موج المياه المالحة أضافت لقلبهما عشقًا

بعد عشق، ورجفة بعد نبض، يمد البحر برمله فتحتضن أقدامهما، ثم ترتمي أشعة الشمس برأسيهما، فيظللاها بمروحة يدوية من الحرير، كان الجو مثاليًّا لتبادل الحب، فلم تخلُ من مشاهد أنور وجدي وليلى مراد من مرادفات عطف واستحسان ومدح ودرمغة بالمشاعر.

– علينا أن نأخذ خطوة جادة.

– كيف؟

– أفكر أن نقيم زفافًا يحضر له جميع الخلق، ندعو إليه كافة البشر كي نعلن للعالم حبنا، هل ليس من حقنا؟

– بالتأكيد حقنا، لكن هناك عراقيل وعلينا تخطيها.

– عراقيل عراقيل، لقد طفح الكيل! متى يجب أن ننتظر كي يعلم الجميع بأن عادل يحب تالار وأننا لسنا لصوصًا أو مجرمين، نحن فقط... اثنان يحبان بعضهما!

– لا تنسَ أن عائلتي ستهاجر لأرمينيا، هذا الأمر علينا التفكير به جيدًا، كيف سنعيش معًا وأين وكيف؟

– تكلكعين الأمر وكأننا الملك فاروق وفريدة، إننا شابان، ميسورا الحال، ومعي ما يكفي كي نجوب العالم، نطير أو نذهب للفضاء أو ربما نعيش تحت الماء، أشعر أحيانًا أنها مستحيلة، ولماذا كل هذا وإخوتنا يعلمون ما بيننا! أخي رؤوف مرحب وقال بترحاب إنه سيكون سعيدًا حينما نكتب الكتاب.

– عادل؟

– قلب عادل، ماذا؟

سيكون من الغباء التسرع، انتظر لأعلم أين سيتجه مسارنا، وأنت...

– ما لي؟

– أبوك.

– (يلعن أبويا).

– مئة مرة، لكنه عقبة، وإن علم أننا قد تزوجنا، فقد يتسبب بمتاعب.

أمسك بحصوة بالرمل ثم حدفها بالبحر بقوة وهو يجز بأسنانه:

– يا رب، محاولة أخيرة، إن نجحت ستكونين لي ولن يقف أحد أمامنا. هل تظنين أنه يفرق معي؟ لقد تغير كثيرًا عما سبق، لم أرَ أبي من قبل يجلس مع اثنين من جماعة أو حركة سياسية، ارتدى قناعًا غريبًا وبتنا ننظر له كأنه مجنون حارتنا.

– الزمن يغير كل شيء، فليس من الغريب أنه غير أباك.

– بلى، ولكن ليس لحد أن يزدري زواج ابنه الكبير في سبيل قناعاته الغبية، يعتنق ما يشاء إن شاء الله يتعين أمير الجماعة! لكن يحارب علاقتنا؟!

– إن علاقتنا هي أجمل مثال عن الكفاح، كفاحك ضده هذا السيكوباتي الذي يرى أنه بمجرد أنك ابنه فإنه متحكم بمصيرك، وكأنك ورقة كوتشينة يلعب بك، يوزعها بأرجاء الطاولة، مقامر أغرته ملايينه وحط بجمجمته الخيبة، ما رأيك؟ أفكر أن أكتب عنها كتابًا، وأخط عن ما مر فوقنا كالفيل، وما طحن وكسر بنا بذرة حبنا.. الأهل!

– فكرة جيدة، (ابقي تعالي تفي على قبري) إذا تزوجنا بعد تأليف هذا الكتاب!

رنت ضحكتها المخدرة بطول وعرض الشاطئ ثم قالت:

– لا تقلق، سأكتبه بعد زواجنا.

– دعينا نكتب كتابنا أولًا ثم فكري بالتأليف والرسم حتى وإن أردت نحت تمثال يشبه توت عنخ آمون لا مانع.

– رائع.

– ما هذا الذي هو رائع؟

– طرحك بنحت تمثال، ما رأيك؟ أنا أم كليوباترا؟ لقد رأيت ايقونة لها في المتحف المصري وكان في غاية الروعة.

تمتم يدقق بالكلمة التالية وقال:

– بالطبع كليوباترا.

– أفندم؟

– لا شيء أمامك.

– نجدت حالك.

– عيب عليكِ، انتقيتك من وسط ملايين النساء ولم أرَ مثلك، وكلما نظرت بوجه امرأة تواريت عنها فلا أرى غيرك!

– ولماذا تنظر للنساء يا عادل؟

– ماذا؟ هل أضع لجامًا؟

بدأت تفكر...

وقف عادل وهو ينظف بنطاله المتجمهرة به حبات الرمال ثم قال:

– حان وقت الرحيل.

– لمَ لا تبقى قليلًا؟

– يجب عليّ اختيار أنتريه قبل الغروب.

– سآتي معك.

الفصل الرابع عشر

يوم الجمعة الموافق 17 من أبريل عام 2015.

كان يقف حافيًا على بلاط المطبخ الرخامي وقد أشعل عين البوتجاز ثم وضع رغيف خبز كان يحتله البرد، ثم رفع برّادًا من على النار يعلو منه بخار نشط ليسكب ماءه بكوب قد ترك بجوفه ملعقتي سكر ونصف ملعقة من الشاي، راح يقلب ويقلب ثم اختبر المذاق بلسانه الفاقد لحاسة التذوق، فأخبره بالجودة المطلوبة بمقدار عشرين بالمئة، أما الباقي فهو آمل برجوع فمه لحالته الطبيعية، التقط ملعقة وأخرج من الثلاجة علبة جبن بالفلفل ليدفس بها الملعقة ويخرج مقدارًا ويوزعها بالرغيف، كان قد ظفر بتلك الأرغفة من صاحبة الشقة، والتي تغدقت ببعض الجبن والبيض والعيش والفول، فعند فتحه للثلاجة أثناء استئجار الشقة وجدها عامرة، فساده الامتنان لحسن الضيافة، ربما لم يعاملوا أحدًا بذلك الاحترام منذ مدة، قضم لقمة من الرغيف المحترقة منه أجزاء بفعل النار، وارتشف قليلًا من الشاي الأخضر المغلي بالقرنفل ليطيب باله المشتت.

وبدأ يغني لجورج وسوف "الهوى سلطان الهوى سلطان يا عاشقين الهوى سلطان"، أكمل الأغنية...

كان صوته متحشرجًا خشنًا كخروشة المنشار بالخشب، فتوقف.

ثم خطا إلى البلكونة ليسند على حافة جدارها بأكواعه ويتطلع للشارع ليلتقط نظره فيلاحظ تجمعًا صغيرًا عند مسجد بالجهة المقابلة، نساء محجبات بحشمة راقية تبغضها جهنم وترحب بهن الجنة، أعمارهن مختلفة، بينهن الصغيرات والمراهقات والعجائز، مع رجال بنفس الأعمار ملتزمون بذقون منمقة، وآخرون بينهم عاصون على شعر الذقن، يبدو أنهم بالمكان الخطأ، انتهت صلاة العصر وخرج المصلون لينضموا، ثم بعد برهة رفع البعض لافتات تزدري النظام، تتقدمهم عربة نصف نقل بها سماعات كبيرة سوداء، ويمسك رجل ب(المايك) فوقها يهتف بإسقاط ومحاكمة وسجن وضرب وقتل ونفي وشطب ومحو أشخاص مع هيئات ومنظمات قد داست على وجوههم، وبآخر الهتاف يقول "سلمية سلمية" لإيضاح مدى ديمقراطية مظاهراتهم ورحمة خطابهم. ثم يخاطب الأهالي الواقفين بالشرفات يتابعون بصمت هذا الصخب وكأنهم يشاهدون فقرة بسيرك لمجموعة من الشامبانزي قائلًا: يا أهلينا، انضموا إلينا يا... أهلينا انضموا إلينا.. والجميع صم بكم يتفرج!

هم بعض الرجال بالوقوف بالخلف، فكانت النساء بالأمام والرجال خلفهم، وكأنها محاكة لاستراتيجية ما؟ كان ينظر لهم محمد بقرف، فهؤلاء الجماعة بالنسبة له مجموعة من المهرجين السذج، بل إيمانه آمن أن مصير هذا البلد بأيدي الجيش منذ

52، ولا دواء نهائي، على الرغم من قحالة الأمر الذي يمسك بتلابيب شبابه، إلا أنه يرى أن لا حل إلا التمرد، ولمَ لا وهو يمتهن العصيان وهارب من جرائم تُسكنه السجن باقي عمره، لاحظ من بعيد مجموعة ليست بالقلة تأتي من أقصى الشارع، بعد التمحيص عرف أنهم بلطجية، كانوا يحملون الشوم والعصيان والسواطير والأسلحة المختلفة، فعلم أنه سيشاهد فقرة ممتعة من المواجهة وهذا ينعش ذوقه، دنا هؤلاء المسلحون صوب المظاهرة والتي هاجت وتشعثت وبدا الرجال والشباب يقفون بعزم وكأنهم سيواجهون جيش (الفايكنج) وما هم إلا فئران حاملون للأسلحة، ثم أخرج شباب المظاهرة الألعاب النارية وأطلقوا القذائف عليهم، كانت الراشقات أشبه بصواريخ (كروز) تضيء بانطلاقها وتختفي عند مسافة معينة، اشتغل الطرفان بصراخ وطوب متقاذف ومتطاير، وفي وسط هذا العراك، ظهر البعض من الشرفات والشبابيك يحدفون ماء على المظاهرة، ظن محمد أنها ماء عادية لتفريق الناس، لكنها كانت تخرج بخارًا عند وصولها الأسفلت فعلم أنها مادة كيميائية، ربما ماء نار! أو شيء مخلوط بكلور، قال لنفسه أيقعل أن يوجد هناك أناس بتلك القسوة؟ وكأن جزارًا يستنكر الذبح، تقدم واحد من البلطجية بسلاح خرطوش وضغط الزناد فأصاب شابًّا مراهقًا كان بصف المظاهرة بساقه ليقع بالأرض، فحملوه للوراء لإسعافه وهو يتأوه.

سخر محمد قائلًا:

– ما الذي تفعله أيها الأحمق؟ ارجع للبيت لديك مدرسة صباحًا.

بدأت امرأة جميلة الملمح وحجابها موضوع بإحكام، فهناك شعرة خرجت من حجابها تستنشق هواء فدفستها من جديد وبدأت تصرخ بحرقة واضطراب "حسبي الله ونعم الوكيل" ثم تابعت بعد حزم الحسبنة، "إسلامية... إسلامية... إسلامية".

فتابع محمد:

– ملوخية بالتقلية... ثم قهقه حتى انتفخت أوداجه ثم قال: يا سلام لو كان نظام الحكم هو الملوخية، وتتكون السلطة من أمرين، الملوخية بالحمام بالفريك والملوخية بالفراخ، ومجلس الشورى من أعضاء الأرز المعمر المطهي بالسمن البلدي، والوزارات من الشوك والمعالق مع وضع المخلل الجزر والبنجر والخيار والليمون كمحليات وهيئات إدارية، وأما عن الرئيس فسيكون سيادة الديك الرومي منفوش الريش، ورسميا المادة الثانية من الدستور (الملوخية هي ديانة الدولة الرسمية) ومنها تنبثق كافة التشريعات، فمن يعترض يحاكم بتهمة ازدراء الملوخية ومخالفة عاداتها وتقاليدها، ومن يأكلها بالملعقة يشنق أو من يضعها على الأرز يعدم بالرصاص، فطريقتها الموحدة (ودن القطة) بالخبز مع إحكام القرطاس كي لا تتسرب الملوخية، فهناك وزارة تدفئة الملوخية الداخلية قد تقبض عليك إن رصدتك إحدى كاميراتها ترتكب ذاك الجرم الشنيع، ناهيك عن محاكم التقلية العليا والتي قد تجد مئات المحاميين رافعين قواضي عليك بتهمة سب ذات الملوخية.

والخيار ضروري والملح ولا حل غيره هو شربها من الطبق مباشرة أو أكلها بالخبز، ويصرف لكل مواطن طاجن فتّة مع طبق ملوخية مع رغيف خبز كمساعدة من الدولة تصرف شهريًّا من المطاعم.

لم يمر هذا الاشتباك عن الشرطة، فالمتظاهرون يعلمون أنهم حتمًا سيأتون، والجبهة الواحدة ستصير اثنين، فخبر سماع سارينة الشرطة أبغض من سماع صوت النفخ في الصور، وصلوا بعربتهم المحملة بعساكر الأمن المركزي، والمقدمة سيارة شرطة مرسيدس أحدث طراز مع مدرعة جيش ثقيلة لونها صحراوي، يخرج من شبابيكها الدائرية فوهة الكلاشنكوفات المتجهزة المتحفزة المتمركزة، أطلق عسكري ذو خوذة قنبلة غاز انفجرت بالكل وطالت الأبنية، وبدأ الجميع بحماية أنوفهم وأعينهم من الانهيار، أما البلطجية (المواطنون الشرفاء) قد تفرقوا واختفوا.

رن جرس الباب، وكان الجرس رنته عبارة عن عزف بيانو لبيتهوفن، فقام من أريكته ومشق قوامه واقفًا، كانت السيدة صاحبة البيت، بعباءة سوداء فتنت أعين ابن الزنانيري المتشوق ورقرقت ذكورته، ورمق قدميها البيضاء التي تشبه أقدام تماثيل الروم وهو يمص شفتيه.

– كيف حالك؟

– بأحسن حال، خير؟

– الخرفان.

اقتضب متعجبًا:

– عن ماذا تتكلمين؟

– عن المظاهرات التي كانت بالشارع.

– تسمونهم الخرفان؟!

– نعم لأنهم مثل القطيع.

أشار إليها بالدخول فولجت بخطوات خافتة مُظهرة بعض اللباقة والحذاقة.

– وهل أنت هنا من أجل ذلك؟

– كلا، لقد أتيت لأخبرك أن الحاج عبد الخالق صاحب العمارة سيزيد مبلغ الإيجار.

– كم؟

– مئتا جنيه، أو جني كما تقولها بالإسكندراني.

– لكن الأمور لا تتغير بتلك السرعة عندنا، حسنًا سأحقب أغراضي وأرحل.

دنت منه بعد أن أزالت لفافة كانت تضعها حول رقبتها، وقالت: أستطيع تسويتها لك.

– كيف؟

– هكذا.. أقبلت نحو شفتيه العاجزة عن أي شيء غير الكلام، وصمت وتخشب مكانه وكأنه أول تارة تلمسه امرأة رغم فعل ذلك مع عدة عاهرات،

وآخرها كان قبل انقلاب حاله، فكان الأمر مخجلًا بعد اللحظة الأولى، تدارك أمرها وأكمل ما يستدعي شهوتها كالجن، وضغط على ثدييها التي تفوق كبر حجم جبال الهيملايا بقوة، ثم ضمها يرتوي بها، وبدأ بلعقها كطفل بيديه حلوى، كان الأمر محفزًا لتلك الإفرازات الإيجابية أن تمضي بمخيلته المسحوقة، كانت خجولة تناهض للمقاومة وهو عتي لم يفسح لها مجالًا، أخذ يستنشق ذلك العطر الذي بشعرها الأسود الطويل، ينزل بفمه لرقبتها الناعمة، ويدللها ويدغدغها ويداعبها من خصرها بأنامله، ثم تتمدد على الأريكة ويعتليها كالخيل بلا براح، ويستقر موجبه بسالبها فترتعش، وتئن من لذة الأمر، وبتحريك خصره بين الأمام والوراء تتعالى الآهات وتتمزج العقول، لم يعلم أنه سيبلي حسنًا هكذا، فقد تمالكته شهوته ليطفق على هذا الوضع حتى تبلل جبينه ووهن جسده قليلًا من الشد، أما عنها فلم تكفّ عن تشجيعه بالكفاح، فنفذ الأمر ولم يكترث، وغير الوضع وأكمل، كان هناك صوت يعلمه أنه ليس ببيته وأن هناك من يبحث عنه، وعليه أن يكون مستيقظًا فهو بالأخير في بيت غير بيته، فاستقرار باله ليس بالسهل، لكن اللحظة كتمت كل تلك الهواجس، هتك ما تبقى من شرفها إن كان لها أصلًا، ضخ ماءه بها وتنهد بانبساط بجانبها باريتياح كان يتمناه، وقفت ترتدي ملابسها ثم قالت:

– كان ذلك جيدًا.

***

قرفص الاثنتان ثم أخرجت مارينا علبة خشبية من أسفل مضجعها، ومسحت التراب بكفها وبدأت بالتلاوة: كانت أرتين عمتي مريضة بالطاعون، وكان الأمر

غائبًا عن ذهن الأسرة، فكانت المعرفة عن الأمراض ليست حاضرة، إلا بعد أن اكتشفه طبيب إيراني كان قد جلبه جدي على نفقته، ووصف لها علاجًا لكن المرض نهشها كالمفترس، ماتت بعمر السابعة عشر، حكى لي أبي أن عمتي كانت ذات قلب حسن وخلق طيب، فكانت معروفة بطيب السيرة وجمال الشخصية، وكانت محبوبة بين الناس ويشهد لها الجميع بصلاحها، وكان لديها بستان صغير تزرع به الورد، ويقول إن الورد كان يخرج زاهيًا عامرًا بالرائحة الزكية، وأنه كان يكبر قبل ميعاده كي يرى وجهها، وكل عيد "تجلي" تزين الكنيسة بتلك الورود، كانت صدمة فوق ما كانوا يعانون، ودفنت بفلسطين فليرحمها الرب.

– يا للقدر العسر، يهربون من الترك ليجدوا الموت يخطف أعز ما يملكون، كيف كانت؟

– لم أرَها، لكن قال إنها كانت "أديغية" بأعين خضراء وشعر بني وفاتنة القوام.

بعد ذلك كان قد قرروا المجيء إلى مصر، لوصول التهديدات أيضًا وهم بفلسطين، لكن الأمر لم يكن بتلك السهولة.

– وماذا بعد؟

– كان عليهم عبور سيناء بواسطة أحد العرب، وكان الطريق شائكًا كالصبار، فمعلوم أن الصحراء دائمًا غدار، وإن نجوا من الأتراك قد لا ينجون من الطريق المحفوف بالجبال، لكن لم يتبقَّ إلا تلك الوسيلة وهي الأخيرة للخلاص، أيضًا كان عدد الأرمن بمصر يشجعهم على الإقدام إليها، وفي أثناء تجهيز حاجتهم، سمعوا

أن ميلشيات من الترك قطعوا الطريق على قافلة متجهة نحو مصر وسلبوها وقتلوا الرجال منها، شتت ذاك طورهم وخلق بهم عدم الراحة، هل سينجحون بالعبور؟ وإن عبروا هل سيكونون آمنين؟

ثم سكتت مارينا برهة وعلق لسانها، لتمزق مارال ذاك السكوت قائلة:

– أكملي.

– ستعيرنني الفستان أليس كذلك؟

– بدأنا المقايضة.. حسنًا، ليوم واحد.

– كان عليهم تسليح أنفسهم قبل الرحيل، كان جدي لديه بندقية خشبية تعمل بالبارود تركية الصنع، أما عن أبي وعمي فقد أعطاهم سيفين من الفولاذ، وحثهم على عدم الإقدام على شيء إلا بأمره، وسيتقدمهم هو فلا داعي للتهور إن هجم عليهم أحد.. وفي الليل تحركوا.

– ماذا عن جدتي؟

– ما لها؟

– ألم تمسك شيئًا؟

– أحيانا أشك بقواكِ العقلية، سيدة بين ثلاثة رجال، لماذا يقدمون على فعل هذا؟ إلا إذا كانوا طراطير!

– منطقي.

– كان الجو باردًا جدًّا، فكانوا يلتحفون جيدًا، أصيب عمي بحمّى، فكان لا بد من البقاء بأحد الوديان بالجبل، أشعلوا النيران للتدفئة، طهت جدتي بعض الحساء، وبزغ وميض اللهب بالجبل، فرآهم أحد العرب من بعيد فصعد إليهم بدقائق، فهو كسلم من عدة طوابق بنسبة له، كان في العشرين وحاجبيه غليظة بدوي الملمح يمتلك أعين غجرية وقصير القامة قليلًا.. تقدم جدي بسلاحه يصرخ فيه:

– من أنت وماذا تريد؟

– ارجب ارجب، يبدو أنك غاضب أيها العجوز، جئت لأحذرك، أنتم أرمن ألستم الذين يحاولون الهروب؟ مر من هنا الكثير منكم، كن حذرًا هناك كمين على بعد مدينتين، لكن هذا الكمين من تجار الأفيون.

أنزل جدي سلاحه بعد أن أصابتهم الحيرة والحسرة والضيق ثم قال:

– وماذا نفعل؟

– اتبعوني، سأدلكم على مكان آمن يقيكم من طريق الترك.

أمسك تيغران بتلابيب جدي قائلًا بعد اكتساحه الخيبة:

– أبي، لا تمنح الثقة لأحد.

– ألا تسمع؟ نحن لا نعلم ماذا سيحصل بالطريق، سيناء أرض وعرة والوصول لبورسعيد يجعلنا نواجه عراقيل ونريد مرشدًا.

أكمل هاروت قائلًا:

– أنت تاجر، خريت بخبايا الطرق لا نحتاج لأحد ومعنا الخريطة.

– لكن ليس معنا الأمان يا بني!

رفع جدي جلبابه وهمّ نازلًا من الجبل بخطى متمهلة مصطحبًا هذا الشاب من العرب، كان بعمر الستين لكن جسده كشاب لائق القوام.

– أنا غير مطمئن لك، نريد العبور بسلام.

– أنت لا تعلم كم هؤلاء القوم أشد قساوة من اليهود، رغم إيمانهم بالله وسنة رسوله، لقد اتخذت ذاك الطريق بعد أن رأيتهم يرتكبون جريمة بحق أرملة، كانت منكم وكل ما كانت تريده شربة ماء لكنهم لمجرد ما علموا أمرها أطلقوا الكلاب عليها، هبشت لباسها ولحمها وارتقت بربها هامدة وكنت أنا الشاهد الوحيد على هذه الحادثة. هل تأذيتم؟

– كدنا، فظائعهم تغطي الشام وصولًا للأناضول.

– أحضرهم.

– سأصعد، عدني أن تصل عائلتي بخير؟

– أعدك.

ليس من عادة جدي الوثوق بأحد، خاصة بعد ما جرى، لكن هناك إحساس سايره أنه قد يكون مرسلًا من الله كي يساعدهم، غير ما حكاه وإظهار هذا الرجل أنه به ضغينة تجاه الترك، وربما تتحول تلك الضغينة إلى سبيل لهم، وكان قلب جدي في حيرة بين طاعته أو الامتناع عن مساعدته، نظر لهم وهم ينظرون بنفس الوتيرة

بالأعلى وقرأ ملامحهم التي كانت متخوفة من قراره، ثم أعاد النظر إليه بنظرة تحدٍّ وصعد وأخبرهم أنه يمكننا الاعتماد عليه كدليل وأن نرمي التكال على الرب.

علقت جدتي قائلة:

– فلنمشِ وراءه لكن بحذر.

ركب عربتهم الخشبية، وهز اللجام وتحركت سيقان الحمار، تتبعهما العجلتان، وكانوا بالخلف يلتفتون حولهم يقيسون عمق الصحراء الغويطة وتستخبر أعينهم عن اقتراب خطر، ذئاب تجول أمام مرمى ناظرهم، ينعكس ضوء أعينهم المضيئة بفعل ضوء القمر، ويتخيلون الصبار أجسادًا بشرية من حدة الظلام.

كان الحمار سهلًا بالمشي وكأنه صاحبه أو ربما يفطن التعامل، فهو "عرباوي" صديق الصحراء وخليل رمالها وصهر جبالها، أطال الحمار بالمشي ومرت الساعات حتى طلع النهار، التقطت أعينهم رجالًا يقفون على بعد مئات الأمتار، وكلما اقتربوا كبر حجمهم وعلموا سرهم، فهو كمين للصوص، كانوا تسعة أفراد حاملين العصي والبنادق، فالطريق ممهد دائمًا لبائعي البانجو الذين يتخذون الجبال لزراعتهم.

– أبي، أنا خائف.

– صلِّ للرب، صلوا جميعكم.

وقال العرباوي:

– لا تتكلموا إلا إذا أنا أشرت لكم.

رمى أحد هؤلاء الرجال السلام، كان يبدو أنه الزعيم.

– السلام عليكم.

فرد العرباوي السلام بصوت يحمل قساوة طبعه.

– من وين؟

– التياها.

– أنت ابن محسن تاجر الخراف؟

– لا، "أحمد" تاجر.

– تشبهه، عملك على هذا الخط؟

– أمر كثيرًا، أنقل بضاعتي من الحين والآخر.

– ومن هؤلاء؟

أجاب بامتعاض:

– ما شأنك من وين؟ قلت لك من أنا، انتهت هنا.

– ما بك؟ (روحك بمنخارك ليش؟)

بدأ بعضهم يحوم حول العربة يدقق بوجوههم ويفحص ما لديهم، يجسون حقائبهم بعصا، كأنهم ذئاب وجدوا فريسة، كان الخوف يتملك العائلة ويستشعرون الخوف، فإنهم وسط مجموعة من المجرمين.

– إنهم من فلسطين، هكذا قالها أحد الرجال بإعلان دوى بينهم.

قال ذاك الرجل الذي تكلم بالبداية بغيظ وكان يود فعل شيء لكن هناك من يعوقه:

– اذهب، لأنك فقط من "التياها" وهم أحبابنا.

– شكروا الرب على هذه المنحة، وشعروا ببعض الراحة، فالطريق ما زال عويصًا ولن يهدأ لهم بال إلا عند حدود بور سعيد، وكان يعلم أن الأتراك كان لديهم أصابع تمتد لأقصى المغرب، وإن لم يمسكهم الجيش، فعصابتهم منتشرة كالجمر الخبيث، ورغم شرهم ونفوذهم كان هناك مقاومون يشتبكون بجل بسالة، وكان جدي مستعدًّا للتضحية معهم، لكن كانت صحته تخبره دائمًا أنها هدنتها، فكان يتبرع عن طريق قنوات سرية من المقاومين، يحتفظ بالفائض من ماله لإرساله لمعسكراتهم.

كان جدي يعلم الكثير عن المقاومين، وتشبعت أذنه عن أخبارهم وعلم عن الأرمن الذين واجهوا الترك بجبل "موسى داغ".

قاطعتها مارال التي كانت تسمع بإمعان مضني:

– معقول، معسكرات لمقاومين.

– كان الأمر فظيعًا وقتها، أتخيل كيف كانوا يقضون أوقاتهم وسط هذا الرعب؟ لقد ارتكبوا بهم أفظع من ذلك، كانوا يعرون النساء ويحرقونهن في الطلق ويأخذون

الأطفال يرتكبون بهم أشنع من ذلك ويضعونهم في أقفاص فولاذية مثل الغنم يبيعونهم بالأسواق.... المهم، وصلوا لبور سعيد تحديدًا الشاطئ الآسيوي، وهو معسكر للاجئين الأرمن كان يعج بالخيام البيضاء المرصوصة بوحدات متباعدة، مقسمة حسب العائلات كل مجموعة مرقمة بحرف معين، وكان مجتمعًا كاملًا به فئات المجتمع الأرمني جله، آلاف مؤلفة، دولة بعمق الصحراء، بها كنائس بأطيافها ومدارس، وكانت تنظم حفلات الزفاف بها، مع إقبال النازحين تشعبت الخيام لتملأ منطقة "لازايت".

كان الوصول كإنعاش مريض أفاق من غيبوبة، أنعشت أرواحهم، كانوا المشوار شاقًّا مختلطًا بالقسوة، فمن أسرة مسالمة تسكن بهدوء إلى لاجئين بالخيم، فكّري بها.. كأن الله أنعم عليك بالاستقرار والسكينة وينقلب كل هذا إلى نفور للنجاة.

قالا في آنٍ واحد:

– الرب يقدس روحك يا جدي ويا جدتي.

وأردفت مارينا:

– يا ليتهم معنا!

فسألت مارال وهي تقلم أظافرها:

– ماذا عن العرباوي؟

– اسمه أحمد أبو حمد التيهي، وهو من قبيلة بوسط سيناء يعمل بالتجارة.

– إنه حقًّا شهم، أنا أريد رجلًا مثل هذا بحياتي.

– يوجد.

– أين؟

قهقعت مارينا بعد أن أغلقت هذا الصندوق والذي يبدو بنكًا للأسرار ثم قالت:

– في الخواطر التي تكتبينها.

***

دارت عجلات عربته الفخمة بشوارع زيزينيا بحثًا عن أثر لتالار، ينقض ظلال الشجر على فلل الحي العريق بالأرصفة لتحمي المارة من أشعة شمس أبريل الحارقة، وتسكن القطط ظلال البيوت.

وبعد إهلاك محرك السيارة بين التقاطعات وجدها تنتصب مراقبة ما حولها، تقبض على حقيبة جلدية، وفستانها يداعب هواء مدينة البحر لتكن كعروس البحر المتلألئة، كانت كالزينة تنير الطريق، تتوهج لافتة الأنظار وأعين المارة، والأحمر فوق شفاها يسطو على وصف ملكات الجمال، وبيض بشرتها أسقط بحثه فكانت تختلف عن جميع المصريات، ورغم مصريتها فيغلبها ملامح الغرب.

– كنت مشغولًا، هل هذا ميعادي؟

أجابت:

– في الهاتف فقط.

– لا أحب الهواتف، أفضل أن أقابل معشوقتي.

– كلامك معسول عكس مواعيدك.

– سيحل كل ذلك ببيتنا إن شاء الله، لا مقابلات خلسة ولا لف أو دوران!

ركبت بجانبه ثم قالت متأففة:

– وهل تظن أنه قد يجمعنا القدر ببيت؟ أراها مستحيلة!

ثم ابتعد بعربته إلى أن وصلا لمطعم يوناني بالجليم، كان ملك لخواجة يدعى أدونيس، كان "شيف" مخضرمًا ماهرًا بالطهي، فيعد "جيجانتس" و"السوفلاكي"، وفي المقبلات طبق "تزاتزيكي" فهو وجهة ملائمة لجائعي مدينة البطالمة، مع العطف على بطونهم وشهيتهم،

كان عادل قد حجز طاولة مسبقًا، فولج المطعم الفسيح، تقدم صوبهم النادل بخطوات منتظمة على السيراميك الأبيض المربعات بردائه المنمق وفيونكته الحمراء وسترته الرمادية، وبين أصابعه قلم وعلى راحة كفه الآخر دفتر، ثم رفع ورقة وقال بصوت واضح:

– صباح الخير، ماذا أطلب لحضرتك؟

رد عادل: سنأخذ كأسين من نبيذ العنب وسنؤجل الأكل قليلًا.

دوّن النادل طلبه ثم قال باحترام:

– تحت أمرك.

وانصرف، ليكملا هذا اللقاء الكريم.

– لِمَ قلت له تأجيل الأكل؟

– قلتِ لي بآخر محادثة أنك تفضلين شرب كأس قبل الأكل.

– ملاحظة مهمة.

– لا أفعل شيئًا غير ملاحظتك.

ابتسمت بخجل ثم قالت: هيا، تكلم.

– سأتكلم، لكن نشرب، يقولون إن الخمر هو إكسير الخلود، وإن ارتشفنا مقدارًا قد نخلد لبعضنا ونظل معًا ولا أحتاج للذهاب.

– هل سكرت قبل الشرب أم ماذا يا عادل؟ الحمام هناك، اذهب وطس وجهك بحفنة مياه، ثم إن الأساطير والأديان تقول إنه إكسير خلود الحياة وليس خلود المرء للأنثى!

– وهل لا أستحق الخلود بجانبك؟

ردت بانكماش:

– تستحق... هيا تكلم.

فكان جريئًا ولم ترَه يومًا هكذا، فبالبداية كان حذرًا يتلعثم بالكلام، يمتخر المواضيع التي يكلمها فيها بعناية ومهل، ولكنها أدركت أنها أعطته دفعة للمضي، وأن وقت الانكماش قد راح.

ثم أراح منكبيه وركز النظر لها متبسمًا، وأخرج ما هو مدفون به، كانت ذاكرته ميتة فجسها بجاز الإنعاش وحيت، فلم يسبق أن شاطر امرأة غارق بها ما بباطن روحه الشابة، وتبينت لها ماهيته وأصله وفصله، فليس من المعقول أن يقب من الأرض ويعبث بقلبها هكذا إلا إذا كان من ذوي كرامات الجذب، وكيف كان جريئًا بطفولته وشجاعًا بقرارته وشغفه بالفروسية، وكيف كان مدلّلًا، يفعل ما يروق له مزاجه فهو صبي غني النشأة.

وصل النادل وأنزل الكأسين بحذر، ولمست أطراف الكؤوس شفاههما، وشربا هانئين، ثم حول عادل سهم (السؤال) قائلًا:

– ألن تخبريني عنك أكثر؟ أتشوق للمزيد.

– مستعد؟

– كلّي آذان صاغية.

الفصل الخامس عشر

كان الضابط يدقق مع معاونيه عن أدلة أخرى تثبت تورط محمد بقضايا مشابهة، الدلائل كثيرة ولا تضع شكًّا أن هذا الشاب السكندري متمرس بالحيل الذكية، فجميع القضايا التي بَرِئَ منها هي ابتكاره ثغرات قانونية للإفلات.

ففي عام **2011**، سرق شقة رجل مهاجر يعيش بهولندا بعد خطة محكمة، وبالفعل نجح بعد أن أقنع والدة هذا الرجل والتي كانت تعاني من الزهايمر أنه صديقه، وأخذ يتناوب على البيت أسبوعيًّا، واستغل مرض المرأة العجوز، وسرق خزنة كان بها ذهب ومبلغ نقدي، الأمر لم يقف هنا، فقد التقطته كاميرات المراقبة وقبض عليه، لكنه أفلت من الحكم بحيله خطيرة، فقد كان يعمل سباكًا في نفس العمارة، وكانت حيلته اللئيمة بأنه عند الانتهاء يصعد ويجلس مع العجوز، والتي كانت وحيدة تحضر لبيتها العاملة في آخر اليوم، وكانت هي التي كانت تتابع معه عمليات المحارة، وسارت الخطة كما أراد، وكان يذهب هناك لمدة أسبوع تقريبًا علم من خلالها عدد الغرف وما تحتويها، وبعد التمحيص وجد خزنة رقمية رصاصية

اللون بغرفة نومها، ليست بالكبيرة لكن وجودها يزيد الفضول، فكيف تستعمل امرأة عجوز ترتكز على عكاز في الذهاب والمجيء إلى خزنة بغرفتها، فأثار الأمر فضوله. وفي ليلة من ليالي أغسطس الساعة الواحدة، استطاع الصعود خلسة وفتح الخزنة، والتي وجد بها مبلغًا ب(اليورو)، ثم دفسها بحقيبته، وعند خروجه شاهدته المرأة، وكان على وشك أن يغشى عليه، لكنها طرحت عليه سؤالًا "هل انتهيت من العمل؟" ليرد هو الأخير بالإيجاب، وخرج من الشقة، وكأن شيئًا لم يكن! وعند رحيله سمع صوت المرأة تنادي الخادمة، وبعدها بثوانٍ سكتت.

– كانت أعراض المرض متجلية عليها؟

أجاب ضابط التحقيقات:

– التقارير الطبية أوضحت أن هذه النوبات تأتي من الحين للآخر، وليس لها موعد، وأيضًا كان المرض بمرحلة متقدمة، فاستيقاظها كان لغرض الذهاب للحمام وبعدها جاءت النوبة، أي أن عقلها كان واعيًا لكن قدرها أن يظهر العرض بهذا الوقت، وباليوم التالي، في أثناء متابعة العاملة عملها كمساعدة للعجوز، فقد تعودت أن تذهب كل صباح باكرًا لمتابعة حالها وأحيانًا كانت تبيت معها، أبلغت العاملة الابن وهو مهندس ميكانيكي يعمل بإحدى الدول الأوربية أنها فؤجت أن الخزنة مفتوحة، وتلقينا بلاغًا يفيد بالسرقة، كل الاحتمالات ممكنة، وقبضنا عليه بظرف أربعة وعشرين ساعة، في الواقع لم يستغرق الأمر ذلك الوقت حتى.

– وكيف استطاع الإفلات من القضية؟

انتهت التحقيقات بأن العاملة من سرقت، حيث كانت التحقيقات تشير إليهما كونهما ولا غيرهما الغريبان، كانت الاتهامات تتنقل بينهما وجل ما أن وصلنا لاستنتاج أخير تنقلب الرؤى مرة أخرى، ونعيد الاستجواب والتحقيق والفحص وأفضت النتائج إلى العاملة، وهذا بفعل المحامي الذي استطاع قلب القصة رأسًا على عقب حينما ظفر بمعلومة من التحقيقات أننا قد وجدنا خصلة شعر بالخزنة، نعم نعم، إنه هو من وضعها أيضًا يوم السرقة، لم يُدلِ البواب باعتراف واضح بصعود محمد عبد الرسول مصطفى الزنانيري للعمارة، وهذه كومة، والكومة الأخرى أننا لم نجد بعد الفحص أثرًا لوجوده بالكاميرات، ولا أحد من بوّابي العمارة أو أصحاب المحلات قد وجده أيضًا، والشقة التي كان يعمل بها بنفس العمارة، قد انتهى من تشطيبها. والتحقيق مع المرأة العجوز لم يكن جدّيًا لأن المرأة لم تتذكر شيئًا!

– وعلى أي أساس اتهمتموه؟

– لا أخفي عليك، هذا الرجل غامضًا جدًّا وله سوابق بالسرقة، فاتهامه هو شيء منطقي، له أربع سوابق بالسرقة، قضيتا سرقة بالإكراه، وقضية انتشال محفظة من أحد ركاب التورماي، والأخيرة كانت سرقة ثلاجة من محل لبيع الأجهزة الكهربائية. وجل قضية بشكل وأسلوب احترافي ويفلت منها بحجة أخرى، بشكل وأسلوب بارع، وسابقة قتل بغير عمد قد ماتت بها طفلة وسجن على إثرها، فلهذا رأينا أن وجوده ليس صدفة!

أعاد الظابط هيثم سؤاله بعد أن استهالته الدهشة:

– لكن الخادمة هي من أبلغت ابنها! ليس من المعقول أن تسرق شيئًا وتبلغ.

– هذا الأمر لم يؤخذ بعين الاعتبار، نحن نأخذ بالأدلة، والمحامي المدافع قلب الكف، و...

– وماذا؟

أجاب الضابط باستنكار رافضًا المبدأ رغم احتماليته:

– لأكن واضحًا معك، مهما بلغت سلطته فحتمًا سيكون بالسجن، فالسجن مليء بأصحاب الأموال والمناصب، ولكن أنا سمعت أن هذا الرجل له نفوذ ما، ربما تدخلوا.

انفرج خد هيثم مبتسمًا، فقصة هذا الرجل نخرت بذهنه، فلم يرَ أبدًا شيئًا من هذا القبيل بعد عمل بالشرطة فاق الخمسة عشر عامًا، يتأرجح بين القضايا المختلفة والمجرمين المختلفين، فلم يلقَ أحدًا بهذه الحذاقة، أو ربما هذا الرجل له قوى خارقة يستطيع التخفي بشخصيات مختلفة ويغير شكله وهيئته كالأفلام الهندية! أو قيادي من أجهزة المخابرات قد يكون قريبه أو أخاه في الرضاعة رغم وحدانيته، فمن هذا الذي يستطيع أن يتزحلق بين قضايا جنح وجنائية إلا وقد سقى الجميع رشوة أو يمسك تهديدًا عليهم؟ هل من الممكن أن يساعده إله خارق بأعلى السماء؟

ثم لفظ هذه الأضحوكة قائلًا:

– نفوذ؟ ما هذه النفوذ التي تجعله يفلت من جل هذه القضايا ويخرج من السجن ولا يقضي مدته كاملة في قضية قتل؟

ثم تابع:

– نفوذ إلهي أم ماذا؟ الله لا يساعد المجرمين.

– أستغفر الله العظيم.

رفع سماعة الهاتف الأرضي وضغط على الأزرّة يتصل بمعاونه ويأمره بالحضور بلهجة جامدة، وبعد أن عبر الأمين ممرات القسم ودبدب حذاؤه البني على السلالم الرخامية، ولج المكتب وحضر أمين الشرطة "عبد الجواد" الرجل الفلاح المنتقل من الزقازيق بعد أن نقلته إحدى التوصيات الأمنية لكفاءته:

– الإحداثيات تقول إنه بمدينة الوادي الجديد قد استأجر شقة بعمارة بحي المعصرة، تواصلنا مع المديرية هناك لكن هناك عقبة!

– مسلحًا؟

– نتوقع أن بحرزه طبنجة، وذلك يضعنا أمام خيار لا مفر منه، وهو التعاون مع قوات التدخل السريع.

– علينا التحرك فورًا.

***

حتى عم "أنصوريان" الخباز أوصد دكانه، ليس لدي علم لسبب رحيله، لكنه واحد من الكثيرين الذين رحلوا، فكان الوحيد بشارعنا الذي كنا نشتري منه أرغفة الخبز الفينو الطازجة والمعدّة بعناية، لقد كبرت ودكانه الصغير ينشر عبق خبزه

الطازج بأزقة منطقتنا الراقية، فعظمي هذا ولحمي قد نهض بعد أكلي لخبزه الطري، كان هذا الرجل مبهجًا مغموسًا بالبركة، وأنبهر بإيمانه الغزير، أيقونة المسيح المصلب كانت كلما دخلت دكانته أجدها نظيفة رغم تعليقها بأعلى السقف، غير الترانيم المشغلة التي كانت تخلي قلبي من الهم، أنا قلقة ألا يتبقى شيء حلو بجانبي، وأن يغادر الجميع من هنا، أخاف أن أسافر إلى أرمينيا وأرجع لا أجد محلات الخضار والفاكهة الصغيرة، ولا بائع اللبن الريفي الذي يمر على البيوت بحليبه الطازج الدافئ، ولا بائع الجرائد الذي يوزع الصحف على (بسكلتته) كل صباح، وهو يصيح بعناوين الأحداث، ولا بشوارع الإسكندرية الخالية من الضجيج المزعج ولا شواطئها الساحرة، ولا رائحة البحر، المدينة ستصير أكثر غضاضة إن رجعت ولم أجد البحر! يالقسوة الزمن! هذا ما ينقص، أن يرحل البحر مع الراحلين، يتملكني الخوف حين أفكر بالرحيل عنك، أخاف ألا أقدر على العيش بدونك، أشعر أن جسدي خلق من قطرات بحرك، وقلبي وحده ينبض بنسمات هوائك، إنني حية بك، أنفاسي تصعد وتهبط مع المد والجذر، وتقيم بداخلي بناياتك المعمارية الفريدة، ويسكن أناسك جوهري، أخاف أن تصيري ذكرى كلما اقتربت من القبر، وألا يكون قبري بك، وأن تختفي معالم ذكرياتي ولا أجد ذاكرة أستوفيها، أتمنى لو كانت الذاكرة شيئًا أبديًّا وأن تذهب معي بعد صعود روحي للأمجاد السماوية، أيا ليت لحظات الوئام تبقى دائمًا، تمشي بخط متوازٍ مع الزمن، ليس عيبًا تشبثي بلحظاتي الرائعة بمدينتي الغالية، وألا أتغنى بها من الفجر، فمن هذا الخائن الذي يتكبر على أميرته،

وأدور بدوامة الهواجس، كالثقب بالكون يلتهم الكواكب والنجوم كما يتخيل علماء الفلك، تلك الهواجس عن مصيري وعن كيف سأكون بالستين، ربما عليّ ألا أترك نفسي ويستحذوني هذا الشعور كي لا أصاب بلعنة الاحتراق النفسي، ومن ثم الاكتئاب! ربما بعض اكتئاب قد يقضي عليّ بعد كل ما يجري.

***

استقوى العدوان وأحاطت براثن الكلاب بلاد الإله، ومع حدة البراثن كان لا بد من شراء السلاح للتصدي، فصدرت توجيهات بمصادرة بعض الممتلكات، وعلى ما يبدو أن الحفرة عميقة تلك المرة، وستطلب المزيد من الاحتياجات، ولكي تنجو السفينة من الهلاك لا بد من مساندة الأشرعة، كانت السفينة تمشي باتجاه منابر "الدولة" بعد أن غرقت بشواطئ فلسطين، وخيل أنه قد أزحنا عهدًا من العبث لنحضر عهدًا من التنمية، وتلك الطموحات الغوغائية المفتقرة للتحليل والتمحيص، فعلى مر الزمن بيع الهواء على أنه بترول، المهم أن المشتري سكران وفسل، يتسم بغياب الوعي، يتباهى بجهله، أما الأمم الأخرى قد نجت من الغرق، وهو موهوم بالطموح الإقليمي، ولا يطلق غير الخطابات ضاحكًا، ونجح بغسل الأدمغة، وأشاد به صفه ومدى قوة مسحوقه وكيف هو يغسل ويمحي...

وهنا ذاق هاروت مذاق المسحوق.

لم أتوقع سريان الوضع صوب هذا البئر المتسخة وتؤول إلى هذه الحافة المرعبة، أسميها الولادة المتعسرة، فالمولود الذي سيظهر للعالم ويراهن على نبوغه أبواه قد يخالف التوقعات، لقد أصابت حمى التأميم أرجاء الدولة، وبات جل من يمتلك

أرضًا يزرعها ويحصد خيرها خائفًا من فقدانها، وجل من يملك شركة قد تعب وقضى سنوات حياته يبنيها، يخصخص ويسرح العمال تحسبًا لاختفاء ما بيده سدى، ولِمَ العجلة؟ لماذا تتأهب الحكومة لأخذ الممتلكات؟ ولِمَ الأولوية بقشط هبرة من الأجانب؟ هؤلاء الذين يشكلون طبقة الأرستقراطية، من يستثمرون بالصناعة والتجارة، إننا نتجه للمجهول فرؤوس الأموال الكبيرة بقبضة الأجانب، أوروبيون كانوا، أو من اليهود قناصي الذهب أصحاب اللغد الثمين، جلهم يهرعون للخارج، وصارت حتى المحلات والأتيليهات والبنسيونات توصد نتيجة هذا القفل الموضوع على أعمال أصحاب الممتلكات، كنا نظن بالبداية عندما انفكت سلاسل الاحتلال أنها انفراجه وتطلع نحو نظام متنوع الفئات الاقتصادية، لكن تلقينا لكمة بالفك فغاب الوعي، ثم انحنينا لتفادي باقي اللكمات فلم نقدر، فتخلصنا من أصفاد الإنجليز لنتقيد بأصفاد العساكر، من الغريب تسمية ما يحصل بالتأميم، لكنها حقيقة سرقة مقننة كمصادرة ممتلكات الناس تحت طاولة القانون، القانون المفصل المطرز بمقاس رأس الهرم!

وهذا الفيروس قد طال الجميع وطال هاروت الذي أُرسل له خطاب رسمي بتأميم شركته، فكان الأمر صاعقًا حتى إن مساهمته في العمل الخيري لم تنفعه ولا دعمه لأصحاب الخزانات نفعته، حتى أصدقاؤه من علية القوم أصابهم نفس السهم، القرارات كانت تؤخذ بشكل تعسفي صغيرة كانت أو كبيرة، فأدارت عقلية البكباشي عبد الناصر نصيب الشعب بل أقدارهم، وربما أيضًا بعد موتهم عند الصعود للسماء، فتبع البكباشي أسلوبًا محاطًا بالعروبة، فخمصت قراراته بإناء القومية العربية مشحونة بأمية الشعب، والذي كان زاهد الفكر، وكانت القيادة منذ

ولادة طمي النيل بهذه البقعة لأولياء الله العسكريين، ولمَ لغيرهم؟ فهم الوحيدون القادرون على تحصين وحماية الحدود التي على مدار الزمن انتهكت من القريب قبل الغريب، وكانت اللصوص يتربصون بها ويخترقون تلاحم أبنائها، هكسوس كانوا أم أشوريين أو مقدونيين أو هؤلاء القردة الجنوبيين.

فكان لا بد من حمايتها، ومن حماها منذ عهد الفراعنة أحيانًا كان يخونها وينقلب النسيم لإعصار، ويتسلط الكاهن على فرعونه ويتخابث الوزير على ولي العهد، فعانت مصر صامدة رغم الخيانات.

وإلى أين يا وطن؟ هل سيتشبث مقصدك بالعلا؟ وتظل تصنع تاريخًا كما حفرت أول نقش وحفظت أول رموز؟ إلى أين ستظل؟

***

أضاء النجفة فغطى ضوؤها ظلام الغرفة الواسعة المفروشة بأثاث الزان، ولوح رسامين عالميين تُقدر بكنز غالٍ، كانت مهندمة نظيفة تخلو من ذرة عفر أو تراب، تجلجل رائحتها حاسة شم مفقودة أو ضائعة أو مختفية، خبط الضوء بعينه الجاحظة من شدة الانفعال فوقعت عينه على كل ما له باب، سبقته أرجله لدولاب على بعد أذرع وأخذ يدعبس بالأدراج الخشبية التي تفوح منها رائحة الورنيش الفذة، واحدًا تلو آخر، يفتح درجًا من ثلاثة طوابق فيقفله ثم يتحرك لدولاب الملابس المخزنة به بذلاته وجواربه ورابطات عنقه وقمصانه وبناطيله، ويفتح بابه ويقلب برجفة حتى وجد حقيبة جلدية رماها على السرير بعد تعرقه من الفرك، كانت بها عقود تمليك لسفن قد اشتراها من تاجر يوناني صفّى ممتلكاته وحن لمكان ولادته، أخذ يقلب

صفحاتها ويده ترتعش، ومر شريط ذاكرته عندما كان يوقع عقودها مبتهجًا مهللًا كعريس بعرسه.

وبدأ يكلم روحه كمريض بالمورستان:

– هذا ملكي، تعبي وشقائي، لا يعقل أن يصادروا ما بنيت بكل هذه السهولة! منذ مجيئي لهذا البلد لم أتعرض لموقف كهذا، ومن مَن؟ الحكومة؟! كيف لهذا العبث أن يحصل؟ بِجَرة قلم من ضابط؟

ما يقارب السنتين وأنا أناطح الظروف، يأخذوا مملكتنا بحجة التأميم، هذا النظام لم يعد أهلًا للثقة، عندما فتحنا أذرعنا، آه، ظننا أنه الفتح المبين، وأنه ستفتح لنا آفاق التحرير، وإذا بقرارات بأخذ السفن ومصادرة الفنادق!

ولجت مريم الغرفة يعتريها الذعر عندما وجدته بهذه الحالة:

– ما بك؟ وما هذه الأوراق؟

أجاب بصوت مهدرج:

– لقد أمموا الشركة وأخذوا السفن!

وكأن صاعقة أصابتها، وتسارعت أنفاسها، فهذا خراب بيتهم حتمًا، كانت تسمع عن الأمر بالنشرات وأخبار الصحف ولم يرتقِ خيالها بأن يمسّهم هذا الإعصار، فكانت دائمًا ما تراه بعيدًا.

ثم أكمل مشحونًا:

– يا ليتها كانت أنا فقط، لدي صديق يدعى "دانيال" البارحة عندما كان ذاهبًا لفتح محله صباحًا كعادته، وجد المحل مغلق وموصود بالشمع الأحمر، وتركوا له

منشورًا يفيد بنقل ملكية المحل للدولة، ليس هو فقط، اليهود بالمجمل، بما أن العدوان وفّر أرضًا خصبة لمعاداة الأجانب فرش ناصر سماد المصادرة.

أمسك بذراعها ونظر لها بشغف قائلًا:

– علينا الرحيل، هل لديك حل آخر غير الرحيل؟

– سأكلم أخي، هو عضو بمجلس النواب، وسيساعدنا لترجع سفنك وتمارس عملك من جديد.

– وحتى لو، هناك بوادر حرب وحفرة وحل سنقع بها وستطال الجميع، لقد لحقت نفسي وبعت بعض ما أملك وجهزت وجهتنا يريفان؟! لقد حجزت تذاكر السفر وسنستقر بالمدينة. مريم... فكري بالأمر واستشيري عائلتك ويمكنك المجيء لزيارتهم وسأوفر لك ما ترغبينه.

– لا أستطيع.

– أنت امرأة مؤمنة وتؤمنين بالقدر، هذا قدرنا.

– إنها محنة ليس إلا، سأخبر عائلتي وسيساعدونك، اصبر.

– لا، لن أصبر، لن أنتظر حتى أكلم نفسي كالمجانين، نسيت إخبارك أنني على تواصل مع تيغران، أخبرني أن الوضع هناك مثالي والنظام يحث الأرمن بالعالم كي يأتوا، ليقيموا بأرضهم، وبصراحة كنا نسعى للاستقرار هناك بعد أن أشترى فيلا.

– تفعل كل ذلك دون أخذ مشورتي؟!

وضع كفه على كتفها ثم قال بصوت منخفض قرب أذنها:

– ربما ما فعلته إشارة من الرب، وها نحن ذا، ضاقت بنا كل السبل!

– حسنًا والبنات؟

– في الحفظ والصون، أرمينيا ستكون بلدهن أيضًا، وهم صاروا كبارًا ويعرفن ماذا يفعلن، كنت أراقبهن كي يأتي لهن الرجال للزواج، أتحايل عليهن للذهاب للنادي كي تلتقطهن أعين شباب الأرمن الأثرياء لكن هذا لم يحدث، ربما لأنهن حاملات لطبعك الحاد والذي عانيت منه أيضًا، أو أنه بعض الشباب الذي تقدم لخطبتهن كان غير مناسب، والآخرون لقوا استحساني لكن بناتك وأدمغتهن المتحجرة!

تابعت مريم قائلة بتأنٍّ:

– على العموم كل شيء سيظهر إن كانت لهن علاقة بأحد هنا سنعرف.

– لا يوجد، ولا وقت لأخذ رأيهن، السفر أو البقاء، وأنا لن أسمح لهن بالبقاء وإن عاندت إحداهن فلا علاقة لها بي!

– هاروت!! لمَ العجلة؟ وكيف ستقنعهن بهذا التعنت؟

صاح بها غاضبًا، أنت تعيشين طوال عمرك بنعيم، لكنك لم تتجرعي مرارة الفقدان والهزيمة، لم تمري بما ممرت به وتتحدثين ببرود غير حاملة هذا الكهل، وأقرأك مثل الكتاب يا مريم، إنك إن لم تأتِ معي ستتوجهين لعزّ عائلتك، تصحين صباحًا تسبحين ب(البسين) وفي الليل تنامين بلحاف مصنوع من جلد النمر، وأكلك سيطهوه أمهر الطباخين، أليس كذلك؟

– تمالك، تمالك يابن الأرمن، ولا تخلق خيالات ليس لها أساس، لقد تركت عز عائلتي هذا من أجلك، هل نسيت؟ عندما دخلت بيتنا كنت كالشحاذين بملابس مهرولة وأكمام القميص كانت مبقعة بالشحم، وتنتعل حذاء متربًا، وقلت عادي، المهم شخصه، وتحملت عجرفة أخيك وكنت أذهب لخدمة أبيك وأمك أقضي حاجتهم، كل هذا من أجلك؟ ثم تعال هنا، لماذا كانت أكمامك متسخة؟ هل كنت تمشي على يدك؟

– العربة تعطلت بالطريق وكان عليّ التدخل، لا تصفيني بالشحاذ مرة أخرى يا مريم!

وقفت ثم حدقت به وكان طوله ملحوظًا، فرفعت فكها قليلًا:

– أحيانًا أحس أنك طفل مراوغ يريد الظفر بكل شيء، وأحيانًا أحس بعكس هذا، الرجل الذي أحببته بإخلاص وفضلته عن غيره وحاربت الجميع من أجله هو رجل ناضج.. ربتت على أعلى صدره قائلة: أقدر محنتك، وبناتك أيضًا عندما يعلمن قد يرجحن اختيارك.

– أتمنى.

غادر متأزمًا وشيء يلح به، معزوفات من الألم ضجرت بعقله مع أول صفحة قرأها بالعقود، فحروف صفحاتها قد كتبها بكدّه، ونطق باله: راح ما بنيته! راح تعب أبي، هذا الرجل المغلوب الذي تلبد أمام الشاكوش والمصهرة، لنحت وتشكيل المعادن، فأشتكت أصابعه ولسعت النار جلده، واختفت الراحة من جفونه وشاخ سمعه وبصره، وتمر لياليه شدة وتمر علينا كرمًا، يستأجر لنا أمهر

المعلمين ليعلمونا الكتابة والقراءة، وليزرع بنا نبتة المعرفة، ويحيي نورًا انطفأ من أميته وخطفته الذكريات المنسية ليوم كان يلف معه على عمل حتى وجد عملًا بمحل "بيمشيان" للمجوهرات وكانت لحظة نصر له، فقد كان أول عمل له قبيل الهجرة، وانتشت أجنحته بحلبة الأعمال يراهن عليه الجميع من حسن مهارته وفطنته وذلك اليوم المشؤوم، اليوم الذي انحرق وعيه فور سماع نبأ وفاة أبيه، وعلى نفس السرير بعد إصابته بجلطة أفقدته الحركة،

واستجمع وصيته التي أزهرت شبابه، وكانت بها نصايح عده من بينها العمل والكد إلى التملك، التملك الذي يجعلك من المتملكين على الأرض، وكان موته صارخا، وخنق هاروت خنقا إلى حد مس النفس ولزمه التخبط لفترة طويلة، وساقت الوساوس بعقله، فبدأ يذهب للكنيسة بغزارة ويسمع الوعظة ويصلي بإمعان، ويحمل إنجيله بقلبه إلى أن استعاد بعضًا من حكمته.

الفصل السادس عشر

حان الوقت لتعطيل هذا الهراء، ويجب رمي الزنانيري بين القضبان كي لا يعض ضحية تالية، دوّن الضابط هيثم ومعاونوه مكمنًا لا بأس به، وخطوط الخطة كانت بالانتظار أسفل العمارة حتى يظهر والانقضاض بهجمة خاطفة وسحبه لعربة ميكروباص، وعلموا الطابق ليراقبوا من بعيد، وترصدوا العمارة وكأنها معرضة للقنص، لكن ثبات سيقانهم انهزم بعد علمهم بمغادرته، وأتاهم الخبر من المرأة التي استأجر منها الشقة، فجع الأمر صبرهم وهموا يتشاورون فزعين، كيف له الاختفاء من أنظارهم التي كانت كالصقور؟ وكيف أغفلت أعين المراقبين؟ من المستحيل الوثب من العمارة فلا مرفأ ولا منجد؟

– كيف هذا؟ ألم تقل إنه ما زال بالعمارة؟

رد أحد الأمناء بتخبط:

– حصل يا باشا، وسهرنا يومين بمراقبته!

قال هيثم وقد اجتاحه الغضب:

– انطق، ماذا جرى؟

– يوم الثلاثاء خرج وذهب لشراء أغراض من البقالة بنفس الشارع الساعة الخامسة فجرًا، استغرق الأمر ربع ساعة.. والأربعاء نزل الساعة الثامنة صباحًا ورجع الساعة العاشرة.

– االله قدركم بمعرفة كل هذا ويوم الخميس أصبحتم كفار قريش؟

اسود وجه الأمين، فقد حنق الضابط المسكين والذي يأمل ألا يصاب بجلطة، وقال بنبرة متخدرة:

– سنستجوب السكان، وسنفرغ الكاميرات وسنعرف متى غادر.

– متى غادر!! تقصد أين غادر!

تابع الأمين وكاد سرواله يتبلل فلم تعد الأعذار مقبولة:

– الحاج مالك العمارة يصلي العصر وسيكون هنا حالًا.

وسرعان ما جاء الرجل العجوز بجلبابه الأبيض وسبحته الطويلة ذات الخرزات ماسكًا سواكًا يدعك به أسنانه، ويستغفر الله بخشوع كمتصوف:

– خير يا بيه؟

– ليس خيرًا يا حاج، نحن نبحث عن رجل هنا كان يستأجر شقة.

– لقد أراني الأمين صورته، لكن الذي تبحثون عنه، بطاقته معي واسمه وائل.

– وائل؟

– نعم وهذه البطاقة.

أمسك الضابط هيثم البطاقة وأيقن كيف يفلت الزنانيري، وكيف يختلق كل تلك الأمور دون حساب، فهو الآن مزور وسارق وقاتل ومطلوب جنائيًّا، وهذا الجمع من الكوارث يجعله خطرًا على الحكومة وعلى المجتمع برمته.

سأل هيثم والغيظ يخترق مرارته:

– في أثناء تواجده هل حكى لك عن شيء يخصه؟ أو ظهر أمر يثير الارتياب نحوه؟

– والله يا بيه، لم أتكلم معه ولم أرَه، أنا موكل إدارة العمارة لزوجتي، وهي التي تؤجر الشقق.

– وأنت؟

– أنا عجوز يا بيه، أنام أكثر من مما أتحرك، المرض يجهدني ويأكل صحتي، وأصعد السلم بصعوبة!

نظر صوب الأمين وسأله بحدة:

– هل حدثتها؟

– حدث، ولم تضف أمرًا مهمًّا.

– هاتها..

***

خان القدر فرعون مصر الثاني وغاب النهار من على أرض طيبة كعاصفة رملية حلت وغطت أرضها، واستوى بالناس همّ لم يعهد من قبل، وسطع الظلام بالقاهرة العريقة، وماج الجميع متجنبين أعمالهم وأحوالهم، كانت العاصفة قوية فذفرت دموعهم حزنًا وتقشفت فرحتهم رويدًا، فقد ابتلوا بنبأ رحيل الرئيس قائد صحوتهم الخالدة، شكل الأمر غصة بقلوب محبي الزعيم، وتسارعوا يهتفون لروحه ويدعون له بالجنة، وعلا صخب نحيب النساء، وحاز قسط من الدعاء يفوق الدعاء للأنبياء، بل يفوق دعاءهم لموتاهم، واحتشد أنصاره للحاق بجنازته فكانت مهيبة وممتدة الطول يقف بالمقدمة كبار الزوار، أما بأقصى الخلف عامة الشعب الكادحة، كما هم بالخلف دائمًا، كان بها جل الأطياف من الرجال والنساء والمسنين والأطفال، ولم ينسَ الدبلوماسيين والرؤساء والملوك إيضاح مدى حبهم لخطاباته الخلابة، وتسابقوا لتأدية واجب العزاء تاركين بلادهم المحترقة آملين بلمس نعشه قبل الدفن كي يتباركون بلعنته الناصرية، كان الجميع يود الوداع فرموا الدنيا خلفهم وأقسموا على مساندته في قبره، وفرقة فكرت بالانتحار والموت لملاقاته ومصافحته، ولمَ لا يحاسبهم الله مكانه! هذا قد يكون زائدًا عن الحد المسموح له بالتعاطف والمواساة لكنه لا شيء أمام زعيم الأمة العربية، واستفاقت جموع المتعاطفين وعلقوا لافتات تعزية، والبعض أقام صلاة الغائب على روحه، والبعض علق صورة وفكر بوضع شموع والصلاة له، لكن إيمانه بالله قد دغدغه فاستغفر، كان جمال كملك مصر الجديد بعد فاروق، شرع في الجمهورية ولم يعمل يومًا بها، وها هي نبتته بارت وراحت بمهب، ولم تنفع الشعارات ولا الخطابات

الرنانة ولا الاتكاء على جموع جهل الشعب لتعزيز أحلامه ورحل جمال ومات ظلمه لكنه ترك أثرا لن يمحى....

***

وبخضم بحث الضابط هيثم وربط خيوط القضية كان على وشك إنهاء قضية محمد والذهاب لبيته يأخذ قيلولة، رن هاتفه:

– من معي؟

قال بانضباط:

– معك اللواء محي الدين من مديرية أمن الإسكندرية.

– أهلًا سيادتك، ما الأمر؟

– القضية التي تعمل بها، لقد انتهت.

تساءل هيثم واحتشد بعقله ألف سؤال:

– كيف؟

– أصحاب القضية قد تنازلوا، والنيابة أمرت بانتهاء التحقيق.

– لكن يا فندم هذا الشخص ارتكب جريمة تزوير، كيف ينتهي الأمر هكذا؟ كيف تنهي النيابة التحقيق؟ نحن حتى لم نحتجزه و...

قاطعه اللواء قائلًا:

– دورك هو تنفيذ القانون وليس المماطلة به، لا تنسَ تسليم ملف التحقيق.

أغلق الهاتف، وبقيت حكاية محمد تُقص، ومحى خرابه وابيضت صفحته، وسكبت المزيد من الأسطر، ورجع محمد السوق يبيع!

***

صيف عام 1980

في طلعة مقدر حدوثها، كان التوأمان يلعبان الكرة على عشب الحديقة المترامية، إنها عادتهما بعد انتهاء الدراسة، يذهبان بصحبة ولديهما لقضاء وقت ممتع، وكانا ماهران بقدر يسمح لهم بمعرفة قوانين اللعبة، ركل أحدهما الكرة فوصلت بوسط ممر طريق أسفلتي وهو طريق قيادة السيارات، فحاول الطفل أخذ كرته لكن عادل ناداه:

– بيجاد، تعال إلى هنا.

كانت الأسرة تستظل بشجرة وتفترش النجيلة بقماشة مربعة عليها مأكولات ومشروبات مختلفة، تقرفص تالار وهي تضع حبات السوداني بطبق، وتقشر حبة لتحطمها تحت ضروسها وأسنانها، ثم ترتشف شايها البارد وتقرأ رواية لأحد الكتاب الإسبان، تتمعن بالسطور وتتجلى جودة الرواية، عن الذكريات، وتصور الكاتب روعة لحظاته.

هبش يوسف من طبق تالار، وقعد ملازمًا لها يجاهد لفهم ما تقرأ.

– أمي، ما معنى يرقة؟

– أترى تلك الفراشة؟

أومأ بإصبعه الصغير قائلًا:

– هذه؟

– هذه الفراشة قبل أن تطير كانت يرقة.

هزت الرواية ماضيها، ولمحت ذكريات تمر على مخيلتها، وكيف كان الزواج غاية مهملة، وكيف غاصت بمستنقع الحب؟ وتقربت من عادل؟ وكيف فتتت حاجز الدين؟ وأكملت حياتها مع عادل؟ وكيف تحدت الظروف؟

– هل تتذكر المطعم اليوناني؟

– ياه، لقد فات وقت طويل، ما السر؟

تنهدت تالار سارحة ثم قالت:

– أتذكر شبابنا، ويوم كنت بانتظارك، وكان الجو حارًّا إلى حد أنني كنت سأخلع ما عليّ.

تبسم عادل ثم قال:

– كان يومًا حارًّا لكني حينما رأيتك كأني رويت عطشي من الظمأ.

– لكنك تأخرت، وكدت أن أذوب!

– وهل خلفت ميعادي يومًا؟

– لا، أنت عند حسن الظن دائمًا.

– ودائمًا سأكون ظلك.

وعاش الاثنان بالإسكندرية، رابطين طموحهم معًا بخيط الحب، وخالفا مَن حاول تمزيق أملهما بالبقاء معًا، وهاجرت عائلة تالار لموطنهم، بالنصف الآخر من قلبها الشفاف الذي مزّقه الحب، ظفر عادل برضا والده وتزوج ما رقّ لها، واستكفت قصتهم بالإنجاب، وخلصت على الهناء...

تمّت

فهرس

الفصل الأول 5

الفصل الثاني 31

الفصل الثالث 69

الفصل الرابع 89

الفصل الخامس 103

الفصل السادس 119

الفصل السابع 137

الفصل الثامن 145

الفصل التاسع 167

الفصل العاشر 179

الفصل الحادي عشر 191

الفصل الثاني عشر 205

الفصل الثالث عشر 225

الفصل الرابع عشر 243

الفصل الخامس عشر 263

الفصل السادس عشر 277